رواية

ساقطة محترمة

للروائى

خيرى حداد أبوعافية

الرواية السابعة للمؤلف

الطبعة الأولى

مايو ٢٠٠٦

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

إهداء

إلى كل فتاة وإمرأة مازالت تحافظ على كيانها..

- وإلى كل رجل..

.. لأننا فى زمان يبيع الناس فيه كل شئ..؟

خيرى حداد

فى هذه الرواية..

تحكى لنا الساقطة المحترمة.. كيف سقطت؟

.. وكيف أدَّى بنا الفساد السياسى

والإقتصادى إلى إحداث شروخ عميقة فى

الجدار الاجتماعى المصرى..

(الجزء١)

تقلبت فى فراشها طول الليل ولم تنم، أيقظ رأسها ما قرأته فى كتاب أثناء النهار بعد عودتها من عملها، كانت تحاول تحرير ذهنها من أفكار تأتيها من حاجتها إلى المال كى تستطيع مواصلة الحياة، وكانت تشعر بيأس شديد كل يوم عندما يخبرها زوجها بأن الأبواب كلّها مقفلة ولايوجد عمل فى تلك المدينة الكبيرة، وقامت إلى نهارها قبل أن تطلع الشمس تقضى حاجتها فى الحمام ثم دخلت المطبخ وبعدها توضأت وصلت كما تفعل كل يوم ثم فتحت النافذةوراحت تطل على الشوارع والبيوت التى بدأت تدب فيها حركة الحياة، وراحت تكلّم نفسها .. مادام الله قد خلق آدم من طين وأخذه ميكائيل من عدة أماكن من الأرض ليكون الإنسان فى كل العالم واحدًا.. وان الله بعد ذلك خلقه بشراً على مراحل، وأن أول شيء أمر الله به آدم أن يذهب إلى الملائكة ليلقى عليهم السلام فردّوا عليه وعليكم السلام ورحمة الله، إذا أول شيء أراده الله لهذه الأرض السلام.. أكيد أن السلام والمحبة بين الناس هى أمان هذه الدنيا، فهل حمل الانسان هذه الأمانة؟ بعد ذلك جاء جبريل لآدم وعلمه كيف يبذر ويزرع فى الأرض وكيف يحصد ويطهى ثم يخبز... أخذ آدم جهدا كبيرا حتى استخرج رغيفا.. ولما بزغت شمس الصباح ظلت سهير ترقب الناس فى شوارع الحى وهى تربط بين ما هم فيه وبين مايجب ان يكونوا عليه، وتأكدت أن فى رأسها أفكارا كثيرة لكنها كانت جميعها تصب فى أن الناس جميعا هدفهم الحصول على الرغيف..

.. إنقلبت من النافذة لأقعد على كرسى بصالة شقتنا البسيطة.. كنت أريد أن أبعد عن أصوات الناس بالشوارع.. لماذا لاينزل زوجى مع هؤلاء، ليأتى لنا بأى رغيف؟.. لماذا لايتخلى عن عمله كمهندس طباعة؟ .. عليه أن يعمل فى أى شيء مثل كثير من أزواج صديقاتى.. لقد تخلى الجميع من حولنا عن أعمالهم الاصلية.. وأن هناك مساحات واسعة دخلها الناس من أعمال ظاهرها عمل ولكنها فى الحقيقة أعمال نصب وتدليس وفبركة حتى أن كثيرا من أصحاب المهن المحترمة أخذوا ينصبون على عملائهم ليستمروا فى التعامل معهم وبالتإلى يستمر جلب الأموال لأصحاب تلك المهن.. كل الناس تريد أن تعيش والجميع رفع سكينه على الآخر .. دعنى ياسيدى أبحث عن سكينى كى أعيش مثل هؤلاء الناس،كيف لإمرأة مثلى حاصلة على بكالوريوس التجارة منذ خمسة عشرة

عاما وتعمل فى هيئة محترمة .. كيف لها من سكين حتى تعيش.. أيها السادة أقسم لكم إننى أريد أن أكمل أيام شهرى فقط.. يوم عدس ويوم فول ويوم كشرى ويوم قطران.. ويكون في الثلاجة بيض وجبنة.. أى طعام نأكله أنا وأطفالى وزوجى.. ياسادة إن لى وزوجى تاريخا طويلا من السلف.. سلف من كل الأقارب والزملاء المقربين.. حتى أنه لم يعد هنا واحد من هؤلاء معه حتى يكون قادرا على إقراض الآخرين.. المشكلة الآن أنه لم يعد لدى كل الناس تقريبا أية نقود حتى يقرضوا غيرهم.. إذا بالمعنى الاقتصادى .. كل الناس محتاجة ومافيش فلوس علشان نكمل أيامنا.. كيف لناس محترمة أن تواصل حياتها بالعمل الشريف.. حتى الناس فى القطاع الخاص بدأوا يمدون أيديهم.. هل يتحول المحترمون إلى شحاذين.. ومتسولين .. طبعا لا .. واحدة محترمة زيى مش ممكن.. وإذا كان ممكن كيف؟ أنصب أو أسرق ومن أين؟.. هو أصلا ماعدش فيه حاجة تتسرق؟ وطبيعة عملى ليس فيها تفتيح مخ أو تسليك أمور مثل ما يفعل الآخرون.. ثم إن هذا صعب علىّ كإمرأة.. فى بيتى خمسين جنيها و اليوم منتصف شهر مارس والثلاجة فاضية.. ولايوجد فى البيت رغيف واحد.. أيها السادة لاخجل إذا قلت لكم أننى فى حاجة إلى خمسمائة جنيه أخرى حتى أكمل شهرى مع أسرتى الصغيرة.. ونكون فى هذا المستوى من الناس المكافحين جدا فى هذا البلد.. يعنى يوم فول ويوم كشرى ويوم قطران.. وآخر حاجة نفكر فيها الفراخ واللحمة.. لا ممكن كل أسبوع يوم لحمة ويوم فراخ.. هكذا يعيش الشرفاء فى هذاالبلد.. وأنا حتى الآن أقل من شرفاء هذه المدينة.. إننى لم أصل إلى الشرفاء بعد.. أنا نصف شريفة فالشريف هو الذى يستطيع أن يكمل أيام شهره دون أن يقترض من أحد.. لكنى كيف لى أن أكون شريفة مثل هؤلاء .. إذا أنا أيها الناس سقطت من صف هؤلاء الشرفاء.. وهناك أقوال كثيرة تقول.. الشريف مش لاقى ياكل.. الحمد لله وجدت نفسى أنا من هؤلاء الشرفاء.. وتبقى القضية.. هل أرضى أن يجوع ابنى خالد أو يتعرى أو يطلب سندوتش جبنة وأقول له المرتب خلص.. معلهش يابنى مافيش فلوس.. ابنى فى الخامسة الابتدائية وابنتى بسمة فى الثانية الابتدائية فى مدرسة مودرن اسكون الخاصة بحى عين شمس.. استنفذت كل الأقارب والزملاء لم يعد هناك واحد منهم قادرا على أن يقرضنى.. الموضوع أن الجميع الآن ضرب.. الضربة القاضية دخلت كل البيوت فى آخر عام ألفين .... ابنى وبنتى بيعتبرونى شىء كبير أوى.. كل الأبناء هكذا يعتبرون الآباء والأمهات.. إنهم لايعرفون الواقع المرير بعد.. أظن والحال هكذا ياسادتى ولم يعد هناك واحد أو واحدة حولى

يستطيع أن يقف بجانبى، أنه يجب على أن أبدأ.. حل ذاتى.. مبادرة من إمرأة جميلة مثلى . على فكرة لن أذهب إلى العمل اليوم.. إنه يجب أن يكون بعد اليوم عمل ثانوى.. انه يوم القرار اجازة من ذلك العمل الذى لايحقق الحياة الكريمة لأصحابه.. ورحت فى نوبه شديدة من البكاء.. أنا محجبة وأصلى فكيف أفعل هذا الذى بات فى رأسى.. لا أعرف.. وكان على أن أوقظ طفلىّ ليذهبا إلى المدرسة لكننى لم أفعل وفى الحادية عشرة استيقظ الطفلان ثم تثاءب الزوج كثيرا حتى قام وجاءنى يقول:

لماذا أنت هنا.. ولماذا لم توقظى الأبناء وأنا..

-حتى تعرف أننى أفعل كل شىء.. حتى الإيقاظ..

-- لاداعى للمعايرة.. خلاص ياسهير.. ولماذا لم تذهبى إلى العمل..

- تعبانة..

- ماذا تريدون اليوم فى الغداء..

- ليس معى إلا خمسون جنيها.. هات بيض وجبنة ولبن وخبز..

- واللحمة..

- أول الشهر.. إذا كان معاك فلوس هات..

- كفانى تريقة..

- أرد عليك بالواقع..

- لم يعد أمامى غير أن أسرق

- يبدو أن الرجال جميعا الذين يجمعهم نفس الحال قد بدأوا يفكرون فى ذلك

- ولكن يحجزهم شيئان.. أن السرقة ليست طريق هؤلاء الرجال.. وإذا فكر البعض فى ذلك فماذا يسرقون..

- كل الناس اللى تحت بتسرق من بعضها.. والناس الكبار يسرقون الثروة الحقيقية وهم جالسون على مكاتبهم

- إذا كانت السرقة منتشرة هذه الأيام فهذا شىء طبيعى لسيادة حالة البطالة، وهذه أصناف من الناس لها تلك المواهب فى النصب والاحتيال.. ولكنى للأسف لم أعرف إلا طريقا واحدا..

- هذه مشكلة.. إن الفقراء الذين يسرقون يذهبون إلى السجن ويطبق عليهم القانون، وأصحاب السلطة يسرقون علنا لأنهم يمتلكون السيف وأدرى بالتلاعب فى القوانين ويظلون ينهبون بلا حدود، وبعد أن تصبح فضيحتهم بجلاجل يعزلون فقط من

مناصبهم بلا محاسبة..

- أظن كل يوم نتكلم فى هذا الموضوع ولا فائدة.. إن هذا الكلام لن يشبعنا..

- ربنا معاك ياعبد الحميد .. شوف لنا نشبع إزاى..

- شوفى معايا..

— إنزل هات الحاجة والكلام بقه كتير ومافيش فايدة منه.. أنا فعلا لازم أشوف..

.. وقفلت باب غرفتى بالترباس وخلعت ملابسى أمام المرآة وأصبحت عارية كما ولدتنى أمى.. ثم إرتديتها قطعة بعد أخرى.. الحقيقة أعجبت بنفسى فمازلت نفس الجسد عندما كنت فتاة.. إمرأة مثلى فى منتصف العقد الرابع من عمرها وتجوع.. إمرأة بهذا الجسد والجمال وتصبح فى عيون أطفالها صغيرة.. أى شهادات وأى وظائف فى هذا البلد التى لاتحقق كرامة لأصحابها.. كنت أسخر وأندهش من الناس الذين يبيعون بضائعهم فى الشوارع وكانوا يتزايدون بشكل رهيب، والآن أنا سأنزل إلى الشوارع كى أبيع ما عندى.. إنه قرار لارجعة فيه.. من يملك شيئا عليه أن يبيعه حتى يعيش.. إن فى بلدنا هذا على الناس أن تبيع كل شىء كى تعيش.. ان التوتر والحاجة .. خاصة حاجات الأطفال لاتجعلنا نعيش فى سلام حتى مع أنفسنا وعلينا أن ننزل إلى السوق نشمر عن سواعدنا ونعرى أجسادنا ليكون لنا زبائن تشترى بضائعنا.. أى شىء مشين فى ذلك أيها الناس.. أليس هذا العالم القاسى حولنا هو الذى حكم بذلك، إنهم الظالمون فى بلادنا الذين أوصلونا إلى هذا المنحدر.. ولا أدرى كيف قضيت يومى مع أطفالى.. ومتى جاءنا عبد الحميد بالطعام ثم نزل ليبحث فى تلك المدينة العجوز عن عمل.. لقد بيع كل شىء فى البلد ولم يعد هناك غير شركات خاصة أصحابها فى منتهى الشراسة يصنعون عبودية جديدة فى بلدى.. من أين إذا يأتى العمل أو الخير من غابة موحشة زرعوا أشجارها من أنانيتهم وسفالتهم.. لماذا كان القطاع العام؟ ولماذا أداروه بالفساد.. ولماذا باعوه؟ ولمن باعوه؟ وكم قبضوا من عمولات؟ وما الذى فعله المشترون بالمصانع التى كانت على الأقل تأوى هذا الشعب.. ألم يكن أجدى أن نصلح هذا القطاع وأن نأتى بشرفاء يديرونه.. أم أن ذلك أجدى لهم ولمصالحهم الشخصية.. آلاف الأسئلة ولاتوجد إجابة واحدة.. إضرب دماغك فى الحيط.. إنك لاتستطيع أن تفعل أى شىء كى توقف الوحوش عن التهام أمة بأكملها.. لا أحد يستطيع أن يقف فى وجه الطوفان.. إن هناك من يحميه ويحرسه وينافقه.. إنه طابور من لهم مصالح وهم بكل قوتهم هذه قد دفعوا الشعب كله إلى الشوارع حتى يعود كل منهم إلى بيته وفى يده رغيف خبز لأولاده، ومع

ذلك تطاردهم البلدية بوحشية.. كان يجب أن أسكت وعلى كل الناس أن يسكتوا.. إنه كلام مكرر ومعاد.. وكل الذين يتكلمون فى مدينتى خائبون.. وعليهم أن يعملوا أى شىء كى يعيشوا .. كان على ياسادتى أن أخرس.. وأن أعمل وأن أنزل إلى الشوارع كى أبيع شيئا من جسدى حتى أعيش.. ومضى بعض الوقت ثم جلست فى الصالة شبه عارية حيث نام الطفلان بعد نوبة من اللعب والشقاوة.. ورحت أمشط شعرى الأسود الطويل وتكحلت وتزينت ورحت أتنفس هواءً جديداً، وشعرت بشوق جديد إلى أى رجل يقدر هذا الجمال والشباب ويكون قادراً على أن يدفع ما يحقق لى الحياة الكريمة، إن زوجى لم يعد قادرا على ممارسة أقل أمور الجنس.. لقد أصابته البطالة بالانهيار النفسى والجسدى.. إننى الآن لست على شفير أى يأس كما انتابنى من قبل، إننى فى ذلك القرار أحترم بقية ذاتى رغم أننى سوف أنزل إلى الشوارع تائهة تبحث عن شىء مجهول،، كانت الرياح فى الخارج غير مستقرة.. تتلاحق بين الفينة والأخرى وتنحرج فوق أسطح البنايات والأرض فتلفح وجوه المارة بالتراب، وقمت إلى النافذة لأرى هل أستطيع النزول فى هذا الجو الذى إنقلب فجأة، وكان الصفير الحاد للرياح يكاد يعربد فى أذنى ثم يسكت قليلا بعدها يعاود العربدة، مناخ قلق لكن الحرارة فى جسدى شديدة والحاجة إلى المال فى رأسى ملحة، كنت أرقب حلول المساء حتى أخرج من هذا البيت الضيق، كانت رغبتى قد تبخرت فى كل أعضاء جسدى، وأنقلبت إلى دولابى لأمسك بالقلم وورقة وأكتب لزوجى أخبره:

.. أنا ذاهبة إلى شركة فى مصر الجديدة فى محاولة للعمل لديها فترة مسائية.. طبعا إنت عارف أن هذا ضرورى.. على الأقل نشترى اللحمة ونملأ الثلاجة اللى بتشتكى..

.. سهير.. ووضعت الرسالة فوق منضدة الصالة..

وأمام المرآة إرتديت ثيابا جميلة ثلاث قطع سوداء من الساتان.. ثم بنطالا ضيقا أسودا يبرز مفاتن ساقى ومؤخرتى لكن البلوزة واسعة مفتوحة من تحت تظهر الحزام العريض الذى يربط وسطى فى أناقة وكان جسدى تحت الحزام من الأمام محبوكا ملفوفا مثيرا.. وفى لحظة إنتابتنى فكرة التخلى عن الحجاب لأنه ليس له أية لزمة من الآن.. لكن الناس فى العمارة والشارع كل الناس اللى عارفنى هايقولوا إيه.. يلعن أبو الناس كلها هو حد نافعنى، ولكن زى كل زيف وكذب موجود فى المجتمع ألبسه.. إرتديت حجاب شيك أوى فيه أنا كالفاتنة.. ينبهر له أى رجل.. أقصد حجاب يخرط وجهى مثل القمر فى ليلته الجامعة.. أى إمرأة بشعرها بجانبى الآن لاتساوى شىء.. أقول لكم ياسادة عندما

تزينت بزينة كما تكون الزينة أصبحت إمرأة أخرى.. فعلا أنا نازلة أصطاد .. وفى السابعة مساءا نزلت من بيتى ولأول مرة منذ أن قطنت هنا آخذ تاكسيا إلى ميدان روكسى.. ولم يكن معى فى حقيبتى غير ستة جنيهات.. والتهمنى سائق التاكسى بعينيه وكشرت فى وجهه وهربت من عينيه لأطل بوجهى نحو النافذة وفتح معى كلاما عن الزحام والغلاء والسوق ولم أرد عليه إلا بكلمة واحدة.. معلهش.. ربنا يستر وقصدت أن أكررها كلما تكلم حتى سكت.. ونقدته أربعة جنيهات ونزلت وصفقت باب العربة بعنف..

ومشيت قليلا وأنا أبتسم لكل الحياة لأسطر صفحة جديدة فى حياتى وأحقق ذاتى الجديدة من أجل أن نعيش .. مشيت فى الشارع وسط النساء انحشرت بينهن.. كنت أشعر بالضعف والخوف والتردد، وكان شيء فى داخلى يقول.. كونى بين النساء احتمى بينهن.. ثرثرى كما يثرثرن وعيشى حياتهن.. وقلت لنفسى كأنى أقنعها .. طيلة عمرى بينهن ماذا أخذت.. هل نسيت هدفى.. إن أى واحدة منهن لن تشترى شيئا من عندى.. إن ما عندهن عندى.. صحيح ان كل قطعة فى جسدى لها ثمن يقدره الرجال.. وهن أيضا كل واحدة لها نفس قطع الجسد والرجال وحدهم هم الذين يقدرون ثمن هذه القطع.. فلأذهب اليوم إلى رجل يقدر جسدى بثمن يدفعه.. وقفت أمام فاترينة محل شيكوريل كأننى أتفرج على الملابس المعروضة وأبطأت الخطى فاقترب منى شاب وأنا أجتاز الإشارة إلى الناحية الأخرى من الشارع وشعرت بخطاه خلفى وقصدت فاترينة محل آخر ورحت أتطلع إلى المعروضات مبتسمة واقترب منى ثانية ووقف بجانبى كأنه معى وقال:

- أنا تحت أمرك.. عاجبك إيه..

استدرت بوجهى نحوه لاتفحصه فوجدته شابا صغيرا لايتجاوز الخامسة والعشرين فقلت له ممتعضة وأنا ثابتة فى مكانى:

- روح ياشاطر شوف عيلة أدك بلاش قرف..

واستدار منقلباً نحو الشارع كأن هلعا ألم به..

.. ليس من هذه النوعية أريد.. أريد رجلا يكبرنى.. خبرة وسيم.. طويل.. ومشيت فى تمخطر إتجاه عمر أفندى.. ألا يوجد رجل يملأ عينى يقترب.. تروق له نفسى ويفتح لى جيبه حتى أعود مجبورة الخاطر مرفوعة الرأس أشترى اللحم والدجاج وأقضى حاجة بيتى.. الناس يهيمون فى الشوارع منكبون مع أحوالهم معظمهم يتأمل رصيف الشارع

كأنهم نزلوا إلى السوق وليس فى رؤوسهم شىء البته.. ووصلت إلى الباب الكبير لحل عمر أفندى ودخلت وتجولت فى الطابق الأرضى ثم خرجت على وجه السرعة قائلة لنفسى.. لن تجدى رجلا هنا.. وابتلعنى الشارع مرة أخرى وسرت بغير هدى ويئست من وجوه الناس العابسة وكأنهم جميعا مثلى نزلوا من بيوتهم يبحثون عن النقود فتاهوا جميعا.. وشعرت بإحباط شديد حتى وصلت إلى محل امفتريون وفكرت أن أدخل.. ولكن كيف ومعى جنيهان.. وواصلت السير متجهة إلى ميدان الكوربة حيث الشوارع الهادئة قليلا عن شارع إبراهيم اللقانى.. يا إلهى.. ياربى .. ياللهول.. حتى هذا لا.. ألا يوجد شىء فى البلد .. حتى الرجل صاحب المزاج مافيش.. وفجأة وأنا أكلم نفسى ولما كنت أقترب من ميدان صلاح الدين .. كان رجل يافع يمشى بجوارى ويهمس قائلا:

ياست الكل تعبتينى معاك..

فاستدرت نحوه بوجهى أرمقه بنظرة شاملة فراق لى فقلت مبتسة إليه:

- هم بيطلعوا منين

- أنا باطلع بالليل بس.. إنت ريحه فين ياقمر..

- معقولة قمر مرة واحدة..

كنت مازلت أسير ولم أتوقف حتى اقتربت من ميدان الإسماعيلية .. ورغم إننى مشيت كثيرا وتعبت قدماى إلا أننى شعرت ببعض السعادة وكأننى وجدت الرجل الذى أبحث عنه..

وكلما قلت له:

- عايز إيه بالضبط

يقول:

- عايزك إنت ويقهقه

وأقهقه أنا الأخرى ولكن فى صوت مغلف بالرقة والهدوء.. حتى قلت له بعد أن شعرت أنه مصمم على معرفتى:

- عايز منى إيه أنا ست متجوزة..

- وأنا متجوز..

- طيب يبقه خلاص كل واحد يروح بيته..

- ممكن نقعد فى مكان..

- وبعدين..

– نفسى أتعرف عليك..

– طيب فين المكان..

– امفتريون.. تعالى نرجع..

وركبنا تاكسى حتى امفتريون.. وهناك جلست بجانبه وأخذت أتأمله بين الفينة والأخرى حتى راق لى كشكل عام.. وطلب لى عصير المانجو ورحنا فى حديث طويل وبدأ هو قائلا:

– أنا إسمى حسن عيد.. خريج حقوق عمرى خمسين سنة.. باشتغل مدير شئون قانونية شركة قطاع خاص..

– عندك أولاد..

– فى الجامعة...

–ومراتك معاك

– معايا ومش معايا..

– إزاى..

– بعدين تعرفى.. المهم إنت دلوقتى..

– انت مين..

– أنا القطة.. وقهقهت بصوت عال.. لكنى سرعان ماكتمت ضحكتى وتابعت قائلة:

– إسمى سهير.عمرى.. مش ها أقول إنت كلك نظر.. ولادى فى ابتدائى.. باشتغل محاسبة فى هيئة محترمة.. وجوزى مهندس طباعة وقاعد فى البيت مافيش شغل من سنتين..

– ساكنة فين؟

– جسر السويس.. عين شمس الشرقية

– كنت بتشترى حاجة..

– أبدا نازلة أتمشى زهقت..

– زهقت من إيه بالضبط..

– الرجالة مش لاقية شغل والقهاوى اتملت وفيه رجالة انحرفت فى أعمال نصب وغش.. الحلال مش موجود.. والستات بتشتغل ومرتبهم مش مكفى حاجة.. طيب الحل ايه..

– الناس كلها دلوقتى بتدور على أشغال ثانية..

– زى إيه.. طيب أنا دخلى ستمائة جنيه عايزة خمسمائة جنيه تانية علشان أكمل

- والحل إن الستات تتصرف..
- إزاى؟..
- الوضع بيقول كده.. بيفرض على ناس كتير تنحرف عن طريقها..
- الحمد لله أنا لسه مانحرفتش..

وقهقه حسن عيد وراح يضرب كفا بالأخرى وضحكت بصوت عال.. وقاطعنى تائلا:

- طيب ياستى أنا تحت أمرك..
- عندك شغل..
- اعتبرينى أخ ليك..
- يعنى..
- إنت محتاجة كام فى الشهر..
- خمسمية..
- بسيطة..
- خلاص انت اللى قلت.. اوعه ترجع فى كلامك..
- عيب ياستى.. أنا تحت أمرك..

ورحت أضحك بصوت خفيض ومد يده وأمسك بكف يدى وأخذ يدعك فى أصابعى ثم إنحنى وقبل أناملى.. ويبدو أنه إنفعل قليلا فقال:

- عمرى ماشفت أجمل من كده..
- طيب ماينفعش الكلام ده هنا..
- عندك وقت..
- ليه..
- عندى شقة فى شبرا.. ممكن نروح نقعد شوية..
- ممكن..

ونادى الجرسون ونقده حسابه وهرولنا إلى الشارع وهو يمسك بكف يدى يضمه بين أصابعه القوية واستسلمت أصابعى لدفء يده وقلت وأنا أضع رأسى على كتفه:

- جعانه..
- تحت أمرك.. فى شارع شبرا كبابجى.. إنت تأمرى..

كانت الساعة تقترب من العاشرة حين وصلنا إلى كبابجى أبو سعده فى شارع

شبرا.. وهناك التهمنا كثيرا من اللحم المشوى، وبعد الطعام الشهى شربنا الكولا الباردة، ولما خرجنا مشينا قليلا فى شوارع جانبية حتى وصلنا إلى بيته.. كنت مثارة وكان هو عطوفا حنونا فى كلماته ولمساته وكرمه.. كان أثاث البيت قديما لكنه نظيف.. شقة صغيرة مكونة من غرفتين فى كل غرفة سرير ودولاب ومقعد وسجادة عتيقة وفى الصالة منضدة غير نظيفة وحولها ثلاثة كراسى.. وأخرج من دولابه فوطة وقطعة صغيرة من قماش ووضعهما على المقعد ثم ارتدى بيجامة بعدها قال:

- معلهش الشقة مش أد المقام

- زى الفل.. كويس إن عندك احسن من غيرك..

- دى شقة الطلبة من أربعين سنة أبويا الله يرحمه أخدها لى أنا وإخواتى لما جينا من البلد ودخلنا الجامعة..

- عايزة أدخل الحمام..

- اتفضلى..

وأخذنى بحنو شديد وهو يحتضنى بذراعه حتى أدخلنى الحمام وعلق الفوطة والقماشة على مشجب خلف الباب الصغير للتواليت.. تزينت وتعطرت ومشطت شعرى الطويل ونثرته على كتفى.. وخلعت الحجاب وامسكته فى يدى وخرجت إليه فوجدته مستلقيا على المقعد، ويبدو أننى فاجأته فقام من مقعده منبهرا وهو يقول:

- معقول الجمال ده.. عمرى ماشفت كده.. تعال ياست الكل.. وأخذنى من يده كعادته فى رقة متناهية حتى أقعدنى على فراشه وساعدته فاستلقيت فى طول المنام وقلت له وأنا مستسلمة لكلامه ورقته:

- طيب روح اتشطف..

.. وراح يقبل جسدى هنا وهناك وشعرت بغيبوبة تلف رأسى.. ولم أدر بعد ذلك.. إلا وهو يخلع عنى بنطالى وبلوزتى وعدت فى سريره أرتدى ثلاث قطع صغيرة سوداء وهى التى ارتديتها فى بيتى وكنت متيمة بجمالها على جسدى.. دقائق وذهب إلى الحمام ثم عاد إلى.. ومضى ساعتان كنت إمرأة مختلفة.. حاولت أن أكون مثل إمرأة يستأجرها رجل.. كنت أسمع عن هذا النوع من النساء وكيف أنهن يفعلن للرجال مالا تفعله الزوجات.. أخبرنى أننى بديعه وأنه يأسف على كل يوم من عمره مضى بدونى، وفى الحقيقة كان رجلا ودودا وقويا وشعرت معه بأن أنوثتى عالية جدا مع رجل يكبرنى كثيرا.. استرحنا قليلا بعد ان ارتدينا ملابسنا ولففت شعرى وارتديت حجابى وأحكمت

ارتداء ملابسى وتزينت قليلا وقلت له:

– على أن أذهب الآن.. لقد انتصف الليل..

– حاضر تحت أمرك..

– وفتح دولابه وقلب فى حاجياته.. ثم استدار نحوى ومد يده بمظروف قائلا بصوت خفيض:

– تفضلى ياسيدتى..

– ربنا يخليك .. وأمسكت كف يده وقبلته..

فما كان من الرجل إلا أن جثا على ركبتيه وأخذ يقبلنى فى كل مكان بجسدى حتى أمسكت برأسه بين كفى يدى واحتضنتها حتى يكف.. ولما استكانت رأسه على جنبى راح الرجل يبكى بصوت عال اندهشت ورحت أجفف دموعه غير انه لاحقنى قبل أن أسأله.. لماذا يبكى؟.. لاتندهشى ياسيدتى .. ان من طول الحرمان من طول الحرمان.. منذ خمسة عشرة عاما وزوجتى تمنعنى من معاشرتها.. فقلت منزعجة:

– يالهوى إزاى..

– لا.. دا موضوع طويل.. دى قصة تانية خالص..

كان المظروف مازال فى يدى، وقام هو وجلس بجوارى على الفراش، وفتحت حقيبتى ووضعت الأجرة وقفلتها بإحكام وقال وهو يقف ليرتدى ملابسه:

– مائة وخمسون جنيها..

– كل مرة كده..

– ايوه ياست الكل.. كل ليلة بكده..

– عايزنى كام مرة فى الشهر..

– زى ماتيجى..

وناولنى كارت به كافة تليفوناته وأمليت عليه رقم المنزل وهممنا بالخروج من البيت، فقال:

– ياستى .. ممكن كل ما أريدك تيجى..

– أوى أوى.. مافيش مشكلة.. بس بعد خمسة مساءا..

– أنا عايزك بكره..

– على طول كده.. أخاف تزهق منى..

– لا مش هازهق عايزك بكره..

– تحت أمرك.. بس تيجى تاخدنى من عند امفتريون مش ها اعرف آجى لوحدى..
وأوصلنى الرجل بتاكسى حتى قرب بيتى واتفقنا على كل شىء وأكملنا حديثنا فى العربة أثناء توصيلى بصوت خفيض وكنت نائمة على كتفه وأمسك كف يده بيدى..

.. وفى البيت وُجدت زوجى فى انتظارى وألقيت عليه التحية فقال وهو يتبعنى فى غرفة نومى:

– إتأخرت ..

وصمت قليلا بينما رحت أخلع ملابسى، ثم طفقت بصوت متزن:

– على ماجه دورى.. فيه ناس كتير متقدمه للوظيفة..

– والنتيجة امتى..

– يمكن بكرة اشتغل..

– معقولة..

– نظام الدنيا

– إزاى..

– علشان كنت أحلى واحدة

– الحمد لله انك حلوة..

وارتديت ملابس النوم ودخلت الحمام وهو مازال يتبعنى أينما ذهبت حتى أنه أكمل الحديث معى وأنا أقضى حاجتى حيث أخذ يقول:

– وكل يوم هاتيجى واحدة ونص..

– عندك مانع .. قلتها بحدة..

– لا طبعا.. إنت جعانة..

– لا..

– هاتنامى.

– عايز منى حاجة

– عايزك بخير.. بكرة هاتاكلوا ايه..

– الثلاجة فيها ايه..

– مافيش غير جبنه وبيض..

– اعمل بيض بالبصل..

– على فكرة فاضل معايا جنيه واحد..

– نعمة.. احنا احسن من غيرنا.

ولما خرجت نظرت إليه فى غضب، فهلع قائلا:

– انت زعلانه منى..

– لأ زعلانه من الدنيا كلها واللى بيحصل فيها..

– هو فيه حاجة حصلت..

– لأ.. باقولك ايه.. ماتسألنيش على حاجة خالص..

بعد النهارده مش هاسألك..

ودخلت فى فراشى وهو مازال يتبعنى كأنه يفتش عن شىء فى وجلس على حافة سريرى وقال:

– إنت عصبية معايا شوية.

– يعنى خارجة من الصبح وجايه بعد نص الليل.. هاجيب منين الهدوء..

– ليك حق..

– الأولاد عاملين ايه..

– كله تمام.. ذاكرت لهم وغسلت الهدوم.. وناموا من عشرة..

– سألوا عنى..

– طبعا كتير أوى.. قلت لهم إن ماما راحت مشوار مهم..

– طيب .. الصبح أبوسهم.. إطفى النور وسيبنى أنام..

.. واغرورقت عيناى بالدموع وقمت لأقفل الباب بالترباس.. ودخلت فى فراشى وانفجرت فى نوبه من بكاء شديد.. ولم أدر بعد ذلك بنفسى ورحت فى نوم عميق.. لكنه كان ثقيلا ولاحقتنى الكوابيس وانفلجت خائفة مرتين.. وفى الصباح كنت تعبة وجاءنى ابنى وابنتى يقبلانى..

واحتضنت أبنائى بشدة كأننى لم أرهما منذ وقت طويل .. ونزلا مع بيهم إلى المدرسة بعد أن أخبرت زوجى بأننى فى إنتظاره ولن أذهب لليوم الثانى إلى عملى لأننى متعبة.. وفى التاسعة هاتفت رئيسى فى العمل لأخبره باعتذارى وأننى فى حاجة إلى أجازة عارضة لظروف طارئة وشكرته، وجاءنى زوجى بعدها عائدا من المدرسة وجلسنا فى صالة البيت بعد أن تناولنا فطورا من جبن وخبز وشايا أعده هو.. كان يفرك فى كفى يديه ويبدو عليه التوتر وكنت أتأمله وأشياء كثيرة تعتمل فى نفسى ولا أدرى ماذا أقول له.. إننى لن أقول له أى شىء ولكن أكيد على مدار الأيام سيفهم.. ماذا سيفعل عندما

يفهم «لا أعرف» واستغرق ذلك وقتا طويلا وقمت إلى دولابى وفتحت حقيبتى وأخرجت منها مائة جنيه وعدت إليه قائلة:

– خد ياعبد الحميد..

– يانهار إسود ميت جنيه..

– خد ياعبد الحميد..

– منين معقوله هى الدنيا بتولد فلوس..

– لأ ياعبد الحميد أصل الأرض انفجرت..

– يعنى ايه..

– تساهيل «كل خير» .. خد ياعبد الحميد وبلاش كتر كلام.. بعدين هاتعرف..

وأخذها وقبلها وقال:

– ياحلاوة الفلوس.. طيب قولى عايزه ايه..

– هات لحمة ورز وسمنه وخضار .. وهات اللى بيجيبه الناس.. هو احنا مش ناس؟ هانعيش زى الناس..

– هم الناس عايشين إزاى

–تاكل وتشرب.. مافيش مشكلة فى الأكل والشرب.. ولكن احنا وصلنا لزمن أغلى حاجة فيه الأكل والشرب.. يبقه الناس تبيع كل غال عندها علشان تاكل.. كان الأكل رخيص زمان..

–مش فاهم..

– وأنا برضه مش فاهمه.. أنا ماغلطش ياعبد الحميد..

– هو أنا غلطت ياسهير..

– لأ.. أقصد ماغلطش لما اقول نعيش زى الناس..

– طيب منين جه الرزق ده..

– من عرقى.. من شغلى..

– هى الشركة بتدفع مقدم..

– تصدق ياعبد الحميد.. ان صاحب الشركة قال.. تحت امرك بعد ما اختارنى ومد يده لى بمجموعة أوراق مالية.. فأخذت منها واحدة فقط وأنا أقول له مهزرة بكفاية دى ياباشا ... هكذا يتعامل رجال الأعمال مع النساء الجميلات..

– ياريتنى كنت ست..

«كنت أريد أن أبصق فى وجهه» هذا عبد الحميد إنحنى تحت وطأة الزمن ولم يعد يهمه بعد عامين من البطالة إلا الفلوس تصل إليه.. إنكشف عبد الحميد .. ياحسرة على حياة يقول فيها الرجل ياريتنى كنت ست.. يازمن.. يابلد.. يابلد عايزه ولد.. صحيح البلد عايزه ولد.. والست عايزه راجل.. لا هذا موجود ولاذاك.. لكن هذا هو الموجود.. فليتقدم النساء بمبادراتهن وليرجع الرجال إلى الخلف ليؤدوا دورا آخر غريبا عليهم.. وعدت اتكلم كثيرا مع نفسى.. كان هاجسا قويا وكنت أزداد جسارة عندما أجد عبد الحميد مستسلما وضعيفا، ونزل الرجل إلى السوق.. وهاتفت صديقى حسن عيد فى مكتبه فأخبرته بأننى فى البيت وأنا تحت أمره لو أرادنى فواعدنى فى الخامسة عند محل امفتريون، ومضى اليوم سريعا وأنا أقفل علىَ غرفتى أتزين تارة وأرتدى ثيابا داخلية لأتفرج على جسدى، وكان عبد الحميد مشغول فى المطبخ سعيدا بطهى اللحم، ومن حين لآخر يأتينى ويطرق بابى ليسألنى عن أشياء فى المطبخ وأخرى يخبرنى بالأسعار التى اشترى بها.. حتى اننى قلت له حتى لايشغلنى عن حياتى.. سيبنى ياعبد الحميد أنام شوية ثم أخذ يلح فى طلبى وأنه يريدنى وأخذ يرجونى حتى وافقت له.. وقلت لنفسى بالمرة غلبان قبل ان استحم.. برضه يابت إرضى جوزك، وأعطيته نفسى، وكالعادة كانت متوترا ومنعته من مداعبتى لأنه يثيرنى ويتركنى بلا سعادة، وفعل كما يفعل الكلاب وانتهى فى دقائق.. وقفلت الباب كالعادة وانصرف إلى مطبخه، وبكيت وقلت لنفسى حتى هذا لا آخذه منه.. واندهشت كيف ان رجلا مثل حسن عيد يكبرنى بعشرين عاما وبهذه القوة والفن.. اننى لم أر رجلا فى حياتى بقوة هذا الرجل.. أشعرنى بأن شيئا قويا يحتوينى وأننى أنثى لى إمكانيات عالية.. إن من يملكون المال يملكون كل شىء، وأصبح الفقراء لايملكون حتى هذا الشىء وشعرت بأن هذا الحى كله يعيش حياة منكودة.. وتعيش كل النساء تلك الحياة مع أزواجهن.. ولو كنت أحب النساء فى هذه البيوت الفقيرة لدعوتهن جميعا ان يغيرن من حياتهن، ان آلافا من هؤلاء النسوة يستطعن ان يعشن حياة أفضل مادام هناك رجال أمثال حسن عيد ينزلون إلى الشارع من أجل هذا الهدف، لم يعد هناك أحد فى تلك الطبقة الوسطى يعتز بحياته كما كان الأمر فى أوائل الستينات، كان الناس جميعا يعملون ويأكلون، والناس الآن تعمل وتجوع وان قطيعا كبيرا منهم لايجد العمل الشريف وبالتالى يجوع، ويزداد جوع البيوت بكثرة العاطلين فيه، ومن تلك البيوت تنطلق الفتيات فى الليل إلى تلك الأحياء الراقية واحدة بعد الأخرى.. شىء طبيعى أن تخرج الأم وابنتها من البيت للبحث عن رغيف عيش

لأصحاب منزلها.. ان منهن من يقول إن وحلا أفضل من وحل.. وفي عز النهار وتحت وطأة الشمس تخرج النساء يبحثن عن لقمة للبيت.. من يدفع هؤلاء جميعا.. إن شيئا واحدا يدفعهن ألا وهو العيش.. ومن دفع موظفة محترمة مثلي أن تفعل هذا كي تعيش.. ويبدو أن شيئا واحدا يدفعهن ألا وهو العيش.. ومن دفع موظفة محترمة مثلي ان تفعل هذا كي تعيش.. ويبدو أن الجميع قد إندفع تحت أعراف بدأت تنتشر.. نعيش زي الناس.. ياناس قبل الطوفان.. والجميع يتسابق تحت هذه الأقوال والأعراف التي تظهر مجتمعا جديدا قد انقسم بالفعل.. وبدل أن يظل حب النساء طبيعيا نحو أزواجهن وأبنائهن بدا هذا الحب شائبا.. لقد أصبحت العلاقة الإنسانية كلها اقتصادية شاملة..

أصبح الحب موجها كالسياسة .. لم يعد الحب كما كان نبيلا.. الحب في السوق يباع ويشترى.. وهذه حقيقة الآن تولدت من انهيار من يضع السياسات.. كان على أن أصمت وأخرس حديث النفس الضعيف حتى ولو كان يعبر عن حقيقة.. لقد أصبحت الحقيقة كل الناس تراها وأصبح الكلام عنها مكررا ومعادا.. وأخذت أرتدى ملابسي قرابة الساعة وتزينت بحب «حب اللقاء الذي يفيدني وينفع أبنائي، وأشكر نعمة جسدي على.. وجمالي الذي يفتن أي رجل.. هكذا أرى في المرآة.. وناديت عبد الحميد فدخل علي بعد ان أكملت ارتداء ثيابي فقال مبتهجا:

– ياه ايه الجمال ده..

– عاجباك ..

– على فين العزم

– الشغل..

– الغدا جاهز..

– لما آجي.. أهم حاجة انت والأولاد..

– إنت الأساس..

– مافيش مشكلة لما آجي..

– برضه هاتيجي متأخرة..

– حسب نظام الشغل.. ماتسألنيش بعد كده عن الساعة..

– ياستي أنا باطمأن عليك بس..

– ادعي لي ياعبد الحميد..

– من قلبي ربنا يخليك لينا..

. وشعرت بثقة وهدوء الجو وان زوجى راض عن كل شيء يحدث، ولما ذهبت إلى محل امفتريون فى روكسى كان حسبن عيد يقف أمام الباب، ونزلت إليه وصافحته فى حرارة، وفى نفس محل الكباب بشبرا تناولنا طعامنا ثم ذهبنا إلى بيته، وكان كلانا لايضيع وقتا فخلعت ملابسى قطعة بعد الأخرى بشكل عملى وكأنى مومس، وهو كذلك خلع ملابسه بسرعة.. كان يتمتع بصحة جيدة ولما نام بجوارى أخذت أتأمل جسده القوى وشعره الكثيف فى صدره وظهره ورحت أدفن رأسى فى صدره وهو يقبل شعرى، وراح هناك إحساس فى داخلى يقنعنى بأننى أحب هذا الرجل لأننى أقضى وقتا جميلا معه، وانعدلت قليلا وأنا أمسك بكف يدى رأسه وقلت:

- هل تحبنى ياحسن؟..
- أحبك لأنك أتيتينى بسهولة..
- هل أنا إمرأة خائنة لزوجى؟..
- ومن خان زوجك..
- البلد..
- ليست البلد.. الناس اللى ماسكه البلد..
- هل أنا مومس؟
- المومس تذهب مع أى رجل ينقدها مالا..
- أنا مومس لك وحدك.
- قولى نحن عاشقان.. يظهر انك بنت ناس ياست سهير..
- كلمة ست هذه.. تقولها وكأننى ست فعلا.. جزاك الله خيرا..
- انت ست الستات فعلا
- كيف وانت تفعل بى هذا.. ألا تحتقرنى..
- لا.. والله أبدا.. أنا راجل أبرر الأفعال للظروف..
- آه.. ونمت على ظهرى.. واضطربت قليلا واندهشت من رجل يشعرنى بأننى إمرأة محترمة، وراح حسن يرنو إلى بعين فاحصة وقال وهو يقبل صدرى:
- قلت لك انك بنت ناس.. وسكت ثم أردف بعد أن صمت دقيقة .. ياخسارة..
- خسارة على ماذا..
- على أولاد الناس..
- عمى لواء فى الجيش وخالى عميد فى الشرطة وأخى مستشار فى القضاء.. إن

أحدًا من هؤلاء لن يفعل شيئا لى.. كل واحد فى الدنيا باشا أو غفير لن يعول إلا بيته.. وإذا علم أحد من أقاربى وأهلى بما أفعله لن يستطيع ان يعطينى جزءا من راتبه كل شهر حتى لا أفعل، وفى نفس الوقت لن يستطيع ان يمنعنى من شىء .. حتى زوجى لن يستطيع ان يفعل هذا المنع وإذا أرادت أى إمرأة أن تفعل ماتريده .. ستفعل دون أن يدرى بها أحد.. على فكرة ياسيدى كل الستات أولاد ناس..

– فعلا فعلا.. لافرق بين غفير ووزير فى هذا .. على فكرة كل الستات التى تفعل هذا من اجل ان تعيش ضحية فى رقبة من؟.. فى رقبة من ياسيدتى..

– فى رقبة الأمة..

– لا.. الأمة مظلومة قبل كل الناس.. من يمسك بتلابيب الأمور الذين يأكلون الديك الرومى من فوق..

– هل تستطيع ان تقول لى من المسئول عن العدل وعن الحق..

– هذا كلام كبير ياسيدتى.. كل ما استطيع ان اقوله لك.. ان كل القيم تقريبا ضاعت وذهب كل منا يبحث عن قيم جديدة.. وهو مايسمى بالانهيار الاجتماعى فى أى مجتمع..

– وهل ما افعله قيم جديدة..

– هذه سلوكيات.. لو لم تفعلى هذا سينزل أبناؤك إلى الشوارع ليتسولوا..

– إذا أنا ياسيدى دخلت بيتك ومعرضة أن أدخل بيوتا أخرى كى أحافظ على بيتى..

– هذا ماحدث معك بالفعل.. فعلت هذا لتصونى بيتك.. وتوقفى نزول بيتك إلى الشوارع.

– لا أفهم ياسيدى..

– كل منا هدفه الأول توفير الحياة المادية لأسرته.. وأصبح الآن الهدف الأول لكل الناس.. لكننا ياسيدتى لانوفر الحياة الكريمة والأخلاق اندثرت.. وكل واحد من الناس يدبر أمور حياته دون النظر إلى حياة الآخرين .. يدبرها بأى شكل.. المهم فى النهاية الحصول على المال.. ونحن جميعا فى النهاية نحصل على الرخيص..

– أنا لا أعرف رأسى من رجلى.. تهت ياسيدى..

– كل الناس تائهة.. ,, ,,

,,, عليك بالحمد.. تاهت افكارى وانت على سرير رجل محترم يقضى لك حاجتك.

– اتعايرنى ياسيدى

-لا ياسيدتى.. ومن أدرانى ماذا تفعل أختى أو إبنتى.. وهز كتفه.. إننا جميعا لانعرف أين تذهب نساؤنا..

- إذا أنا فعلت كما تفعل النساء..

- نعم.. ولكن ليس كل النساء يفعلن ذلك..

- أكيد.. وهل هناك حلول أخرى..

- هناك مثل يقول.. من يبحث عن شيء يجده..

- لا أفهم..

- آه ياسيدتى.. لقد ألقينا محاضرة ولن يستفيد منها أحد..

- سديت نفسك ياسيدى..

- أكيد..

- ألا تريد شيئا..

- لا أستطيع الآن..

- لكننى أريد مالا..

- لا مشكلة ياسيدتى.. إنك أختى قبل أى شيء..

وقام الرجل النبيل إلى دولابه وناولنى مظروفا .. وقمت وأنا خجلى وارتديت ملابسى وجلست إلى جواره وهو مازال عاريا وامسكت به فقال:

- هذا مستحيل.. ولايصح هذا الكلام عندما تأتينى.. اليوم لايوجد قبول منى نحوك.. لقد أطفأت نار الشوق وأيقظت عقلى.. نحن الآن فى زمن كل شيء فيه خمد.. وأنت ياسيدتى لن توقظى هؤلاء..

- ومن يوقظهم..

- الله.. بزلزال يقضى على الأخضر واليابس..

- موافقة ياسيدى.. أرجوك أنا عايزاك دلوقتى.. وأومأ برأسه مبتسما.. وخلعت ملابسى ودخلت فى فراشه أدفن رأسى فى شعر صدره الكثيف مرة أخرى.. وفى هذه الليلة أوصلنى إلى شارع شبرا الرئيسى لاستقل أنا تاكسيا إلى جسر السويس وفى البيت كان أبنائى نائمين كالعادة وزوجى ينتظرنى وقابلنى فى بشاشة قائلا:

- أهلا بالنور..

وكالعادة كان ردى دائما

- ازيك ياعبد الحميد.. وسكتّ..

وتابعنى حتى دخلت غرفتى وقال فى صوت خفيض:
- طبعا جائعة.
- جائعة إلى النوم.. سأذهب إلى عملى غدا..
وجلس على حافة سريرى فقلت له فى حدة:
- أخرج حتى أخلع ملابسى..
فتلعثم ووقف قائلا:
- كنت أريد أن أخبرك بالمصاريف التى صرفتها اليوم..
- قل بسرعة..
فقال وهو يخطو نحو الباب:
- اشتريت لحمة ودجاج وخضار وبرتقال.. وسكت..
- هل يحتاج البيت إلى طعام آخر..
- هذا كثير .. أصبح البيت عامرا.. باقى خمسة جنيهات..
وفتحت حقيبتى ونقدته خمسين جنيها قائلة:
- اشتر أية لوازم أخرى.. عليك أن توقظنى صباحا مع الأولاد..
- حاضر .. هل تريدى شيئا آخر.
- أريدك بخير..

•• وخلعت ملابسى وارتديت أخرى، وكالعادة رحت أتفحص جسدى ووجهى فى المرآة، إمرأة مثلى فارعة الطول، جميلة الصدر لها تلك البشرة البيضاء الناعمة، عينان واسعتان سوداوان، وهذا الشعر الأسود الطويل المنسدل على أكتافى وتلك الخصلة المتدلية على وجهى يمنة ويسرة، وانقلبت إلى الحمام عارية مرتدية ملابسى الصغيرة وعدت إلى فراشى بعد ان قفلت بابى، واضطربت قليلا وتساءلت قائلة بصوت فيه دعة.. ألا يوجد غير حسن عيد.. أكيد فيه.. والله راجل طيب وانسان.. ثم سكت واحتضنت فراشى كأننى أطبق على شىء بعدها رحت فى نوم عميق..

•• وفى الصباح جاءنى طفلاى وقبلتهما واحتضنتهما وذهبا مع والدهما إلى المدرسة، وركبت الميكروباص إلى مبنى عملى، ويبدو أننى لن أركب الأتوبيس ثانية مادامت الأمور طيبة، وجلست على مكتبى أمارس عملى وجاءنى بعض الزملاء والزميلات يسألون عنى فقابلتهم فى بشاشة وشكرتهم على مشاعرهم.. غير أن صديقتى تهانى حلمى وهى الزميلة الودود جاءتنى من غرفتها المجاورة لى قبل إنتهاء العمل بنصف ساعة

وقبلتنى واحتضنتها وجلست معى حتى خرجنا من باب المبنى معا وهى مصرَّة على أننى تغيرت وأنه علىَ أن أخبرها بما حدث فقلت لها وأنا أمسك بذراعها :

– صدقينى أعصابى كانت تعبانه فاسترحت قليلا فى بيتى..

– وكيف تستريحين فى بيت مع رجل قاعد فيه بدون عمل..

– هل هذا يعنى أن أطرده فى الشارع حين أكون فى البيت..

وأصرت تهانى أن نمشى فى شارع فؤاد ، كان شئ فى داخلها يعصف، وأن هناك نيرانا تندلع فى صدرها .. مرددة وأنا خلاص من جوزى.. وكنت أهدئ من روعها.. طوِّلى بالك هنعمل إيه.. فتقول.. أصل المشكلة ولادى همّ اللى هايضيعوا.. وأيقنت أنها مصرة وأنها مهيأة لأن تعمل أى شئ فقلت وأنا آخذها من ذراعها برفق حتى ندخل باب كافتيريا جروبى فى ميدان طلعت حرب.. لا كده الموضوع زاد أوى.. لازم قاعدة ياتهانى..

وقالت تهانى وهى تقعد أمام المنضدة فى قاعة المحل الداخلية :

– الفلوس..

– معايا..

– كويس... إن معاك

وابتسمت وأمسكت بكف يدها وأخذت أضغط على أصابعها كأننى رجل يتحسس كف إمرأة وقلت وكأننى أتغزل فيها :

– إنت حلوة أوى..

– الحال من بعضه.

– قولى عايزه إيه بالضبط

– عايزه فلوس..

– بأى شكل..

– فلوس من غير سرقة أو نصب..

– معاك.. يعنى فلوس بالمزاج ماشى..

– يعنى إيه؟

– يعنى فيه رجاله فى البلد عايزه ستات..

– رفق يعنى..

– أيوه..

– بكام؟

- يعنى حسب حلاوة الست..
- نمشى سوا..
- مش مشكلة المهم حد يورينا الطريق..
- نلاقيه فين؟'
- الرجالة ماليه الشوارع بتنزل تشمشم على كده..
- طيب بلاش الإضافى اللى مابيجيبش نص كيلو لحمة، وننزل الشوارع نلف كل يوم حتى..
- الموضوع ده ممكن تروّحى نص الليل.. يعنى مايكونش فيه مشاكل مع جوزك.
- جوزى بالجرّمة القديمة.. مش عاجبه يروح عند أمه..
- خلاص إتفقنا.. أنزل أنا الأول وأقول لك..
- أيوه إتفقنا بس بسرعة.. معاك عشرة جنيه؟
- معايا!

وفتحت الحقيبة لأنقدها عشرة جنيهات.. ثم سكتنا برهة بعدها طفقتُ قائلة:

- كنت بفكر اللى جوزها بيشتغل مش محتاجة.
- يالهوى على شغله بيشتغل فى مديرية التربية والتعليم من عشرين سنة ومرتبه ماوصلش خمسمية.. إبنى فى الثانوية بياخد دروس بيهم..
- كأنه قاعد فى البيت..
- عملنا طلب للكنيسة علشان تساعدنا.. المساعدات مابتعملش حاجة..
- بصراحة ماقدرش أعمل كده فى الجامع..
- ليه؟
- كل مساعدات دور العبادة مابتعملش حاجة..
- الناس الغلابة كتير أوى ياحبيبتى..
- رجال الدين بيعملوا كتير فى البلد... ولكن.. وسكتْ..
- لكن إيه؟
- التبرعات ضعيفة..
- المفروض الناس اللى زينا مايعملوش كده لأن فيه ناس غلابة أوى مش لاقيه الدقة.
- شوفى ياتهانى إحنا بنعمل من الغلب.. أنا وجوزى ماخلناش كل أبواب الحلال والسلف والجوع والذل للعباد.. وآخرتها مش لاقيين غير كده..

– على فكرة إحنا ممكن نعلق زباين من الشغل

– لا الصح نبعد عن الشغل.. أصل بره كتير..

– خلاص هامشي وراك..

– لا.. إنت عايزة كده..

– ماتفهمنيش غلط.. ايوه عايزة كده وكده..

– لا كده بس..

وضحكنا كثيرا وسمع الزبائن رنين تلك الضحكات التى جلجلت قاعة جروبى داخلية.. وكان علينا أن نقوم لتذهب كل منا إلى بيتها، وعند باب المحل الخارجى ولما كنا نفترق داعبتنى تهانى قائلة وهى تبتسم:

– هوَّ الواحد بكام..

.. وقرصتها من ذراعها وأنا انصرف عنها:

– الصبر حلو.. إطمنى على نفسك.. إنت حلوة ياتهانى..

– ياريت ياسهير..

.. وأخذت تاكسيا إلى ميدان رمسيس ثم ركبت ميكروباس إلى جسر السويس.. وفى بيتى كان عبد الحميد وابنى خالد وابنتى بسمة يتناولون طعام الغداء .. كانوا جميعا يضحكون، دخلت غرفتى وخلعت ملابسى وارتديت جلبابا وعدت إليهم فى الصالة لاشاركهم الطعام كنت ارقب وجه خالد وبسمة واتفحص كلا منهما على حده «كانت البسمة والضحكة والقفشة تعلو وجوههم جميعا وكان عبد الحميد مع إبنيه نعم الاب الذى يعرف كيف يسعد أطفاله» «ولما قاموا تركونى وحدى أتناول الطعام الشهى الذى طهاه زوجى» كنت أتطلع إلى الافق من خلال النافذة «كان مزيج من الحسرة والشجن المصحوب بتلك السعادة المادية» كأن سيدة تنحشرفى طابور لتحصل على سلعة ورجل خلفها يحتكّ بها «ولم يكن لدى السيدة إلاّ أن تسكت لأنها لاتحب الفضيحة ولاتستطيع أن تخرج من الطابور» تركته يفعل» مثل ما تفعل كثير من النساء تحت عرف» دارى على نفسك يابت أسترى على حالك ما حدش هايسترك.. كنت أتمنى أن أكون سيدة شردوحة.. بمعنى تفضح من يقترب منها.. لم أتربأ على ذلك.. المؤدبات بنات الناس تسكت حتى تطلع من الطابور أو تنزل من الأتوبيس.. أنا بنت ناس والله.. هاعمل كل حاجة.. ها سيب نفسى للزمن ولا كلمة.. لايوجد أفضل من الصمت.. الصمت الذى يخبئ كل شئ.. الصمت خير من أى كلام.. والعمل الصبح فى الشركة تاج راسى.. أنا

واحدة محترمة.. والعمل بالليل مع حسن عيد هو عمار بيتي وضحكة أبنائي واندماج زوجي في بيته حيث وجد له عملاً.. أن يطبخ ويمسح البلاط ويغسل الملابس والمواعين ويذهب بالطفلين إلى المدرسة ويعود بهما آخر اليوم الدراسي.. ويطعمهما ويأخذهما إلى الفراش وفي المساء يذاكر معهما الدروس ويحل الواجبات لهما.. أقسم بالله انه زوج مثالي.. وأنا ام هذين الطفلين وكنت زوجة.. اقصد زوجة على الورق لهذا الرجل الطيب.. ابن الناس.. هو رجل محترم ملتزم يعمل كل شئ ويعيش حياته في صمت ولايتكلم. ليس عنده أية أبعاد أو حدود أو أسئلة تحتاج إلى إجابات.. إنه قد يسأل فقط.. حياة هادئة جميلة في بيت بدأت ترفرف عليه السعادة.. ولولا هذا الجسد الجميل ياسادة ما كان سعرى قد وصل إلى مائة وخمسين جنيها في المرة الواحدة عند حسن عيد.. إنني أهتف من كل كياني. حسن عيد هو الحياة عندى.. رجل يكبرني بعشرين عاما.. عاقل حنون هادئ ودود انسان.. هو الرجل الذى اشعرني بالجديد في أنوثتي.. ولاتنسوا ياسادة أنه علمني ماذا اقول له اثناء اللقاء.. إن حسن عيد ياسادة هو السوق واللحم والخضار والفاكهة والبقالة.. هو سعادة بيتي.. لا.. هو سعادتي وحياتي كلها.. وتحت الغطاء رحت في نوم عميق وأنا افكر في حياتي كما سمعتموني.. كان الصباح ينور من خلال النافذة والشمس تبدو وقد سطعت بقوة،كان صوت الناس في الشوارع حولي عاليا.. يرفعون اصواتهم منادين.. روبا بيكيا.. ملوخية.. يامجنونة ياقوطة،ونهيق الحمير التي تسحب عربات الكارو يعلو في أركان السوق.. حيث تحمل تلك العربات الخضار والفاكهة إلى تجار السوق كل صباح..اهرام اخبار جمهورية عقيدتي «حريتي» والشئ الغريب أن هذه الاصوات وغيرها قد أدخلت إلى نفسي طمئنينة من نوع غريب واعتبرت انه مادام هناك ناس تنادى بالعقيدة فهى مازالت.. وينادون بالحرية فمازال هناك فيها رغم كل ما يحدث من مهاترات وشعارات إننا نحن الشعب نعيش دائما على أمل حتى ولو كان أملاً أجوفا.. إن الناس في مدينتي يعلو صوتهم للبحث عن آمالهم مرة في الصباح وأخرى في منتصف النهار وعندما يأتي الليل يكونون قد بذلوا مجهودا كبيرا وأعياهم البحث عن لقمة خبز فينامون كالدجاج.. في أى مكان ينام هذا القوم.. فوق الأسطح وعلى جنبات الشوارع وتحت عربات النقل والكبارى وفي حدائق البلدة حتى السياحية منها.. في الليل يتسلل الجميع إلى كل مكان ليلتقطوا أنفاس النوم والعجب أن هؤلاء المتسولين حول دورات المياه القذرة ولا أعرف كيف ينامون وهم يتنفسون هذه الروائح الكريهة،ولا أنسى أنني في ليلة من الليالي كنت أعود من زيارة لأختي في

منتصف الليل وتجاسرت وعدت من الشوارع الضيقة لهذا السوق على إعتبار أنه مكانا مهجورا.. فشاهدت بعيني كيف أن بعض رجال وشباب من تجار هذا السوق يجاضعون نساءا أو فتيات يتسللون إليهم من المساكن الشعبية القريبة في مقابل قروش هذا ما عرفته فيما بعد عن أحوال السوق في الليل.. كان ممكن أن يكون لنا ناس غير هؤلاء وأسواق حديثة منورة وليست بهذا الظلام وتجار مهذبون وعربات أخرى لاتجرها الحمير.. ما الفرق إذا بين المدينة والنجوع .. كل شئ حولي قويا وعشوائيا وبوهيميا وكان كل القوم الذين يسكنون هذه الناحية من موظفين وموظفات يستنكرون ما يحدث في الشوارع المحيطة والسوق وكان كل منا يهرب إلى بنايته ليشعر بالأمن والهدوء.. ولم يكن أحد منا يلقى اللوم على كل هؤلاء الباعة والتجار.. انهم كانوا في نجوعهم هكذا ولما جاءوا لم ينظمهم أحد..إن هذه كانت بيئتهم ولما وصلوا فرادى كوّنوا جماعات وانشأوا هذا المجتمع فكبرت هذه البيئة وعملوا هذه الأسواق.. ورغم كل هذه الانتقادات لهؤلاء فإنه لولاهم ما عمرت حياة مدينتي.. ان كل شئ تجده أمامك من حاجات ومشتريات لزوم الحياة.. ولولا هؤلاء الناس ما شيدت عمارة في مدينتي أو بيت صغير..إن هؤلاء الناس ثروة قومية ولكن هناك شئ واحد ضائع.. هل تبحثون معي عن هذا الشئ.. هل نستطيع أن نوجه هؤلاء إلى أعمال أخرى يحتاجها المجتمع.. ياسادة هذا ما دار في داخلي وبعدة ساعة حتى أصبحت مهيئة للنزول إلى عملي وكان في هذه الساعة التي انقضت قد انتهى عبد الحميد من توصيل أطفالي المدرسة والعودة إلى البيت.. وكان عليه ان يأتيني حتى أقول له ما الذي يقضيه اليوم من أعمال منزلية وجاءني ونقدته خمسين جنيها وقلت له:

- اشتر أية نواقص يلزمها البيت

- يانور النبي.. قالها كانه رجل من هؤلاء الذين حولنا.. كما يقول التاجر في السوق وهو يبيع البصل.. ولم أكن أحب أن يصل دماغ زوجي المهندس إلى هذا التدني ويبدو أن العامين التي قضاهما بدون عمل قد فعلت به الكثير كما الآخرين.. وقعد قعادته على حافة السرير.. كان يقعد بحذر وكأنه ليس فراشه.. كنت أشعر أنه يخاف مني وكأن هذا الفراش فراشي.. وممنوع أن يقترب.. لا أيها السادة إنني أحسب بكل ما أملك من أحاسيس أنه يخاف مني منذ أن بدأت اعطيه نقودا من عملي الجديد.. ويتمنى رضائي وهو الآن تحت أمري.. ياللاسف إذا أخبرتكم ياسادة أنه بدأ ينحني ويكاد يقبل يدي كلما ناولته نقودا.. ومر بعض الوقت وهو مازال يقعد على فراشي وينكش فيه بأصابعه

ودخلت الحمام لانزل بعد ذلك إلى عملى وسمعت رنين الهاتف ولم تمض ثوان حتى جاءنى أمام الباب الصغير يقول فى ادب:

- واحد عايزك ياباشا..

وعدلت نفسى وخرجت إليه.. كان يحمل عدة الهاتف وناولها لى وهو ينحنى وهرول إلى غرفة الأولاد..

- آلو.. وأنا ادخل بالهاتف إلى غرفتى..

- أيوه ياست الكل.. كويس إنى لحقتك

- ازيك ياحسن بيه..

- عايزك النهاردة.. زى مااتفقنا

- إمتى وفين؟.. تحت أمرك.

- ممكن تيجى شبرا..

- عارفه محل الكباب.معروف دا فى شارع شبرا الرئيسى..

- عارفاه كويس..

- خلاص خدى تاكسى وتعال هناك.. ما فيش داعى إمفتريون دا مشوار..

- أنا بقول كده برضه.. بعد الشغل..

- إسمعينى الساعة ثلاثة ها اكون واقف عند المحل..

- خلاص أوكيه.. عايز حاجة تانى..

- عايز سلامتك.. باى..

- باى يابيه..

.. ونزلت الدرج والبهجة تكاد تنط من صدرى.. كنت أسعد من أية امرأة فى هذا العالم.. شعرت بأننى غالية ومطلوبة ولى ثمن.. وأن بيتى قد انفتح بالحياة وأن زوجى أصبح كالخادم فى إصبعى وأن حسن بيه عيد هو ملاذى.. هو المياه التى تروى حياتى.. بل هو اللقاء الذى يروى جسدى العطشان.. ومشيت قليلا حتى وصلت إلى موقف الميكروباص الذى يوصلنى إلى ميدان رمسيس.. أذكر ياسادة أننى لم أكن أجرؤ على ركوب هذه المواصلة الراقية من قبل.. كنت أركب الاتوبيس بربع جنيه.. أنا الآن أركب ميكروباص بجنيه.. كانت كل الشوارع التى يمر بها الميكروباص مزدحمة بالناس حتى وصلنا إلى شارع جسر السويس وشعرت والسائق يخترق المسافة بسرعته، أن كل البنايات على جنبى الطريق تزغرد بالفرحة.. وأن كل الناس فيها سعداء.. هذا ما تهيألى

لانني كنت فرحة مطمئنة على الغد.. وشعرت بالثقة فى الحياة وأن فى الغد مالا كثيرا..
وصلت إلى ميدان رمسيس وفى مكان قريب من شارع الكلوب بك ناحية الفجالة..
كان هناك منزل إلتهمته النار منذ طلوع الفجر وآثار حريق فوق أجناب البنايات حول المنى.. وكان حشد من الناس كخلية نحل يقف مذعورا أمام المنظر المخيف حيث بقايا من الكلس والأثاث وأوانى الطعام قد تكومت فى كل مكان.. وكنت واحدة من هؤلاء الناس.. حيث كثيرا من النسوة والأطفال وأصحاب الحوانيت والشرطة.. لقد حملت عربة الاسعاف الكثيرين إلى المستشفيات منذ طلوع النهار.. وكانت المأساة بالغة لما انفجرت انبوبة غاز محل الكشرى الذى يقع فى البيت القديم وكان يسكنه ثلاث أسر.. وكانت جمهرة بعد أخرى تحكى عن الاهمال الذى كان صاحب المحل يشغل به محله..
وصلت إلى عملى متأخرة نصف ساعة.. ولما هيأت مكتبى وأخذت أقلب فى أوراق العمل جاءتنى زميلتى تهانى وكالعادة قبلتنى وجلست بجانبى قائلة فى لهفة:

- هيه إيه الاخبار؟..
- ياحبيبتى النهاردة أجيب خبر اكيد عن الشغل..
- صحيح.. ربنا يخليك.. طيب كلمينى فى البيت.. ضرورى كلمينى..
- خلاص ياتهانى إتفقنا..

... وانتهى عملنا فى الثانية والنصف كالعادة.. وخرجت إلى الشارع مبتهجا وركبت تاكسيا إلى شارع شبرا وأمام محل الكباب وجدت حسن عيد ينتظرنى.. واخذنى من ذراعى وكاد يحتضننى ونحن ندخل الحانوت..وتناولنا طعامنا كالعادة ثم آويت معه إلى بيته.. ولا أستطيع أتصور أن لإمرأة مثلى كانت موظفة محترمة وبنت ناس أن تفعل كل هذه الافعال التى تقوم بها امرأة تعمل مومسا منذ عقد مضى.. كيف كنت أخلع ملابسى أمامه وأقول كلاما تتأوه به الغانيات فى الغرف المغلقة مع الرجال.. القصد ياسادة فى هذه الليلة وبعد أن إنتهى كل شئ وارتديت بعض ملابسى دار بينى وبينه الحديث التالى: -

- انت تنفق الكثير من أجلى..
- مش مشكلة..
- لكن إنت مش موظف..
- والله موظف فى القطاع الخاص..
- إزاى.. إنت بتصرف كتير..
- فيه أصحاب أعمال بيموتوا فى الأرض..

- يعنى ايه؟..

- يعنى أنا راجل قانون.. بدّور فى القانون على بنود فيها يتم الإستيلاء على الأراضى ثم نقوم بعمل إجراءات أخرى بعدها نستطيع تملك هذه الأراضى.. يعنى..

- يعنى إيه؟..

- يعنى حرامية أرض بالقانون..

- علشان كده فلوسك كتير..

- إللى يبجى من حرام يروح فى الحرام..

- يعنى فلوسى منك حرام..

- يعنى.. هو كله دلوقتى كده.. بقول لك إيه ياست الكل.. كل حاجة بقت يعنى ما فيش حد فاصل بين الحرام والحلال زى زمان.. أحسن حاجة نقول كل حاجة يعنى وماتتعبيش نفسك..

- خلاص ياحسن بيه فهمت..

..وسكتْ.. وسكت هو. ورحت أنكش بأصابعى فى شعر صدره ثم قلت هامسة:

- فيه واحدة عزيزة علىّ أوى عايزه شغل..

- هى معاها مؤهلات..

- بكالوريوس..

- ما اقصدش.. هى حلوة..

- حلوة أوى..

- خلاص كده أحسن من الدكتوراة..

- اتفقنا.. هى عايزه راجل لطيف زيك كده.. يكون عنده مكان..و..

- وإيه؟..

- والله هى بنت ناس أوى..

- ياستى ولايهمك.. يعنى إيه بنت ناس.. وبعدين كل واحد فى الدنيا له قرايب غلابة وقرايب بهوات. ما فيش حد أهله كلهم بهوات.. وما حدش بيعمل لحد حاجة.. كل واحد بيعمل لنفسه.. الوضع بقه هوجة.. وبعدين ياستى كل البنات والستات إخواتنا وأمهاتنا على فكرة كلنا خايبين.. ما فيش حاجة إسمها فى الوطن أختى وأختك..

- ازاى..

- كل الناس إخوات.. كلنا قرايب.. إذا كان واحد فينا حرامى يبقة كلنا حرامية..

- مش فاهمة..

- في استراتيجيات الأمم.. المرض لما يكون في حته.. كل البلد تدور تعالجه إزى.. فمثلا إذا قلنا إن فيه بنات ناس بيعملوا وبيعملوا.. وتقعد نشنع على الناس.. طيب ما نقول ليه بيعملوا كده ونلحق الباقي.. نلحق المجتمع كله من الضياع.. نعالج الأمور من تحت.. إحنا متشعلقين ياستي.. بنتعلق في حبال دايبة.. وشاطرين أوي في الكلام على بعض..

- وده منين..

- بقول إيه ياستي.. الموضوع كبير أوي.. إحنا ما بنعرفش نفكر.. وما فيش حد هايفكر لينا..

- خلاص.. خلاص ياحسن..

- الله.. الله.. أحلى حاجة قلتيها ياحسن.. بلاش بيه بعد كده..

- طيب ياحسن عايزين راجل للست دي..

- يابختها.. عندي ليها راجل غني أوي..

- بيّدي كام..

- لامش هاقولك.. هي ورزقها..

- هو فيه حد بيدي أكتر منك..

- إنت عبيطة ياسهير.. دانا أغلب راجل في البلد..

ولذت بالصمت ويبدو أنه أدرك ما فكرت فيه فأخذ يربت على مؤخرتي مردداً:

- البلد دي أحسن من غيرها..

فاحتضنته وقلت وأنا أقبله..

- إنت أحسن الرجالة.. أنا عمري ما عرفت إني ست إلا بيك..

- موضوع زميلتك إعتبريه منتهي -

- هي عايزة تنقذ حياتها بسرعة..

- ياستي بكرة لو عايزة.. شوية وأكلمه..

- الله يكرمك.. ها تكون عملت خير.. شوية تنزل الشارع..

- ماكنتش أحب أقوم بالدور ده..

- إنت بتعمل عمل فاضل في الظروف دي.. هم ولاد الناس تروح فين.. أزمة اقتصادية طاحنة..

- ماكنتش أحب أكون زانى.. ليس هذا طريقى.. منها لله..
- من دى..
- مراتى..
- عملت ايه..
- منعت نفسها عنى..
- هىّ بتحبك..
- متجوزين على حب.. بعد عشر سنين إنفجرت..
- يعنى ايه..
- هجرت فراشى ونامت فى سرير الأطفال.. وفى يوم قالت إدينى فلوس..
- فلوس ليه..
- فلوس كل مرة.. يعنى لما أعوزها تاخذ فلوس..
- دى مراتك ازاى تطلب كده.. هىَ مومس..
- رفضت فى الأول.. وبعد كده لقيتها مصممة.. حبيت أعصم نفسى ماقدرتش.. اعطتها فلوس فى كل مرة.. بعد كده كرهتها..
- هى مريضة نفسيا..
- لأ.. هم ناس تجار بيحبوا الفلوس.. على فكرة فيه ستات كتير كدة.. وعرفت بعد كده ان واحدة صاحبتها نصحتها بكده.. ستات كتير بتخسّر بعضها..
- وبعدين..
- بعدين كرهتها وبقيت أنزل تايه فى الشوارع وفى يوم..
- وسكت واستغربت لحكايته فانقلبت نحوه أمسح على جبينه معتذرة له عما حدث له فقال:
- أكمّل..
- الساعة كام..
- نص الليل..
- إتاخرت.. على فكرة مش قادرة أروّح خلّينى معاك للصبح علشان تحكى لى..وقمت إلى الهاتف وتكلمت مع زوجى وسألت عن أطفالى وأخبرنى أن كل شئ تمام وألا أعول هم عندما أخبرته أننى مضطرة للنوم فى الشركة حيث سأذهب مع صاحب الشركة فى الفجر إلى المطار لاستقبال ضيوف أجانب.. ودعا لى زوجى.. وأخبرته بأننى سأذهب إلى عملى

فى الصباح دون العودة إلى البيت فدعا لى مرة أخرى.. وابتهج الرجل لقضاء الليلة كلها معه فقلت له:

ـ اكيد هاتدّيني فلوس زيادة.. قلتها وأنا أتقلب بوجهى فوق صدره وألتف حول جسده بجسدى كالثعبان.. فقال وهو يمسك برأسى:

ـ تحت أمرك.. خمسين كويس..

ـ ومن غير حاجة ياحبيبى.. أنا حبيتك

ـ فى يوم حصل ايه؟

ـ اسمعنى بس بدون تعليق وفى الآخر إتكلمى..

ـ حاضر قول..

.. فى يوم نزلت إلى شوارع وسط البلد وأخذت اتلكأ هنا وهناك فى الشوارع.. وأمام فاترينة محل يبيع الملابس الحريمى وجدت سيدة منقبة فارعة الطول تقف وتدقق فى المعروضات فراقبتها فإذا بها تنظر نحوى وكأنها تتفحصنى رغم أننى لا أرى وجهها.. وقلت فى نفسى ربما تعرفنى فاقتربت منها ووقفت أمام المعروضات مثلها ورحت أقرأ الأسعار ثم اقتربت منها شيئا فشيئا فلم تبد شيئاً من الإستياء كما تفعل النساء المنقبات.. والتفتت بوجهها نحوى وكأنها معى فقلت وأنا أهز رأسى:

ـ الأسعار عالية أوى..

وضحكت السيدة بصوت منخفض وقالت:

ـ هو إنت هاتشترى..

وتشجعت وسعدت لردها الإيجابى وقلت:

ـ عايز أشترى..

ـ لمين..

ـ ليك لو عايزة.. أنا تحت أمرك..

ـ ياه معاك فلوس اوى كده..

ـ ياست الكل تحت أمرك..

ـ فى الحقيقة.. فى الحقيقة.. وسكتت..

ـ فى الحقيقة أن.. قولى ياستى..

ـ ممكن تيجى نقعد فى مكان نتكلم فيه..

ـ ممكن بس.. خلينا بعيد عن هنا..

وأخذتها فى تاكسى وجلست بها على النيل فى كازينو قرب حى المنيل وهناك عرفت قصتها مع الحياة.. الزمها والدها بارتداء النقاب حتى تدارى فتنتها لأنها جميلة جدا.. وتزوجت بعد حصولها على الثانوية العامة من رجل شديد التزمت.. فهو لايشبعها طعاما ولايحسن معاشرتها ولايشبع حاجتها الجنسية وطلبت الطلاق منه فرفض وايده والدها فى ذلك فعاشت حياة منكودة لمدة خمس سنوات ولم تنجب منه حتى توفى والدها.. وبعدها إنتقلت للحياة مع أمها التي أيدتها فى مطلبها ولكن زوجها هذا الذى لايرحم هددها بالمحاكم والطاعة وقطع عنها أى إلتزام نحوها.. فسارعت إلى قريب لها يعمل فى الشرطة الذى أنقذها منه حيث قام بتطليقها بعد أن تنازلت عن كل شئ.. وهى الآن كما حكت لى تريد الزواج.. ولكن أين الرجال.. لافيه رجالة ولافيه جواز.. والرجالة كلهم سراب حسب رأيها.. المهم ياسيدتى لا أطيل عليك.. كانت هذه السيدة محتاجة إلى مبلغ شهرى حتى تعيش بالضرورى هى وأمها.. التزمت بهذا المبلغ قرابة العام.. بعدها تزوجت من رجل عادى سوى.. وسافرت معه إلى بلد عربى.. كانت هذه سيدة رائعة الجمال رغم أننى لم أر وجهها فكانت تحرص على عدم خلع نقابها أثناء لقائى معها.. وسكت.. فقلت وأناأسحب نفسى قليلا عنه:

- وهل كانت تخلع كل ملابسها..
- كانت تخلع ملابسها وهى تغنى..
- أهى أجمل منى..
- لا إنها نوع من الجمال.. ولكن أنت نوع آخر أجمل منه..
- وأين كنت تلتقى بها؟
- فى بيتها..
- وأمها..
- كانت تعد لنا الطعام بعد كل لقاء..
- يانهار إسود على اللى بيحصل فى البلد..
- لاتندهشى من أى شئ. كل ما يخطر على بال ولايخطر على بال أحد يحدث.. ياريت تفتحى عينك وتشوفى البلد كويس..
- يعنى أنا باعمل العادى..
- لو ما عملتيش كده.. كنت هاتعيشى إزاى..
- ها اشحت..

- وطبعا مش هاتقفى فى الطريق وتمدى ايدك..
- لاطبعا وهمّ ولاد الناس تشحت..
- يعمر بيتك ياسهير.. ولاد الناس ستات ورجالة ستر وغطا على بعض..
- هو دا الستر..
- احنا بنعتبره ستر.. لكن الستر عمره ما كان كده..

-٢-

ومرت أيام قليلة فيها واعدنى حسن بأنه سيأتينى ومعه الرجل الذى سيصاحب تهانى وهاتفت تهانى فى المساء بأن غدا فى ميدان التحرير مقابل باب الجامعة العربية الرئيسى سينتظرنا حسن وصاحبه... وحسب العادة بعد انتهاء العمل،ولكم تعرفون أيها السادة كم كانت تهانى جد مبتهجة لدرجة أنها بعد أن أخبرت زوجها بأنها وجدت عملا فى القطاع الخاص وأنه قد تصل البيت كل يوم فى العاشرة مساء.. قال لها زوجها. ومالو.. ربنا يخليك لولادك.. مش أحسن ما نمد إيدينا للناس. هكذا أخبرتنى تهانى مرة أخرى فى نفس الليلة.. وعندما علم زوجها منها بأننى التى أتيت لها بالعمل طلبتنى تهانى للمرة الثالثة حتى يشكرنى زوجها.. وكم كنت سعيدة بهذا الشكر وشعرت بأننى قد بدأت على الطريق أى كأننى وصلت.. وفى الصباح جاءتنى تهانى كالعادة ولكن هذه المرة قبلتنى بحرارة وقالت:

- أد إيه إنت حبيبة

- ما عملتش حاجة ياحبيبتى

... واندهشت عندما قعدت فوق مكتبى فإذا بى أرى ساقها عاريا حتى القميص الداخلى الذى ترتديه كان فستانها مفتوحا من جانبه الأيسر.. ويبدو أنها فتحت فقلت لها:

- ليه كده.. دارى نفسك ياتهانى.

فانعدلت حيث وقفت بجانبى وقالت هامسة فى أذنى:

- من الفرحة ما قدرتش.. كنت أريد أن أرتدى قميصا وآتى به إلى هنا حتى أقابل هذا الرجل به.. الرجل الذى سيأتينى اليوم.. خرجت من دائرة الملابس الطويلة والسراويل الواسعة.. كنت كمن تقول لنفسها، وماذا أودت بك هذه الملابس المستورة.. كنت أريد أن أقول للأيام التى مضت كانت أياما كئيبة أوصلتنى إلى الفقر.. كنت..

وقاطعتها وأنا اشد على ذراعها بقبضتى:

- لمّ نفسك شوية.. كلهم شايفينك.. الستات هنا لماحة أوى.. خاصة أن كل منا بدأت عليها متغيرات.. مش ناقصين فضايح.. ماتجيش تانى هنا.. إركزى ياتهانى..

وانصرفت تهانى إلى غرفتها وهى تحاول أن تتدارى كما نصحتها..

ولن أطيل عليكم ياسادة.. فى آخر يوم عملنا دخلت أنا وهى حمام العمل لنتزين

وخرجنا من مبنى الهيئة بعد أن انصرف جميع العاملين ولم يرنا أحد .. كنت أنا وهى على سنجة عشرة ومشينا إلى ميدان التحرير .. كنا نتمايل ونتمخطر فتهتز ارداقنا الجميلة التى كانت تثير كل من قابلنا .. حتى أن صبيا يبدو عليه الهبل كان يتسول فى ميدان طلعت حرب تبعنا والريالة تنسال من فمه وكان يجأر قائلا هاع .. هاع .. مما جعل المارة يضحكون ويقهقهون وتخلصنا من الصبى بعد أن شعرنا أنه قد يفعل ما هو اكثر من ذلك ويتهجم علينا وركبنا تاكسيا إلى مبنى الجامعة العربية .. المبنى ينزوى ساكنا أخرس وسط الميدان وعند بابه الضخم يقف عسكرى كالبجم وقلت فى نفسى يعنى إيه جامعة، والله جامعة العيال أحسن منك .. عملت إيه غير الاجتماعات والكلام .. وكل حاجة تشجب ونستنكر .. لو كنت جامعة صحيح ماكنش فيه واحدة من العرب تروح تراجل عشان تاكل .. ما كانش فيه حدود ولاكفيل ولاعمى تاج راسى .. ماكنتوش يا عرب قسمتوا الوطن لغنى وفقير .. ولاتندهشوا ياسادة من إمرأة مثلى تتكلم فى السياسة وهى ذاهبة إلى لقاء رجل فكل أشكال الحياة متواصلة مع بعضها ولايوجد شئ منفصل عن غيره، والعالم العربى بأجمعه تستطيع إمرأة عادية أو رجل عامل أو فلاح يلخصه لك فى كلمات .. والله لولا بقية من أمل فى الإصلاح لما استطعت أن أحتفظ باعصابى المنهارة أمام هذا المبنى فى سكونه .. لم يكن حسن عيد وصاحبه قد وصلا بعد وبعد أن وقفنا قليلا نتأمل مبانى الميدان الضخمة تمشينا حتى فندق هيلتون، وكانت تهانى قلقة مرتبكة ولما كنت أبادرها من حين لأخرى .مالك .. ترد علىَّ وكأنها تشهق .. ماليش .. خايفة .. قلبى بيدق .. كانت الساعة تقترب من الثالثة والنصف عصرا .. وكنا نقترب من الشارع الذى يقع فيه المتحف المصرى .. وفجأة تهادت أمامنا عربة مرسيدس فضية اللون ونزل منها رجلان ياإلهى هذا حسن واتجه نحونا والرجل صاحبه خلفه .. صافحنى حسن وصافح تهانى .. كان الرجل يرتدى بدلة سوداء .. طويل عريض ضخم الرأس والوجه وقدمه لنا حسن .. إيميل بيه .. ووقف صاحبى بجانبى وأشار للرجل .. هذه هى السيدة .. إنها سعيدة لأنها تراك .. فتلعثم الرجل قليلا، ثم قال .. أنا أسعد ياسيدتى و نحنى فى أدب .. وتقدم الرجل نحو العربة وهو يشير إلينا بالتفضل .. وفتح الباب الخلفى لنركب أنا وتهانى فى المقعد الخلفى .. وانطلقت المركبة فى شوارع وسط القاهرة حتى وصلنا إلى شارع شبرا .. وكالعادة نزلنا أنا وحسن أمام محل الكباب .. ونزل إيميل بيه معنا ليأخذ بيد تهانى، وهى تنزل من مقعدها لتجلس بجواره .. كانت تهانى تبتسم لأدب الرجل وربما للأملة التى فيها .. وأقبلت نحوى وقبلتنى قائلة .. باى باى .. كنت أشعر أنها تجرأت

فجأة وكأنها تفعل هذا منذ وقت طويل.. وقلت فى نفسى وأنا أدخل مع صاحبى الحانوت.. إلبت إنحرفت خلاص.. قلتها بصوت خفيض وكان حسن عيد سعيد لأنه قضى لى هذه المصلحة، فقال وهو يقعد :

- ايه رأيك.. صح كده..

- انت راجل تمام كتّر خيرك.. خلاص بقة تاخذ سكتها..

- وأى سكة..

- مش فاهمنا..

- راجل غنى أوى وحبّوب..

- يابختى..

- أنا على أدى...

- عاجبنى.. إيه رأيك فى تهانى..

- صاروخ..

- أحلى منى..

- أبدا إنت حاجة تانية.....

- وذهبنا إلى البيت وقضيت وقتا ممتعا ولما كنت أظل عارية ليتأملنى كعادته بعد اللقاء حاولت ان أسترجع ماحدث بينه وبين زوجته.. فقلت له ياعزيزى الفاضل.. أكمل ما حدث مع زوجتك بعد ذلك فقال وهى يدعى عليها :

- كانت تنام وسط أطفالها وكأنها طفلة مثلهم.. وكانت تتشاجر معهم على تغيير القنوات.. وعندما كنت أدعوها بأن تنام فى الفراش معى.. كانت تهز وسطها وكأنها ترقص وتقول بسخرية إسم الله عليك يامحروس.. دانا غالية أوى.. هُو كله ببلاش.. فتح مخك معايا.. دا كده رخيص أوى.. وأخذتها فى رفق وقلت لها تعالِ نتفاهم. فلوس فى كل مرة وأعطيتك ماذا تريدين؟ أنت زوجتى ألا تخافى أن أذهب إلى إمرأة أخرى.. فتقول فى سخرية أشد.. ومين ترضى بيك.. وأخيرا ياسيدتى قالت .. إكتب لى أيصال أمانة بقيمة ما أثثه أهلى فى البيت.. وقدّرنا ماساهم به أهلها فى تأثيث البيت رغم أن كل ما فعله أهلها هو ما يفعله أهل أى فتاه.. واضطررت ان أكتب لها هذا الايصال بقيمة ثمانية عشرة ألف جنيه.. ولأنه مطلب غير عادل وأنها فى هذه السلوكيات إمرأة مجنونة.. وسكتّ قليلا فقلت:

- هيه..

- كتبت لها إيصال أمانة غير قانونى.. حررته بتاريخ والمبلغ بالأرقام يقرأ ثمانية عشرة جنيه فقط وبالحروف صحيح.. وأنا فى هذا لست ظالما..

- وهل أعطتك نفسها بعد ذلك..

- فى أول لقاء فعلت.. لكنها بدأته بكلمات تسد نفس أى رجل.. حيث قالت.. خلّصنى.. خلّصنى بقه.. وبعد هذا اللقاء كان علىّ ان أسخر منها وألعنها فبصقت فى موضعها بعد الإنتهيت.. وراحت تتوعدنى.. وتسبنى بأفظع الكلمات.. وانسحبت من الفراش وأنا أكرهها كرها شديدا.. وأيقنت بأن هذه الزوجة بالتأكيد على علاقة بغيرى ورحت أراقبها مدة طويلة فلم أجد لها أية علاقة..

- أخبرتنى أنها لاتعمل ولاتخرج حتى لشراء أقل حاجات البيت..

- لا.. إنها لاتخرج ولاتذهب إلى السوق.. هى إمرأة كُبّه هميمة يسكن الشيطان فى رجائها..

- إذا هى مريضة.. مخنونة.. بيئة..

- لا أعرف أنها إمرأة ردّاحة تبحث عن النكد بإبرة.. من أسرة لاتقدر قيمة الرجل.. إنهن جميعا خالاتها وعماتها وأمها يتعاملن مع الرجال بسخرية واستهجان.. ولم اكن أعرف ذلك قبل الزواج منها.. كل ما أعرفه أننى رجل موهوم.. حيث إعتقدت أن فى الأحياء الشعبية أصالة فتزوجت من هذا الحى الشعبى.. فإذا بى لاأجد أية أصالة لدى معظم أسر هذا الحى الشعبى.. وتأكدت من ذلك حيث كان عديلى من هذا الحى.. وعديلى الثانى من حى شعبى آخر.. إن هؤلاء الذين قابلتهم من هذه الأحياء كل همهم جمع المال بأى شكل ولاقيمة عندهم فى العزاء أو مشاركة الناس مسراتهم ومضراتهم الا إذا كان لهم مصلحة فى أداء هذا الواجب.. آه ياسيدتى إذهبى إلى القرى حتى ترين الأصالة الحقيقية لهذا الشعب.. إنه فى مدينتى هذه القديمة العجوز عجز الناس فيها عن اللحاق بالأصالة حيث تاه كل شئ ولم يعد هناك إلا غبارالوّث القلوب.. إلا أننى أقول أن هناك بالتأكيد إستثناءات إنه القليل فى تلك الأحياء الشعبية من يحتفظ بأصالة.. لكن العام فى هذه النواحى المتناثرة فى مدينتى أصالة حكايات.. أصالة كلام.. أصالة إحتيال.. هل هناك طريقة لإعادة الأصالة إلى الناس..

- دخلت ياسيدى فى مواضيع كتيرة أوى.. مواضيع مش بسيطة.. ما فيش حد فيه دماغ دلوقتى.. أنا نفسى.. عن نفسى ما اقدرش أتكلم عن أية أصالة بعد ان دفعتنى حاجاتى لأن أقوم بهذه الأعمال كى أعيش.. أى أصالة ياسيدى.. أصالة؟ كل واحد

بيعيش وبس ومالوش دعوة بغيره..

- وآخرتها ياستى..

- المهم .. كمل الحكاية

- بكرة.. وأسند الرجل رأسه على كتفى ويبدو أن النوم قد غالبه وقمت وارتديت ملابسى المتناثرة فوق كل قطعة اثاث فى الغرفة.. كنت جد مشفقة على الرجل.. وأنا أقول.. إللّى يشوف هم غيره يهون عليه همه.. ونقدنى أجرتى وقبّلته وانصرفت وحدى هذه الليلة إلى بيتى..

... ومرت الأيام كنت فيها أشعر بأننى أستولى على العالم حولى.. أتأمل الناس فى إستقلالية، لم أعد أقترض مليما من أحد وبدأت زميلاتى فى العمل يقترضن منى خاصة فى النصف الأخير من الشهر.. وأصبحت لا ألقى بالا بأى واحدة منهن لاترد من أخذته من سلف، أستقل ميكروباص أو تاكسى.. أدخل كافتيريا لأتناول العصير وحدى.. أشترى لأبنائى كل شئ.. فاكهة.. حلوى.. بسكوت.. الثلاجة عامرة بكل أنواع الطعام والفريزر به كل أصناف اللحوم.. إشتريت ملابس جديدة ذات مستوى هاى..وكذلك أطفالى.. حتى زوجى أكرمته وقررت له راتبا شهريا قدره مائتان جنيه وكان جد سعيد بهذا القرار وتفانى فى عمله ولكن عيبه أنه إنحرف حيث أنه فى أوقات الفراغ يقعد فى المقهى الصغير بالحارة يدخن الشيشة وعلمت فيما بعد من أحد الجيران عندما استوقفنى وأنا فى الطريق إلى البيت وأبلغنى بأن عبد الحميد بيقعد فى مقهى نعيمة البت الهجالة.. وخدى بالك من جوزك أحسن الست دى هاتلوف عليه.. طبعا شكرت هذا الرجل كثيرا.. ومن هذا اليوم وأنا مطمئنة على زوجى حيث إنه قد بدأ يبحث عن حاله.. الدنيا مسالك وتساهيل والبلد زادت معرّص وعاطل وصايع.. ياسادة لن ألوم هذا الزوج أو غيره من الرجال مثله والذين بدأوا يزيدون بشكل رهيب ووراء كل رجل قصة مثل كل إمرأة.. إنقسم الناس وأصبحوا فرادى وانشطر المجتمع.. ولم تعد هناك حدود.. الأم فى ناحية والأب فى الأخرى والأبناء عندما يكبرون.. والله أعلم أين سيذهبون.. مجتمع مفتوح لكنه فقير.. مجتمع شوارع لكنها ضيقه.. فى كل مكان تجد مقهى صغير أو كبير.. وكل مقهى يعج بالرجال منذ الصباح. رجال من كل الاعمار.. صعايدة بجلاليب وبحاروة بقفاطين وعيال صغيرة من الشمال والجنوب لابسين بناطيل جينز لكن اتولدوا هنا فى المدينة الكبيرة العجوز.. مدينة مش قادرة تتحمل أهلها.. عالم كبير وواسع من الأوباش يرتدون الجلاليب الوسخة ويمشون حفاة وينبشون فى أنوفهم.. كل واحد منهم

بربوره نازل على شنبه.. شعور منكوشة فيها قمل وشوارب عريضة كلها نتانة وذقون مش نظيفة.. بيربوا حاجات كتير والحاجات دى عايزة نظافة وتلميع.. يعنى كل واحد يربى حاجة يعتنى بيها.. لكنى الأوباش اللى جم من البلاد بيربوا وخلاص زى ما بيخلفوا أولاد وخلاص.. وبعدين يرموهم فى الشوارع.. مدينة صنعها الأوباش ويزيدون من صنعهم فيها.. طبيعى تكثر العشوائية والزبالة والعربات الكارو ورجال وستات ماشية فى كل مكان فى الشارع لدرجة الناس بتصد فى بعضها وعلشان كده اللى يحترم نفسه ماينزلش من بيته.. لكنى المشكلة إن الناس لازم تنزل الشوارع علشان تاكل وتشرب وتعيش.. مش حالة من الفوضى.. دا كل شئ بقه فوضى.. إحنا رايحين فين.. تعالوا شوفوا الحمير والبغال حول أى سوق.. زريبة مليانة روث.. وشهيق الحمير فل وياسمين.. دا غير النسوان زوجات واخوات الناس دى بيعملوا ايه فى الليل مع الحيوانات.. يابخته الحمار.. فقر بيجيب فوضى وعشوائية.. حوادث وحقد وكراهية وأمراض.. والبرابير شغالة والأكشاك بتكتر والعشش فى كل حته والناس كلها بتقمّص ولو ماعملتش كده مش هاتلاقى تاكل.. وكله شغّال بس فى الظلام..

كانت هذه الصورة وصورًا أخرى تلازمنى كل يوم فى الصباح وأنا ذاهبة إلى عملى وفى المساء وأنا أعود إلى بيتى.. وكان مبلغ سعادتى أننى الآن أمتلك حياة حققها لى جسدى الجميل أشكر قدرى لأننى إمرأة ولو كنت رجلا ما استطعت أن أغنى أسرتى إننى لا أستطيع أن أنفلت عن هذه الصور العشوائية التى تمتلئ بها مدينتى فهى المناظر التى تنتشر فى كل مكان فيها.. إنهم ضعفاء هذا المجتمع والمقاهى تمثل الضعف الآخر.. وجهان لاينفصلان وعلى كل رجل وإمرأة ان يختار أيا منهما طريقا له.. أقصد النساء غير الجميلات لكن الجميلات مثلى فلهن طرقا أخرى تستطعن من خلالها الوصول إلى قمم هذا المجتمع، وكنت أتصور وأنا أسير فى الشارع إلى مبنى الهيئة التى أعمل فيها أن الرجال يتبعونى لاستطلاع معالم جسدى حيث كنت أتصور أنهم جميعا اكتشفوا جسدى مثل حسن عيد، كان الشارع الفسيح مجرى لخطوط يتمدد فيها جسدى والرجال ينتظرون على الجانبين ويتمايلون نحوى.. وبإصبعى أشير.. طريق سهل حتى لإمرأة ليست جميلة إنه لايهمنى الآن جموع هؤلاء الرجال فى كل مكان.. لايهمنى غير أن أفر إلى بيت حسن عيد حيث يغنينى عن كل هذا العالم.. كل مكان فى مدينتى يحتاج إلى صرخة خاصة دواوين الموظفين والمحتاجين ولكل مكان صرخته.. سكت الرجال فصرخت المرأة.. لقد اختفت صرخة النهار.. والليل فى ظلمته صرخات لاتنتهى..

وجدت فيها المرأة ظلمة تتلمس عن طريقها سبيلا للعيش وسوف أظل أنحنى لميدان روكسى وشارع شبرا وبيت حسن عيد القديم.. وسوف أغنى لليل لكن بصرخات لايسمعها إلا حسن عيد،، إنها صرخات كالتى ينادى بها البائع على بضاعته.. أنا مثل أى تاجر يبيع بضاعته كى يعيش حياة كريمة.. إننى الآن لا أمتلك غير هذه البضاعة. إننى أتدارى من عيون النهار الذليلة الضعيفة والوذ منها إلى ليلى.. إننى أخاف الفضيحة.. من الديوان أخاف ومن الشارع أهرب فى عربة ومن أقاربى وأهلى لاوقت كى أرى أحدا منهم.. ومن الحاجة أجَّرت ما أملكه من ليلة لأخرى.. حميت نفسى ودافعت عن وجودى بالايواء إلى بيته القديم.. وأقول للنساء اللائى يقلن أن هذه شغلة وسخة.. إن اللّى ايه رماك على المر أكيد اللّى أمر منه.. لاحول ولاقوة.. ياسادة إن الضعف يولد ضعفا.. من الذى أتى إلينا بهذا الضعف.. بهذا الفقر.. بهذه الحاجة رغم أن بلدنا ليس فقيرا.. من الذى يسرق ثروة البلد.. لقد أصبحت قادرة على رفض كل عيون النهار الذليلة كما أرفض الفضيحة.. إننى أحتمى خلف جسدى وأدافع عن وجودى فى مناخ تخلىَّ عن الجميع.. إننى لن أقف مع جمهرة تثور على من أفقر البلاد.. لأننى اغتنيت وعرفت كيف الطريق إلى سعادتى.. الفقراء فقط هم الذين يثورون ويتجمهرون وعليهم جميعا أن يحتشدوا.. أن يدخلوا فى هذه الجمهرة لكن الذى يمنعهم أنهم يخافون على وظائفهم.. كان عالم غريب حولى أراه وأشعر به وكنت أندهش من مشاركة جوارح نفسى لهؤلاء الفقراء رغم إننى قد انفلت فعلا من هذه الدائرة.. ويبدو أننى مثل أى انسان من الطبقة المتوسطة يحب الغم والنكد.. المهم ياسادة مرت الأيام.. وكلما نفدت نقودى وشعرت بالحاجة الجنسية ذهبت إلى حسن عيد فى شبرا.. وفى ليلة من الليالى التى قررت فيها أن أقضيها معه حتى الصباح قال بعد أن انتهى من لقائى:

- أتريدين أن أكمل لك حكايتى مع زوجتى..

- طبعا..قول..

- جاءت فترة بعد ذلك كلما دخلت البيت تمشى خلفى من الباب حتى أصل غرفتى وتزفّنى بقولها: طلّقنى.. طلّقنى.. طلّقنى لو كنت راجل.. طلقنى حتى لا أرى وجهك.. والغريب أنه رغم قسوتها البالغة كانت تستخدم آيات من كتاب الله حتى تحثنى على الطلاق.. فتقول.. طلقنى حتى يرزق الله كل من سعته.. وكانت تستخدم آيات الله فى غير موضعها.. وكانت تظن أنه على كل إمرأة أن تطلب الطلاق تقول هذه الآية فيرزقها الله بالفعل.. ولاتعلم أن الله يرزق بهذه الآية كل إمرأة مظلومة.. لكن المرأة المفترية

مثلها لن يرزقها الله أبدا .. لكن أختها المنقبة والتى كانت متزوجة من طبيب هى لتى كانت تحرّضها على الإنفصال منى.. ولا أعرف ما هو السبب حتى الآن .. كيف تكون المرأة منقبة وتستخدم آيات الله فى غير موضعها .. وكيف تكون المرأة منقبة ويسكنها الشيطان ولاتصلح بين الناس.. لأنه إذا كان النقاب صحيحا ومثاليا فإن المرأة ترتدبه فى آخر الأمر وعندما تكون قد بلغت من الصلاح والهداية مبلغاً كبيرا .

ـ كفانى الحديث عن المنقبات ياحسن .. المهم ..

ـ كنت أقول لها من يوم لآخر .. ماذا حدث حتى أطلقك .. فتقول .. لو كنت راجل طلقنى .. وكنت أستغفر الله .. واستفسرت منها .. هل هناك رجل . أتريدين الطلاق حتى تتزوجى من رجل بعينه .. إن بيننا أبناء .. حافظى على أبنائك .. فترد علَّى بسخرية واستهزاء .. حتى بلغت درجة عالية من الصبر عليها .. وذهبت إلى شقيقها وأبلغته بما يحدث وأنه عليه أن يتدخل ليصلح ما يمكن إصلاحة من أجل الأولاد .. وكان رد شقيقها علىَّ أغرب .. حيث قال .. أنا ماليش دعوة بيها .. علشان ماتزعلش منى .. إنتم حُرِّين فى بعض .. ماليش دعوة .. فرغ صبرى بعد ذلك .. حتى قالت فى يوم :

ـ طلقنى يا ابن ديك الكلب .. وصفعتها على وجهها وسددت لها لكمات فى وجهها حتى وقعت على الأرض .. وكانت تصرخ وتصوّت وتشتمنى بأفظع الألفاظ .. كان أطفالى يصرخون ويبكون .. كنت أشعر أننى فى مأساة وأنه لابد أن انتهى من هذه المرأة المنقبة وذهبت إلى رجل معتدل واسع الفكر كان صحفيا كبيرا .. كنا زملاء فى المدرسة واحتفظنا بعلاقتنا الطيبة حتى الآن .. ذهبت إليه وحكيت له حكايتى يوما بعد يوم .. كان صاحبى يندهش لصبرى عليها ونصحنى بأن أطلقها مهما كانت النتائج وترددت كثيرا ومرت الأيام .. وأخبرته بأننى لا أستطيع أن أقيم فى شقتى القديمة لأنها غير صحية .. وهز صاحبى رأسه وفتح درج مكتبه وأعطانى مفتاح شقة يمتلكها فى مدينة نصر .. وأخبرنى بألا أخبر أحدا بهذا لأن هذه شقته الخاصة ولايعلم أحد حتى زوجته أن له شقة أخرى ..

ـ يالهوتى ما هذا ياسيدى .. إنى لن أبرح بيتك الليلة حتى تنتهى من حكايات هذه المرأة الحشرة ..

ـ إننى أخاف أن تكون كل النساء مثلها .. معوجات ..

وأخذت وجهه بين كفى وقلت له مداعبة :

ـ ماذا ترى فى إمرأة مثلى ..

هز رأسه وقال فى تردد :

- إننى أراك إمرأة زانية..

.ولم أتمالك نفسى وبكيت.. وسالت الدموع منى بغزارة ولكننى سرعان ما تمالكت نفسى لأننى كنت أريد أن أرد عليه بسرعة:

- لست زانية لم لا أكون عاشقة..

- العاشقة لاتتقاضى نقودا..

- إننى أتقاضى النقود لأن بيتى فى حاجة إليها.. والزانية تذهب إلى كل الرجال.. لكنّى.. وسكتّ.. فقال ليخرجنى عن صمتى أو حرجى:

- اعرف أنك لى وحدى.. ولكنك لن تكونى الا زانية وأنا زان..

.. كنت أرتمى فى حجره عارية وأتدلّل بين ذراعيه.. لأنه الرجل الذى آتى بى من شارعى وأنا تائهة هائمة أتسول الهوى.. إننى كنت جائعة إلى هوى الرجال وإمرأة لها طفلان يحتاجان إلى الجبن والخبز ومصاريف عالية.. إرتميت فى دلال عند عتبة هذا الرجل فكنت أمثل الدلال والبراءة الطاهرة محاولة تبرير فعلتى وكان يجارينى حتى يمسح عنى خجلى عندما كنت أتدارى أحيانا من نظراته الفاحصة.. وبعد فترة من الوقت فيها غطيت جسدى وسكتُّ عن الكلام.. كان هو مايزال عاريا ويتثاءب بين الفينة والآخرى ويبدو أنه كان يفكر فى غرائب زوجته.. وتنهدت بقوة واستدرت بوجهى نحوه قائلة..

- صدقنى ياحسن أنا لست نادمة.. أنا زانية.. ساقطة.. عاشقة.. لايهم من حسن حظى أننى وجدت رجلا محترما مثلك..

- ياسيدتى إنك فاضلة..

.وضحكت بصوت عال.. فوضع كف يده على فمى محاولا إيقاف ضحكاتى التى رجّت سكون البيت.. فقلت وأنا أرفع يده عن فمى:

- كيف أكون زانية وفاضلة؟!..

- إنك أفضل من إمراتى التى دفعتنى إلى الزنا.. إنك أفضل منها بكثير لأنك ما فعلت هذا إلا لتدافعى عن بيتك حتى لايتشرد أطفالك..

- اشكرك شكرا جزيلا.. ولكن لكل بيت ضحية.. إننى فى كل الأحوال ياسيدى أبيع جسدى وأتدارى حتى لايرانى أحد من أهلى.. والمصيبة أن زوجى يعرف.. فلقد عاد رجلا ديوسا يرضى بالأمر الواقع الذى فرضه عليه الوضع الاقتصادى المهين..

- ياسيدتى أنت أصبت الآن.. لست أنت الوحيدة وزوجك واحد من آلاف الرجال الذين لزموا الصمت عن سلوك زوجاتهم.. ياسيدتى من بداية عام الفين وواحد بدأ

المجتمع ينهار كانهيار الجسر.. وكأن مجتمعا جديدا مهلهلا قد انشق من مجتمع كان متماسكا.. والمصيبة أن الإنهيار كان فى الطبقة المتوسطة التى كانت متماسكة على مر العصور، رغم أن البلاد تعرضت على مر العصور إلى أزمات إقتصادية كثيرة لكن ليس بهذه الأزمة الفظيعة.. وإن لم يجدوا حلولا جذرية لعلاج أمور الأمة.. أقول أن المجتمع كله ستأكله الكلاب فى سنوات قليلة..

.. ومرة أخرى لذنا بالصمت الحزين.. بعدها كانت الساعة تقترب من الهزيع الأخير من الليل وقمت لأرتدى ملابسى، وبعد أن إنتهيت جلست قبالته على الكنبة وقلت:

- هل تعرف أننى رئيسة لأحد الأقسام فى هذه الهيئة.. ترانى هناك إمرأة محترمة جدا.. إن الساعى يضع فوق مكتبى الشاى أو القهوة وهو ينحنى إحتراما أو لأننى أنقده كل أول شهر جنيها واحداً.. وربما ينحنى حتى يدوم هذا الجنيه.. نحن فى دائرة كلها ضعف.. الساعى ذليل وأنا رئيسته ذليلة وبالتأكيد ما بعدى ذليل.. الجميع أصبحوا أذلاء لحياة غير عادلة..

- إننا فى حاجة إلى عصا سحرية حتى يعود المجتمع كما كان، وعلى فكرة ياسيدتى إننا جميعا فى أوضاعنا الجديدة قد صنعنا مجتمعاً لن نتخلى عنه..

- حتى لو أصبح المجتمع غنيا بالعدل..

- إن بلادنا ممكن ان تكون غنية بالعدل.. يعنى كل الناس متقاربة من بعضها فى المعيشة والتمتع بنعم الحياة.. وهذا لن يكون فى كل بلاد الشرق.. ولكن بلاداً أخرى فى الشرق أغنياء لأنهم يملكون الثروة وكل واحد منهم حتى أفقرهم يمتلك الثروة التى تحقق له الكرامة.. إن مشكلة بلادنا هى الفساد وعدم العدالة فى توزيع الثروة.. لقد إنتهى هذا الجيل ياسيدتى.. الجيل الذى نحن منه.. إننا فى حاجة إلى ناس غير هؤلاء الناس.. إننا فى حاجة إلى خلق جديد..

- يعنى كل ما هو موجود فاسد..

- إذا كان فيه تعبير أحط من هذا قولى

- إننا شطحنا ياسيدى.. المهم.. هل طلقّت هذه الزوجة؟

- نعم طلقتها.. طلقة بائنة لارجعة فيها....

- وهل أنت مستريح الآن.

- إننى أريد أن أتزوج من إمرأة صالحة..

- على فكرة لاتوجد إمرأة فى هذا الزمان تسعد زوجها..

- وهل سأبقى على هذا الحال..
- افهم من ذلك أنك عندما تتزوج من إمرأة صالحة سوف تستغنى عنى..
- لا أعرف..
- هل أبحث عن رجل آخر؟..
وأمسك بذراعى وقال متوسلا:
- لا.. لاياسيدتى إننى لا إستطيع أن أعيش بدونك..
.. وخلعت ملابسى مرة أخرى وانطويت فى أحضانه.. كان يريدنى بقوة كأنه يحتمى بى من ضعف ألم به وعشت معه فى حب جميل حتى طلع النهار وعدت إلى بيتى.. وكالعادة كان عبد الحميد ينتظرنى ليقدم لى تقريرا عن عمله طيلة اليوم وآمره ببرنامج هذا النهار، وأسأله كالعادة إذا كان يريد نقودا.. وكان دائما يقول.. خيرك مكفينى.. وكنت دائما أعطيه المزيد ليشترى بزيادة حاجات البيت وما يتبقى يضيفه إلى مصروفه الخاص زيادة على راتبه المقرر شهريا.. وكان الضوء الخافت على منضدة صغيرة قديمة هو أهم ما يميز الغرفة التى ألتقى فيها مع حسن عيد فى بيته وكان هذا الضوء يثيرنى وأنا معه لأن هذا النور الباهت يشعرنى بالضعف العميق الذى يشعله رجل.. وعندما كنت أعود إلى بيتى فى الليل بعد لقائه كان هذا الضوء فى مخيلتى وكنت أرى أنوار الشوارع المتلألأة كأنها هذا الضوء.. إنه الشئ الذى أحببته ودخل قلبى وانتعش من خلاله جسدى.. كنت أبتهج من خلال الحلم وما أحلى أن واحدة مثلى تحلم.. إن الحلم الذى تتجدد فيه الآمال وتمسح الآم الواقع المرير شئ جميل.. إننى لن أنسى أبدا ليلة نزولى إلى ميدان روكسى ليأخذنى رجل.. كانت عيون الرجال فى شوارع روكسى تذكرنى الآن بهذا الضوء.. وراء هؤلاء الرجال إمرأة جعلتهم يبحثون عن أشياء فى جوانحهم ورغبات فى أجسادهم.. جعلتهم فى كل ليلة وخلف ظلمة الأيام المجهدة ينتقل الرجال والنساء من فراش كان حلالا إلى فراش التيه والماجنة، وكان أبرز شئ فى طفولتى الأناشيد الوطنية الجوفاء فى المدارس.. ضحك علينا المدرسون والمفتشون وخفنا من عسكرى نقطة القرية وتشدقنا برفع أصواتنا بأغنيات المطربين حيث ضيعنا أعمارنا فى حفلات فارغة.. فهل كان ما مضى تاريخ شعارات أودى بمثلى إلى طريق الهاوية؟!..

.. وأيام أخرى مضيت فيها على وتيرة واحدة.. إمرأة محترمة فى الصباح وفى المساء تأخذنى يد العاصفة.. لم تعد هناك عاطفة لكنها حاجة أبيعها وروحى جائعة، ويبدو أن

المرأة التى أصبحت مثلى يعرفها الرجال.. تلتهمنى عيونهم.. وعدت أتزين وأتكحل قبل خروجي من الدائرة وأحيانا أسير فى الشوارع طويلا عندما تفوينى نظرات الرجال الجامحة.. وشعرت بأننى أستطيع أن يكون لى أكثر من رجل وعادت طموحاتى المادية أكبر من إمكانياتى التى لاتزيد عن ألف ومائتى جنيه من عملى لدى حسن عيد.. وكان زوجى يضغط علىَّ فى مصاريفه التى تنوعت وكان يظهر ذلك فى حديثه معى ويبدو أنه لم ينسجم مع حياته الجديدة وبدأت أخباره تصلنى عن علاقته بصاحبة المقهى الصغير فى الزقاق وأصبح لايرى أى شئ ولايسمع.. ترك لى الحبل على الغارب.. رضى لنفسه أن يكون ديوسا، فهو الخادم والطباخة والنذل.. وأصبحت أرى الحسرة المجسدة أمامى.. أحدق فيها كثيرا وأجدها فى هذا الرجل.. وفى يوم جاءت شقيقته إلينا تشتكى زوجه وأنه لم يعد يستطيع تلبية مطالب البيت وكنا نجلس فى غرفة النوم، وبعد أن إنتهت من حديث طويل عن المعيشة والحياة والغُلب قمت إلى دولابى وفتحت حقيبتى ونقدتها مائة جنيه ففرحت وهز عبد الحميد رأسه معربا عن إمتنانه لى.. بعدها طفق يقول لشقيقته:

- على مهلك لما ربنا يسهل هاتيها -

فقاطعته بشدة:

- يا عبد الحميد مالكش دعوة.. إنت زى أختى دى لولادك ياحبيبتى..

واندفعت نجية نحوى والدموع تكاد أن تنفطر فى عينيها.. وانحنت على رأسى وراحت تقبلها بقوة وأخذتها بذراعى واقعدتها حيث كانت تجلس وأنا أقول:

- إيه ده.. الموضوع بسيط أوى.. إحنا إخوات ياختى..

وانسحب عبد الحميد من الغرفة وتركنا.. ويبدو أن شقيقته إنتهزت فرصة خروجه وفاجأتنى قائلة:

- إنت مش غريبة. أنا بدوَّر على شغل مش لاقية مافيش فايدة كل شهر عندى فضيحة والراجل هايشتغل إيه تانى والولاد كتار..

- بتدوَّرى على شغل فين..

- فى عين شمس..

- ماينفعش.. أخرجى بعيد عن عين شمس..

- أروح فين ياختى..

- مصر الجديدة خطوتين..

- ما عرفش أمشى فى مصر الجديدة..

ـ عايزة تشتغلى إيه..
ـ واحدة جاهلة زيى ها اشتغل ايه.. طباخة.. حاجة زى كده..
ـ على فكرة رئيس الهيئة بتاعنا طلع معاش ومراته ميتة وولاده هاجروا وتركوا البلد.. قاعد لوحده واسمع إنه عايز واحدة تطبخ له..
ـ ياريت ياستى كلميه..
.. ورحت أقلب فى أجندتى حتى وجدت رقمه وهاتفته قائلة:
ـ آلو
ـ أيوه مين..
ـ أنا سهير يابيه..
ـ سهير مين..
ـ سهير رئيسة قلم التوثيق فى الهيئة..
ـ أهلا بيك ياستى عاملة إيه..
ـ على فكرة يابيه إنت لقيت طباخة..
ـ أبدا مافيش حد لسه..
ـ طيب أنا عندى ليك واحدة مضمونة..
ـ تعرفيها..
ـ أخت جوزى..
ـ دا شرف كبير ليّ.. هاتيها ياست الكل.. هى نضيفة و..
ـ نضيفة وحلوة يابيه..
ـ خلاص ياستى أنا عارف ذوقك.. ممكن تجيبيها بكرة الصبح..
ـ أوى يابيه إنت فى البيت.. هاجيبها قبل ماروح الشغل.. يعنى الساعة ثمانية الصبح هاخبط عليك..
ـ ياستى أنا من الفجر صاحى كتر خيرك أنا منتظرك.. شاكر أوى أوى
ـ خلاص يابيه الصبح هانكون عندك..
ـ تشرَّفوا.. مع السلامة..
.. كنت أعرف زهران بيه.. يحب أن يرى وجه إمرأة كل صباح فى مكتبه وكانت هناك تعليمات سرية مع سكرتيره بأن تدخل إليه أى موظفة جميلة لتوقع أوراقها أول كل يوم، وعلىّ أن أظهر حلاوة نجية حتى يعطيها راتبا عاليا ويتمسك بها.. وكانت هذه

عادتي إذا توليت أمر أي إمرأة أو فتاة أجعلها تروق للرجل.. سويت لها حاجبيها والتصت لها شعر وجهها ونتفت لها كل شعرة في جسدها وسافيها.. قلمت اظافرها ودهنتها بلون البنفسج.. ادخلتها الحمام ودعكت لها جسدها وغسلت شعرها بالشامبو.. واهديتها ملابس داخلية جديدة وشرابا وجاكتا وقميصا.. وفي الصباح كانت نجية في لباس جديد فصارت إمرأة اخرى.. إمرأة مش من حارة.. إمرأة مودرن رحت تسير بحذائها الجديد بكعبه العال في الشقة حتى تتمكن من السير في الشارع وتتعود على مشية شيك أمام كل من يشاهدها هذا اليوم.. ولما عاد عبد الحميد من توصيل الأطفال إلى المدرسة إندهش مما يراه حيث رأى إمرأة اخرى ليست أخته فقال وهو يضرب كفا بالأخرى ويضحك بصوت عال:

- يالهوى من دى ياسهير.. دى نجية؟ دى جنّية» تعال ياتوفيق شوف مراتك ريحه على فين.. قالها بخبث..

فقلت له كأنني أؤنبه:

- ريحة على فين ياعبد الحميد.. أختك معايا في أمان.. عارف ولاّمش عارف..

فتلعثم وقال:

- لا والله فهمت غلط.. أقصد أختي بقت واحدة تانية خالص..

- باحسب.. روح بقة شوف شغلك.

.. وانصرف بسرعة وفي صمت، ودخل مطبخة يغسل أطباقه.. ولم يسمعا صوته مرة أخرى حتى نزلا قبل الثامنة بقليل إلى زهران بيه،إستقلا تاكسيا إلى هيليوبوليس مصر الجديدة..

.. وكان الرجل في استقباله لنا مهذبا ورحب بنا وجلسنا في بهو البيت وقدم لنا شايا وراح يسألني عن الهيئة وأحوالها بعد خروجه.. وكنت في كل مرة أجيبه وأبتسم وأهز رأسي نحو نجية فيبتسم هو الآخر ويهز رأسه كأنّه يقول تمام مية في المية.. وبعد لحظات من تناولنا الشاى وانتهائنا من الكلام عن الدائرة راح زهران بيه يوجه كلامه إلى نجية قائلا في صوت خفيض:

- أهلا بيك ياست..

- أهلا ياباشا..

- عندك أولاد..

- عندى بنت في الثانوية وولدين في إعدادى.. والباقى في الابتدائى..

- ربنا يخلّى.. وجوزك بيشتغل إيه..
- سواق فى شركة..
- كويس.. أنا عندى شغل خفيف.. وأنا نفسى فى واحدة تعتبر نفسها صاحبة بيت وانت فى الحقيقة شيك أوى.. إعتبرى نفسك بتشرفى على بيت عمك.. حاجات بسيطة أنا عايز البيت نضيف.. وشوية طبخ والغسالة بتغسل.. عايز شوية أناقة ورواقه للبيت مش أكثر..
- أنا تحت أمرك.. تحت أمرك..
وتدخلتُ قائلة:
- اهم حاجة المواعيد يازهران بيه..
- الوقت إللى يناسبها هى.. المهم تيجى كل يوم..
- وقالت نجية:
- مش مشكلة الأولاد كبار وأنا باطبخ بالليل.. والبنت بتعمل كل حاجة فى غيابى..
وقال زهران بيه:
- ينفع من عشرة الصبح لغاية خمسة مساءا..
- أوى أوى..
- أو من واحدة لغاية ثمانية بالليل..
- كده أو كده زى ما انت عايز يابيه..
- باين عليك أميرة ومهاودة.. هاتيجى من إمتى.
- لو عايز من النهاردة ولا مشكلة..
- ياريت.. حتى أعرّفك على كل حاجة عايزها والبيت مش محتاج حاجة النهاردة..
- تحت أمرك يابيه.. ممكن أتكلم فى التليفون..
- أوى أوى..
وداعبت زهران بيه قائلة:
- دى فكرة أنا جبت لك هديه..
- باين والله. الجميل يجيب الجميل.. بس هَى عايزه كام..
- كل اللى يجى منك حلو.. إتفاهم معاها.. على فكرة نجية بتعمل كل حاجة..
- ياريت تكون بتعرف تعمل مساج..
وضحكت بصوت عال وقمت إليه أصافحه وأنا لا أستطيع أن أمسك نفسى من الضحك

وقلت له بشقاوة:

- كل حاجة بتعملها.. بس إنت علّمها يابيه.. سعدت مادريت.. سعدت مادريت.

- وراح الرجل يضحك حتى أوصلنى إلى باب الشقة وصافحنى الرجل فضغطت على كف يده فسعد بذلك وهو يكرر قائلا:

- لازم تيجى.. أرجوك لازم تزورينى ما تحرمنيش من الجمال ده..

... ومازلت أضحك.. وأضحك، ورحت أقول حتى بعد أن خرجت من الباب وأنا أنزل السرج..

- حاضر يابيه.. حاضر تحت أمرك.. خللى بالك منها..

.. عندما كنت أنام فى بيتى كنت أشم رائحة البهائم وأسمع أصوات الحمير تنهق والجاموس والعجول تنعر والخيول تصهل خاصة فى الهزيع الأخير من الليل،وأما فى أول الليل عندما كنت أصل بيتى مبكرا فإننى كنت أتونس بصوت الأوز والبط وصياح الدجاج الذى يأتينا من فوق أسطح مجاورة، وكان الماعز والخراف والنعاج هى أيضا تعلو بأصواتها فى أول الليل وكانت رائحتها جميعا سواءا فى أول الليل أو آخره تنساب فى أنفى ويحملها الهواء الذى يدخل من النافذة.. رائحة تعودتُ عليها وأصوات لابد أن تصل إلى أذنى.. أنام عليها وأصحو كذلك.. كانت هذه كل بيوت عين شمس.. الشرقية منها والغربية فهل هذه أصوات مدينتى العجوز فى كل مكان.. نعم هى أصوات وروائح اعتادت عليها كل الأحياء الشعبية فى مدينتى.. فأحياء الزمالك وجاردن سيتى والمنيل وغيرها من أحياء المدينة الراقية لامجال لهذه الاصوات المقلقة.. وعندما تزوجت.. خاصة فى أول عهدى بالزواج كنت أتلذذ وأتخيل أن هذه الأصوات تكون معى أثناء معاشرة زوجى لى.. وكنت أتخيل كيف يكون للفرس هذا القضيب ولماذا لايكون لزوجى حتى نصفه.. لا أخفى عليكم أن أصوات هذه الحيوانات وروائحها كانت كلها تثيرنى أثناء ما كان زوجى يضاجعنى.. هذا قبل أن يصلنا الفقر والحاجة وتدق البطالة باب كل بيت.. ولما دقت طبول الحاجة بيوتنا جميعا.. أنا عن نفسى لم أعد أدرى بهذه الأصوات شيئا وعادت روائحها تختفى بعد أن كانت تحقق لى السعادة.. ويبدو أن كل هذه الحيوانات لم تعد سعيدة هى الأخرى، كأن سعادتى بحياتى الجديدة قد ألقت بمصادر هذا الجو فى زرايب الخنازير المجاورة والتى يمتلكها معلم جمع القمامة عاطف بشاى..

.. ومرت الأيام.وفى ركن الحياة الذى أعيش فيه مع صاحباتى تهانى وسوسو وأخيرا نجية شقيقة زوجى.. بدا فى هذا الركن ينقشع منه ضباب الفقر بعرقنا نحن النساء..

وعندما كنت أعود إلى البيت فى أيام كثيرة كان زوجى عبد الحميد يخبرنى بأن نجية تأتى إلى البيت تسأل عنى وتريدنى ضرورى وهاتفتها عدة مرات فى منزلها فلم أجدها حتى جاءتنى فى ليلة من الليال وأخبرتنى أنها تريدنى ضرورى فى حديث طويل وأخذتها فى غرفتى وقفلت بالترباس واستلقينا فى الفراش لتحكى لى وأنا مسترخية وهى قاعدة فى مقابلتى، وبدأت حديثها قائلة:

- بقول لك إيه ياحبيبتى أنا هاقولك كلام ماقدرش أقوله لحد ودا ستر بينى وبينك الله يستر عليك..

.. إبتسمت فى هدوء وأمسكت بكف يدها قائلة:

- وحياة النعمة دى وضغطت على أصابعها.. سرك فى بير ياحبيبتى..

- أولا باشكرك عدّتينى من الفقر.. والحياة حلوة أوى فى مصر الجديدة..

- إزاى..

- فلوس وأكل و..

- وايه؟..

- زهران بيه بيخلينى أدلك ضهره..

- وماله هوّ عيب..

- يعنى مش عيب ياختى..

- لا.. إنت بتدلكى ضهره بس..

- كل جسمه..

- قولى ماتتكسفيش..

- وبيخلينى أدلك.. وسكتت..

- الينتوت

- هوّ إسمه الينتوت..

- له اسماء كتيرة..

- أيوه..

- وبعدين..

- خلّص.. مش حرام..

- مش بتشتغلى وعدّيتى من الفقر.. لو ما عملتيش كده كان هايشوف غيرك..

- أنا حسيت بكده برضه..

- هوّ ولا جوزك..
- لأ هوّ.. وأنا جوزي سنه إثنين وأربعين سنة وعمره ماهنّاني زيه..
- ناعم أوى..
- أوى.. دول ناس مش مننا.
- بتاخدى كام..
- ميت جنيه فى الأسبوع.. وميت جنيه فى الشهر عشان المساج..
- حلو أوى..
- إتبل ريقك وريق ولادك..
- آى والله.. الشرف غال لكن الأولاد أغلى..
- حيطة وقعت علينا كلنا نحوشها بكل قوة.. كويس إن معانا سلاح نعيش بيه..
- يعنى إنت بتشتغلى ياسهير..
- لا.. حرام عليك تفى من بقك.. اقصد واحده زيك مابتشتغلش كان لازم تشتغل.. لكن انت عارفه يانجية أنا الحمد الله باشتغل مديرة فى الهيئة وباخذ شئ وشويات.. وأنا بجاريك بس يانجية وسرك فى بير وتبقى إحكيلى دايما يا حبيبتى..
- إنت حبيبتى.. لكن أنا سمعت إنك بتشتغلى بالليل فى مصر الجديدة برضه..
- فى شركة محترمة ياحبيبتى مؤقتا لغاية ما اخوك يلاقى شغل..
- ونعم الزوجة والانسانة.. ربنا يخليك..
- ينوبك ثواب لو دليتى ستات الحارة على الشغلة دى.
- ربنا يديك على أد حبك للناس.. على فكرة أنا شغلت خمسة من الحارة..
- تبقى إنت أحسن منى.. براقو إزاى.
- أصدقاء زهران بيه..
- على فكرة كلهم بهوات زيه..
- فيه واحد فى روكسى بيشغل الستات ممكن تجلبى له ستات وتاخذى عمولة..
- كل اللى يهمنى إنى أرحّل ستات عين شمس اللى زيى هناك علشان يعيشوا
- هات على الآخر. سواء عن طريقك أو عن طريق السمسار كله خير يانجية.
- عايزة فلوس ياحبيبتى..

وابتسمت ملأ فاهى وقلت لها:

- الفلوس كترت معاك. شكرا يانجية..

- تحت أمرك
- وجوزك بيقول ايه عالشغل؟..
- مبسوط وهايص مع العيال

وكنت أشعر أننى أمسك شيئا جديدا من الحياة وأنه لابؤس للمرأة مع تلك الحياة وأن المرأة تستطيع أن تفعل الكثير من أجل أبنائها خاصة فى ظلمة الحياة الاقتصادية الهالكة حتى ولو كانت المرأة غير جميلة فلكل كيلة كيال، إن لكل مكان وأوان سوقا خلف أسوار الحياة العادية إنه فى كل ناصية وكل بيت.. فى حوارى وأزقة الأحياء الشعبية ومن هذه البؤر والمنازل فى شوارع المدينة الفقيرة تنطلق النساء عابرة كل الجسور كى تعيش.. من بيوتات قديمة مهترئة ومن بنايات شيدت حديثا فى كل حى عشوائى تنبعث صرخات الإستغاثة بحثا عن فراغ جديد يزيح حملا ثقيلا من فراغات الحياة كحلم يقظة يخنق أنفاس البشر.. ويبلغ هذا السوق ذروته كلما اشتد الغلاء.. هناك فقراء لهم أجور ضئيله وآخرون لهم معاشات أقل والغالبية من الفقراء ليس لهم أى دخل.. يتسولون أو يعيشون على الصدقة أو على لقيمات بدون غموس وغيرهم يشحذون وهناك رجال وصلت بهم الحال أن أخذوا بناتهم إلى الملاهى ليعملن هناك فى أى وظيفة وناهيك من رجال كثيرين جدا تركن زوجاتهم يخرجن من البيت فى أى وقت ليقضين ساعات طويلة فى النهار أو الليل بحثا عن الرزق.. وأصبح الهدف واحدا بلا خجل أو أدنى حياء.. المهم أن تعود المرأة بحقيبة مملوءة بالطعام.. غير أنه فى جملة هذا الجو وتفصيله كان هناك رجال شرفاء ونساء كذلك راحوا صبيحة كل يوم يبحثون فى صناديق الزبالة عن أى شئ.. وأقول لأغنياء هذا الزمان من أين أتاهم الغنى؟ وكيف يتشدقون بالشعارات الجوفاء وهم يعرفون أنهم يكذبون، مهزلة هذه الحياة التى نعيشها.. إننى إمرأة فى هذا الوطن.. أرتدى ثوبا محترما كل صباح وأذهب إلى عملى لأكون فى خدمة هذا الوطن، وفى المساء لا أرتدى أى ثوب وأتعرى لرجل يدفع لى حتى أطعم أبناء أبرياء بهذا البلد، كيف يتكلمون عن الوطن وقد سرقوا ذهب البلاد وجعلوا النساء الفاضلات عاهرات؟.. هل أنتم أبناء الوطن أم كلابه.. إننى كامرأة محترمة فى الصباح وعاهرة فى المساء أرفض هذه الحماقة ولن أنتظر العدل الذى لن يأتى.. ولأنه يطول إنتظار النجاة وإنها لن تأتى أبدا إختصرت الطريق لأبنى كرامة مزيفة وليست حقيقية.. إننى وزوجى وأبنائى نأكل من حرام.. أيها السادة اجتمعوا جميعا ودلونى عن

كيف الحلال فى هذا الوطن.. إننى مثل كل أهل البلاد أدرى بكل شئ يحدث.. والكلام لايفيد والصبر خير وانتقام الله آت..

.. أيها السادة اطلت عليكم.. لكن أقسم بالله العظيم إن هذه مذكراتى أكتبها كل يوم.. إنه تاريخ إمرأة وقد يكون تاريخ كثير من النساء .. فى كراسات مهملة خبأتها تحت كل قميص أرتديه فى ليلتى وفوق كل قطعة صغيرة أتستر بها عندما أنتهى من لقائى مع أول رجل أبيع له جسدى.. إنه رجل فاضل.. مثل كل رجال البلاد تمسك بالفضيلة ثم انفصم..

.. ومرت أيام أخرى كانت تهانى تأتينى وأنا مشغولة فى عملى فابتسم لها وأقول فى عجالة؟

- عاملة إيه.. إزى الأحوال

- كله تمام عايزاك.. عايزة أحكى

- عايزة أعرف.. بس الوقت الجدول مليان..

تبادلنى الابتسامة وتردد نفس الكلمة.. الجدول مليان عالآخر.. فارد :

- والحل

- لازم يوم أجازة نقعد فيه مع بعض..

.. ووافقتها.. وفى يوم أخذت كل منا يوم أجازة وتقابلنا قبل ظهر هذا اليوم فى مطعم للكباب وسط البلد.. وكان لقاءا حارا ممتعا بدأناه بتناول الطعام الشهى وراحت تحكى وأنا اسمع :

- ركبت معه المرسيدس وكان يبتسم بين الفينة والأخرى ويقول.. تحت أمرك.. تحت أمرك.. من زمان وأنا أتمنى واحدة زيك.. وكنت أبتسم وأهز رأسى قائلة.. ياريت أكون عند حسن ظنك.. فيقول ما تشيليش هم الفلوس كل مشاكلك المادية ها حلها.. من جنيه لزى ما انت عايزة.. فاقول ياه مرسى.. ياه مرسى وأكررها كلما أفضى بكلام طيب.. وبعد أن قطعت العربة شوطا من الطريق وكنا قد اقتربنا من مدينة نصر قلت :

- لسه كتير..

- لا..

- طيب هايروح فين..

- العمارة بتاعتى..

- جديدة..

- أيوه.. الأدوار لسه بتتجهز.. أنا الساكن الوحيد دلوقتى..
- ماحبش الأماكن المهجورة
- أنا عامل شقة زى القصر..
- ياسلام..

.. وبعد قليل وقفت المركبة أمام عمارة شاهقة الارتفاع يظهر من طوابقها عمال الدهان على سقالاتهم، كانت البناية وسط البنايات التى لم يتم تشطيبها بعد.. بنايات لأغنياء آخرين.. وقلت لنفسى وأنا أنزل من العربة.. دى كلها أبراج.. هم بيجيبوا الفلوس منين. وتقدمنى الرجل.. وقابله الحارس قبل أن نصل إلى الأسانسير فشتمه ووبخه.. وكان الحارس ينحنى ويعتذر مرددا.. معلش يابيه.. سامحنى.. كانت الشقة فى الطابق التاسع.. فاخرة الأثاث والديكورات وتماثيل فى كل ركن .. وجلست بالصالة.. دقائق ودخلت زوجة الحارس إلى المطبخ.. وفرَّجنى على كل مكان فى البيت.. وكنت أقول له.. مبروك.. حلوه أوى.. لا أحسن من بيت الملوك.. ولما وقفنا أمام المطبخ.. كانت زوجة الحارس.. تقول.. معلش ياباشا ثوان.. ووبخها أيضا كما فعل مع زوجها.. ثم جلسنا فى الصالون قليلا أكلنا التفاح وشربنا الكولا.. بعدها دخلت غرفة النوم.. التى فيها رأيت العجب وسكتت.. فقلت لما وجدتها توقفت عن الكلام وكأنها تاهت:

- خدك على طول..
- لا .. أقصد تهت فيها من جمالها وفخامتها..
- سيبك من الفخامة.. الغنى غنى.. خلينا فى المهم..

.. فتح لى ضلفه الدولاب وقال:

- هذه ملابسك إرتدى منها ما شئت..

... وقفت مذهولة أمام ملابس لم أرها فى حياتى.. وتركنى الرجل.. آه.. اسمه الحقيقي عونى أنيس.. تركنى.. فأخذت منها ورحت أجرِّب.. وطرقت المرأة الباب ثم دخلت وقال:

- ياستى الحمام جاهز..
- طيب أنا جاية..
- إختصرى ياتهانى..
- معلش هاختصر بعد الحمام.. ماكنتش عايزة أخرج منه.. مرايات وقصارى ورد ومناظر طبيعية.. أقول لك.. إحنا عايشين تحت الارض فى شبرا الخيمة..

- بيشتغل إيه..
- بدأ حياته نجار مسلح.. وبعد عشر سنين بقه مقاول صغير بعدين كبر أوى..
- أدخلى فى المهم.. قولى..
- أخذت حمامى وفى غرفة النوم ارتميت على التخت الوثير وكأننى ملكة بعد أن تعطرت بعطر النساء أشكال وألوان.. مجموعة من أفخم البارفانات أمام التسريحة.. وشعرت بأن هناك نساءا كثيرات جئن إلى هذا المكان.. وسرعان ما أدركت بأننى مثل أى إمرأة تأخذ أجرتها وتمشى..
- الخلاصة ياتهانى فى عرضك.. طيب فى عرض المسيح..
- حاضر.. حاضر.. رحت فى غفوة.. ثم دخل علىّ الرجل. يحمل صنية بها طعام شهى وقال:
- ناكل لقمة الأول..
.. لم أجد على الصنية عيش.. قلت:
- فين العيش أغمس بإيه..
- كلى حاف.. مافيش عيش عندى.. كل الناس المبسوطين كده..
- من غير عيش واللقمة تتبلع إزاى..
- خدى على كده.. كنت باكل عيش أيام الفقر.. كلى فراخ وحمام بس..
- خلصى ياتهانى.. المهم..
- مستعجلة ليه مش أملة ياسهير.. إحنا ورانا حاجة..
- وحصل إيه بعد كده..
- أخذنى على الفراش وراح يخلع ملابسى واحدة بعد الأخرى ولما أصبحت عارية طوانى بين ذراعيه.. وانبعث منه صوت مثل صوت الخروف وشعرت بأن فى الرجل حيوانية.. وأثارنى بشكل يبدو أنه حديث لأن زوجى الغلبان يثيرنى بطرق عبيطة.. وجرى الدم فى عروقى ويبدو أنه من أكل الحمام وذلك لم يحدث مع زوجى لأن الفول لايجرى الدم فى العروق ولكن يبدو أنه يحشر المصران فقط...
- وبعدين ياقحبة إدخلى فى المفيد..
- رجل متوحش.. ليس مثل زوجى الذى كان ينتهى فى خمس دقائق..
- على فكرة بغض النظر عن الأكل الحلو.. الناس دى بتاخذ حبوب..
- صحيح باين كده.. كان زى الحديدة على طول.. وبيطول أوى زى ما يكون مكنة

بيحركها.

- البركة في الفياجرا.. على فكرة فيه حاجات أرخص من الأمريكانى..

- أمريكانى إيه..

- الفياجرا الأمريكانى بأربعين جنيه الحبة.. وفيه حاجات ثانية تقليد زى المامجرا والكامجرا والفيجا والمياجرا على أد الفقراء.. أقصد متوسطى الحال بأسعار عشرة جنيه وسبعة..

- هو جوزى مش دارى بالحاجات دى..

- قلت لك متوسطى الحال..

- أيوه أيوه ياستى.. إحنا فقراء..

- الحال من بعضه.. الطبقات اللى تحت لاقادرة تاكل ولاتقدر تجيب أبو عشرة..

- فقر من كله..

- على فكرة إنت بعدين ممكن تجيبى لجوزك..

- مش مهم جوزى.. الرجالة اللى زيه تتحط على الرف..

- بس إنت تقضّى عونى.. المهم إداك فلوس كام..

- الف وميتين جنيه..

- يانهار إسود فى المرة الواحدة..

- إصبرى. ألف شبرأة ومتين فى المرة..

- شبرأة يعنى إيه..

- أجيب هدوم بالألف. وهايدينى تانى علشان أبقه على سنجة عشرة..

- ياخيبتك ياسهير دانا وقعت..

- إزاى..

- حسن غلبان أوى.. طول الليل ما فيش غير المية وخمسين.. ولا شبرأة ولايحزنون

- أخلّى عونى يشوف لك واحد مبسوط..

- شوية.. شوية كده.. هاتروحى كام يوم فى الاسبوع..

- بروح ثلاث مرات فى الاسبوع..

- يعنى دخلك الأسبوعى ستميت جنيه..

- أيوه.. تمام كده..

- إنت كنت فين..

- البركة فيك عايزة فلوس..
- لا طبعا.. علمتك الشحاته سبقتينى على الأبواب..
- يارب ياسهير تلاقى اللى يسعدك..
- مرسى ياتهانى.. هاتروحى لعونى النهاردة..
- النهاردة أجازة.. هاوضّب نفسى وأروح للكوافير بالليل علشان بكرة أبقى حاجة تانية خالص..
- الفلوس بتعمل كل حاجة..
- نحمد ربنا.. إحنا كنا فين..
- على رأيك..

.. وخرجت كل منا إلى بيتها.. وفى المساء ذهبت إلى حسن عيد.. كنت لأول مرة أتمرّد عليه فى داخلى فلم يعد هو الرجل الذى يرضى طموحاتى..

.. وفى بيته القديم وعلى فراشه الفقير إلتقينا مثل كل مرة وكالعادة بقيت عارية وراح يحكى عن حياته بعد الطلاق قائلا:

- فى يوم عدت إلى البيت فى المساء فلم أجد طليقتى وأخبرنى أبنائى بأنها أخذت الثلاجة القديمة والتليفزيون وبعض الأغطية وجزءا من ملابسها وأخبرتهم بأن هذا الأثاث قديم ولالزوم له عندنا وإنها تبرعت به لإحدى دور المسنين.. وسكت أبنائى قليلا وبعد أن خلعت ملابسى وصلّيت.. جاءنى إبنى الكبير قائلا وهو يضع يده على ظهرى:

- لاتحزن يا أبى.. إعتبرها ماتت..
- أنا حزين وأشعر أن قدمى لاتستطيع حملى.. ورحت فى ذهول..

.. واحتضننى إبنى بين ذراعيه وقال:

نحن نريدك يا أبى.. إنها ليست أم.. هى ولدتنا ولكنها ليست أمّنا.. الأم شئ آخر غير الذى نراه الآن..

- والحل..
- يا أبى.. سوف أكمل لك الحكاية.. أنها سوف تعمل فى دار المسنين..
- أكمل المصيبة يا بنى وماذا بعد..؟
- سيضطرها عملها أن تنام فى الدار بعض الليال..

- أين تقع هذه الدار؟
- لا أعرف.. لكن العربة التى حملت الأثاث اتجهت ناحية المترو..
- يا بنى.. أنت مازلت صغيرا وإنه ليحزننى أن أقول أن ما حدث ويحدث يعتبر فاجعة.. لو كانت مع رجل غيرى لقتلتها..
- إنها لاتستحق أن يقتلها رجل حكيم مثلك..
- ومن يقتلها إذا..؟
- قل حسبى الله ونعم الوكيل..
- طبعا سأقول دائما.. حسبى الله.. ولكن..
- لكن ماذا يا أبى..
- ليس لها أهل يا ابنى.. أمها لاتقدر عليها.. وأخوها سلبى ولايستطيع أن يقول كلمة واحدة.. وأخوها الكبير شرابة خرج رغم أنه طيلة الليل والنهار يردد ويحكى.. قال الله وقال الرسول..
- يعنى بيقول كلام وخلاص..
- بيقول من غلبه مع زوجته.. عندما يقول لها شيئا فى الدين بتضربه بالجزمة..
- هل هذا يعنى ان الناس بتقول من الغلب..
- هذا ما يجرى يا ابنى.. الناس فى هذا الزمان بيقولوا كلام للناس وبس.. ولايوجد واحد من الناس.. أقصد واحد من الرجالة قادر على مراته.. الأيام دى بقت ميغة..
- هذا معناه إن النسوان سابت..
- قول أكثر من كده..
- يعنى عايز تقول إحنا زى الناس..
- إحنا أقل الناس بلوة..
- لا يابنى.. انت عايز تشربها لى..
- لا يا أبى والله. فى كل الاحوال علشان خاطرنا سيبها وما تعملش حاجة فيها..
.. وانتهى حسن عيد من حكايته عند هذا الحد فى هذه الليلة، وقمت أرتدى ملابسى وأنا أقول:
- الموضوع إنتهى كده..
- لا.. أنا راقبتها فى يوم وعلمت بكل شئ.. الحكاية مش كده..
- بكرة نكمل..

- خليك النهاردة معايا.. الحكاية كبيرة أوى لسة ما انتهتش..
- بس على شرط تخلص الحكاية كلها الليلة..
- كل حاجة هاتخلص الليلة..
- اتفقنا..

... وخلعت ملابسى ثانية ونمت إلى جواره وراح يحكى..

... وشعرت بأن غيوما تسكن فى رأسى ولابد أن أتخذ معها موقفا عنيفا لأوقف إنحرافها.. وفى يوم مشيت خلفها حتى ركبت ميكروباص يتجه نحو المترو وركبت تاكسيا وتبعتها، نزلت فى شارع عين شمس واتجهت سيرا على قدميها نحو عزبة النخل وقبل أن تصل شريط السكة الحديد دخلت يسارا فى شارع ضيق، على الجانبين بيوتات قديمة صغيرة ومحلات ضيقة لحرف كثيرة أطفال صغار وفتيات وفتيه ورجال كبار ونساء جميعهم من أهل أسوان.. سود عيونهم بيضاء تلمع فى وجوههم وأسنانهم تبرق مثل بريق ليلة مطر يلمع فى سماء مظلمة لبدتها السحب.. البيوت من طوب أحمر اكتسى بطبقة سميكة من الوسخ والتراب وأبواب المنازل ضيقة من حديد صدأ.. كانت الحارة كالأغلال أطبقت على أنفاسى وأهلها كالزمن من شديدى الظلمة وتهيأ لى أنه فى هذه الحارة ستُزهق روحى.. إننى سوف أقتل هذه المرأة وهؤلاء القوم لن يتركونى حيا وقبل نهاية الزقاق دخلت بيتا.. وعند هذا البيت وقفت قليلا أتردد فى دخوله.. لكننى انطويت فى لحظة خلف بابه.. وعملت كمن يسأل على شئ وطرقت بابا تهيأ لى أنه باب شقة.. لم يفتح أحد.. وطرقت مرة أخرى ففتحت لى سيدة عجوز وقصيرة ذات وجه أسود وجلباب أسود نسيت أن أقول أن رقم واحد كتب على الباب بلون أسود أيضا.. كان كل شئ أسود وشعرت بأننى وسط قبيلة سودانية.. وحاولت أن اندمج وقلت للسيدة فى هدوء:

- ياسيدتى أيوجد عندكم سكن مفروش..

وقالت السيدة وهى تبتسم:

- لا إنه بيتنا يابنى..
- الشقة.. أقصد الشقة اللى فوق..
- دى شقة ابنى.. لسة متجوز جديد. الشارع دا كله ما فيش سكن.. كل واحد له بيته.. إنحنيت للسيدة وشكرتها وقفزت إلى أرضية الحارة.. وأنا أقول بصوت خفيض احدث نفسى «يانهار إسود» إتجوزت إسود.. وفى بيت زى ده.. طيب ليه.. أكيد هى

الزوجة.. أو يجوز هى صاحبة مراته.. واحدة واحدة ياحسن.. وقفت بناصية الحارة التى تطل على شارع كبير يدعى شارع عبيد الجحش.. وظللت أحدث نفسى.. العملية جابت خبت.. أنا دخلت مع العبيد والجحش والفقراء السود.. دخلت بخاطرى ومش عارف آخرتها إيه.. الله أعلم هاطلع تانى الدنيا ولآخلاص.. أموت النهاردة وأعرف الموضوع على الآخر.. ووضعت يداى فى جيوب بنطالى ورحت اتفحص البنايات العالية فى الشارع الرئيسى وكنت أكشف أبواب تلك البيوت أرقب من يدخل إليها ويخرج منها.. وكنت أشعر أن بريق عينى يكاد ينفذ منه شرر.. وأطرافى ترتعش ومرت دقائق عصيبة على نفسى وأنا أفكر فى كثير مما يجب أن أعمله، وانقضى بعض الوقت كان السكون يطوى الحارة وأهلها إذا تحركوا فى سكون أشد، وقد يكون لونا من الهموم أو شيئاً من القناعة وتهيّأ لى أنهم لايتصلون بالدنيا حولهم.. خربت عمرت أنا عايش.. نوع من البلادة قريبة من الموت.. وفجأة خرج شاب صغير من بيت فى مقابل المنزل الذى دخلته واتجه ناحيتى ويبدو أنه يقصد شيئا فى الشارع الكبير ولما اقترب منى تجاسرت وقلت له:

- ياحبيبى.. أنا عايز إبن الحاجة فى البيت اللىّ قصادكم..

إبتسم الولد وقال فى طيبة:

- عايزه فى إيه ياعم..

- عايزه فى شغل.. أنا ناسى إسمه..

- إسمه عبد العليم.. دا محله هنا فى الشارع..

- أيوه أيوه. محل إيه فكّرنى.. أصل كان معايا العنوان وراح منى..

- محل علافة. قمح ورز وشعير وكده..

- أيوه الله يرضى عليك ممكن تورّينى المحل..

- تعالى بل عيونى..

وتبعت الشاب فى الشارع الواسع حتى أوصلنى إلى محل عبد العليم. وشكرته وانصرف.. ورحت أتفحص عبد العليم.. شاب أسمر مثل كل سكان الحارة نحيل طويل جالس على مقعد عال ويهز رأسه كالذى يغنى.. واقتربت من حانوته.. وأدرت له ظهرى كمن ينتظر أحدا. ورحت أقرب المحل شيئا شيئا.. ويبدو أن تجارته بسيطة وأنه على باب الله كما يقولون.. وحادثت نفسى وشعرت بجمود حاد يقبض على أنفاسى كشئ يذلنى.. ذل الحياة الذى ينزل على كل الناس وكنت أكره أن أرتعش أو أرتجف.. ياسيدتى هذا اليوم إرتعشت وارتجفت كما لم يحدث من قبل.. وسكت قليلا..

.. فقلت له وأنا أمسك برأسه:

- حكيت كثيرا جدا.. أدخل فى الموضوع.. هو فيه كارثة بعد كده.. كأنك تمهّد لزلزال..

- تحمّلى قليلا إننى أحمل جبلا فوق رأسى وكأننى مسافر سفرا بعيدا وليس معى زادٌ..

- طيب الصبر جميل... قول ياحسن ولايهمّك معاك للصبح..

وأمسك يدى وقبّلها..

.. قلت لنفسى أدخل وأشترى منه وأحادثه.. لماذا هذا الجمود؟

ودخلت إليه قائلا:

- السلام عليكم..

فقام من قعدته وقال:

- وعليكم السلام أى خدمة..

- عندك إيه للبيت..

- كل حاجة .. زى ما انت شايف.. عيونى..

- خمسة رز وخمسة دقيق وثلاثة قمح وكيلو كركديه.. عندك إيه تانى..

- سكر وصابون وفحم ومعسل..

- تمام وخمسة سكر وخمسة صابون.. كيلو فحم وخمسة معسل..

- خمسة كيلو تقصد.. يعمر بيتك نهارك فل..

... وهرول نحو المقعد وحمله إلىّ قائلا:

- إتفضل خش جوه أقعد.. حضرتك تشرب إيه.. قهوة شاى عندى كل حاجة فى المحل.. باعمل كل مشروباتى على السبرتايه.. قول.. قهوة. والله لازم تشرب حاجة..

- الله يعمر بيتك باين عليك راجل طيب.. خلاص قهوة..

وبادرنى قائلا:

- حضرتك من هنا.

- لا. أنا من هناك بعيد..

- شكلك ابن ناس مش من هنا..

- اللى هنا أحسن ناس..

- من أصلك.. أنا ياسيدى جيت أدوّر على شقة.. بيقولوا السكن هنا رخيص..

- أيوه أرخص من فوق كتير..
- تقصد ايه..
- هنا تحت.. فوق جسر السويس.. هنا لبش..
- إسمك إيه ياحبيبى..
- خدامك عبد العليم..
- متجوز..
- أيوه..
- من زمان..
- من شهر.. وإنت..
- متجوز.. طبعا وعندى ولادى كبار.. الحمد الله مراتى منقبة وعارفه ربّنا كويس..
- وأنا برضه..
- من مصر..
- من مصر.. كبيرة عنّى.. إتجوزتها بالصدفة..
- ازاى داحنا هانبقه أصحاب.. حسابك كام الأول؟
- حاضر دقيقة.. وراح يمسك الورقة والقلم ويحسب.. ويبدو أنه غير متعلم من طريقة مسكته بالقلم.. ولهجته وطريقة نطقه بالكلام..
.. وأمسكت برأسه ورحت أدعك جبينه بأصابعى كأنى أخرج بعض الصدأ وقلت بصوت خفيض أرجوه:
- إرحمنى من عبد العليم.. إشتريت وبعدين.. إنت دخلت فى موضوع تانى خالص.. الخلاصة عملت إيه فى مراتك.. بلاش الحوار مع عبد العليم.. كفاية ها تموتنى..
- تقصدى مطلقتى..
- ياخرابى منك.. النهار طلع ولسة بتحكى حكايات بعيدة خالص عن الموضوع..
- لا أبدا طوّلى بالك.. أصل الموضوع فى الحوار..
- طيب قول ياصبر أيوب..
- قلت له إتجوزت مراتك إزاى..
.. فأخبرنى أنه فى كلية اللغة العربية وأنه يفضّل استخدام أصول اللغة فى الحديث حتى يتعود على إتقان اللغة.. فاخبرته أن اللهجة أبلغ فى الحكايات.. واتفقنا ان يكون الحوار خليطا بين اللغة واللهجة.. وبدأ يحكى حكايته..

- فى يوم كنت ذاهب إلى حلوان ولما جلست على مقعد المحطة انتظر المترو جلست بجانبى سيدة منقبة وكانت تنظر إلى بقوة وأخذنى كحل عينيها،وبادلتها نظراتها الثاقبة وفى خلال لحظات قالت وهى تنعدلُ فى جلستها وتستدير ناحيتى:

- إنت من هنا..

- نعم ياسيدتى..

- أبحث عن شقة صغيرة إيجار جديد..

- عندى ياسيدتى.. فى بيتى..

- كم إيجارها..

- يبلاش.. هل معاك أبناء..

- سوف أكون وحدى.. الأبناء مع والدهم..

.. كانت السيدة المنقبة سهلة معى فأخذتها وخرجنا من المحطة إلى بيتى الصغير القريب من عزبة النخل ودخلت إلى أمى التى تقطن فى الطابق الأرضى بالبيت وعرفتها بالسيدة وكانت أمى مندهشة لكنها كانت تبتسم وأخبرتها بحاجة السيدة وأنه لامانع أن تقيم معنا، أمى من أسوان وعادة كل أم توافق إبنها الوحيد على أى شئ يفعله كشيمة أهل نواحى هذه المحافظة.. وأخبرت السيدة المنقبة بأن الأجرة ما تستطيع أن تدفعه فسكتت وكانت أمى تبتسم على كل كلمة أقولها وبعد أن احتسينا الشاى طلعنا إلى الطابق الثانى.. وأثناء صعودها معى الدرج الضيق أمسكت بى خوفا أن تقع فتصافح ذراعى مع جسدها وشعرت بحرارة شديدة ورعشة تسرى فى جسدى.. وكنت أريد أن أحتضنها غير أنها تباعدت وفتحت الباب الخشبى القديم الذى إشتريته من تاجر الروبابيكيا..

وبادرت عبد العليم قائلا:

- وحياة أمك الطيبة تختصر..

- حاضر.. فى خلال أيام كانت الشقة مدهونة بالزيت وقامت السيدة بشراء أثاث جديدة بسيط ملأت به كل أركان الشقة كما أتت بكل أدوات المطبخ جديدة ومستعمله وتلفاز.. وأصبحت الشقة الصغيرة والتى لم يكن بها غير مرتبة وحصيرة ومخدة.. عادت الشقة كالعروسة..

- وبعدين

- كانت السيدة المنقبة تنام بجوار أمى أثناء الليل وفى النهار ترتب وتجهز فى شقتها

وفى أثناء هذه الفترة تآلف قلبى معها وفاتحت أمى بالزواج منها فرفضت فى أول الأمر لإننا أهل أسوان لانتزوج إلا من أهلنا وأقاربنا السود، ومرت فترة تخاصمت فيها مع أمى إلا أنها فى يوم كالعادة ابتسمت ووافقت بشرط أن أتزوج من بنت أخيها فيما بعد وأن يتم الزواج سرا دون علم الأهل وسكان الحارة وأن نخبر الجميع بأن هذه السيدة مستأجرة فقط ومازلت حتى اليوم حركتى فى النهار مع أمى فى الطابق الأرضى وعندما يأتى الليل أتسلل إلى زوجتى فى شقتها الجميلة وإلى اليوم أنا سعيد بالزواج من سيدة لها بشرة بيضاء..

- هل انتهيت..؟

- نعم.. هذه هى الحكاية..

- حكاية غريبة والمثير فيها.. هل هى تحب البيوت القديمة؟ أم تحب السود من الرجال.. هل تذهب المرأة منا إلى الأفضل والأنظف أم تذهب إلى قاع المدينة لتعيش فيها؟

- ما حدث لعبد العليم بعد ذلك يجيب على تساؤلاتك..

- إننى شغوفه لاستكمال أحداث عبد العليم - على فكرة لن أذهب إلى العمل اليوم.. إننى جد مرهقة.. حكاياتك مثل ألف ليلة وليلة.. حوارى وشوارع وبيوت قديمة ورجال سود لهم كل هذه الحياة..

- على العموم سوف أختصر لك حكاية عبد العليم.. وسكت قليلا ثم عاود يقول:

- عبد العليم بدأ يشك فيها لأنها تخرج كل يوم بحجة أنها تذهب إلى أبنائها وتعود فى معظم الأيام فى وقت متأخر من الليل.. وبدأ يشعر بالندم لزواجه منها وبالإحراج من أهل حارته.. وبدأ الجيران يسألونه.. من هذه المنقبة التى تخرج فى الصباح وتعود فى وقت متأخر.. وكان دائما يجيبهم إنها سيدة فاضلة تعمل فى مستشفى بالنهار وترعى أبنائها فى الليل ثم تعود فى هذا الوقت لأنها مطلقة ولاتستطيع أن تنام فى بيت مطلقها.. لكنه من جانبه ولأنه زوجها راقبها فى يوم حتى وصلت إلى محطة مترو عين شمس وركبت مترو حلوان حتى وصلت إلى محطة طره الأسمنت، وهناك قابلت رجلا من أصحاب الجلاليب البيضاء القصيرة واللحى الطويلة.. أخذها الرجل بعد أن صافحها بحرارة.. إلى خارج المحطة وهى تمسك بذراعه وفى الشارع كان هناك رجل آخر يقعد أمام عجلة قيادة لعربة جيب قديمة.. لم يتبين ماذا كان يرتدى هذا الرجل.. أهو يرتدى نفس ملابس صاحبة وانطلقت العربة نحو الجبل.. وراح عبد العليم يرقبهم حتى دخلت

العربة خلف الطرق الموصّلة إلى أعماق هذا الجبل.. وسكت حسن عيد وكان حزين جدا حين طرح هذه الأسئلة التى لم أستطع أن أجيب على واحدة منها..

.. من الذى أوصلها إلى هجران بيتها؟ ما هو الدافع الحقيقى وراء طلاقها فى أول الأمر؟

- هل أصحاب هذه الجلاليب هم أساس انحرافها..؟

- ما الذى تفعله مع هؤلاء الناس..؟

- ماذا فى هذا الجبل من أسرار؟

.. وتوقف حسن عيد وهو يكاد يقع رغم أنه مازال مسترخيا فى سريره.. أقصد رأسه تكاد تقع فوق جسده.. غير أننى رحت أواسيه قائلة:

- وماذا يهمك أنت من إمرأة كهذه.. ياراجل عيش حياتك.. خد بالك من ولادك وبس..

- أقول لك.. خلّى عبد العليم يقتلها..

- عبد العليم من أهل اسوان.. مش صعيدى .. الناس دى زى أهل السودان طيبين وفى حالهم ومالهمش دعوة بمواضيع القتل.. ورغم أنهم سود فهم فى التعامل مع الحياة باردين جدا..

- أقتلها من بعيد..

- دا اللى هايحصل..

- يعنى.. أجّر عليها واحد أو واحدة تقتلها بالحيلة..

- هو ده اللى ها ادبره..

- وحياتك عندى بلاش إنت علشان أنا عايزاك من كله..

... وسكت.. وقام حسن عيد إلى الحمام.. كان يجر قدميه.. وكان بائسا.. كأن كرات الدم فى رأسه قد تقطعت.. ولم تمر غير دقائق قليلة فيها إرتديت ملابسى لأذهب إلى بيتى حتى سمعت إرتطاما قويا وصرخة آه.. آه.. خلاص، وهلعت إليه فإذا بجثة هامدة تسد الباب الصغير ورأسه تقع فى أول الطرقة وقدماه ممتدتان فى داخل التواليت.. لطمت خدى ورأسى وانكفأت عليه صائحة والدموع تغرق وجهى.. يالهوى.. يالهوى ياخويا.. وتمكنت من كتفيه واحتضنتها بذراعى وجررته بصعوبة بالغة نحو الغرفة.. كان ثقيلا مثل شيكارة رمل وحاولت أن أرفعه فوق سريره فلم أستطع، انكفأت فوق صدره أفتش عن أنفاسه وأقلّب فى رأسه وذراعيه فلم أجد أى شئ.. كان جثة هامدة لاحراك فيها بحثت

عدة مرات عن نبضه حتى يئست.. لم أجد غير رجل كان حيا ومات.. مات حسن عيد الرجل الذى جعلنى أعيش.. فماذا تكون حياتى بعده.. ليته مات على صدرى.. ليته قال كلمة واحدة.. ليته أطلق هفأة الموت وأنا أحضنها من بين شفتيه.. مات مرة واحدة وفى دقيقة قبل أن أصل إليه وربما مات وأنا أجره بصعوبة إلى الغرفة.. إرتميت على صدره أبكى طويلا وأقلبّ فى ذراعيه.. وأقبله فى جبينه وأطبع على شفتيه قبلة الوداع الأخير.. لاحراك ياحبيبى.. لاحياة إنما الموت الشديد الذى أخذك.. ورفعته قليلا لأضع رأسه الكبير على صدرى وبين كفى.. وشعرت بأن حياتى كلها تذوب وتنسحب وتموت.. وقفلت عينيه برقة بالغة.. وتمنيت لو كنت طاهرة وقرأت عليه من كتاب الله شئ.. ولكن قدرى أننى الآن لاأعرف هذا الطهر. وفردت ذراعيه بجانبه ورفعت قدما فوق الأخرى.. وفرشت فوقه ملاءة.. ثم قعدت أبكى وأولول وأتشنج.. وبعد وقت ليس بقليل تجاسرت وجففت دموعى وقمت لأجمع أشيائى حتى لا أترك أثرا .. تحقيقات وفضيحة.. لابد أن أهرب ولايدرى بى أحد.. لكن سوف أخابر أبناءه.. ماذا أقول لهم.. ومسحت وجهى بالماء وربطت رأسى ووجهى بايشارب حتى يتدارى أكبر جزء من وجهى.. كان على أن أقفز من هذا الشارع الذى يقع فيه البيت ولايرانى أحد.. وحاولت أن أسيطر على مشاعرى وأعصابى وقفلت باب الشقة فى هدوء شديد، وفى لحظات كنت أسير فى الشارع الضيق مكلومة أكاد أهوى بقدمى كما يهوى كل من يأخذهم الموت.. لم يرنى أحد.. كل ينصرف إلى حاله.. كل ينكب على وجهه هائما على حياته.. بحثت عن هاتف قرب شارع شبرا الرئيسى حتى وجدت محلا صغيرا تقف فيه إمرأة عجوز.. هاتفت بيته.. ردت علىّ ابنته الجامعية فقلت بصوت محشرج:

- آلو.. منزل الأستاذ حسن عيد..

- أيوه..

- بابا ياحبيبتى تعبان أوى فى شقة شبرا.. شقتكم القديمة عارفاها.

- طبعا عرفاها.. يالهوى بابا فيه إيه..

- المهم تروحوا دلوقتى ضرورى.. أنا جارتكم وهو مش قادر يتحرك..

- إزاى فيه إيه.. ياحبيبى يابابا..

- إسمك إيه ياستى..

- يابنتى روحى لبابا دلوقتى حالا ولما تيجى هاتعرفى أنا مين..

وقفلت السماعة.. وكم كنت أحزن إمرأة فى هذا العالم .. وأخذتنى قدماى الواهنة

أمشى فى شارع شبرا الرئيسى حتى وصلت إلى شارع الخلوصى، كنت أبكى بدموع غزيرة ساخنة.. تمنيت أن تدهسنى عربة أو يمر المترو فوق جسدى يمزقه.. كنت أشعر بأننى لا أستحق غير هذا الجزاء .. ومن محطة مترو روض الفرج ركبت إلى محطة مترو عين شمس..

-٣-

من أين ياتينا الموت ويأخذ أحبابنا.. فى كل مكان يأتى الناس جميعا وفى أى وقت وهم فى غيهم هائمُون.. ورحت أردِّد هذه المعانى مع نفسى حتى أصبحت فى غيبوبة عما يدور حولى وعندما جلست والمترو يمر بمحطة مسرة لمحت وجوه الناس جميعا مظلمة ساكنة.. لأنهم سوف يموتون جميعا ولولا احتكاك العجلات بالقضبان وصوتها الحاد الذى يكاد يخرق أذن الركاب وصدى ينبعث من مكبرات الصوت وأضواء باهرة تكسو الأرصفة وتضفى على وجوه الناس وأرديتهم بريقا خادعا، ولولا قليل من مظاهر أن الحياة مازالت فيها بقية.. لولا هذه البقايا ما نبض أمل حتى ولو كان أجوف تنبض به هذه القلوب المؤمنة لشعب أصيل عاش طول حياته يتألم من ظلم حكامه على مر العصور، وكان الوعى يغيب حتى لايوقفنى الحزن على عشيقى أو يمزق شيئا من الحياة والأمل الباقى فى داخلى وكان علىَّ منذ ضحى هذا اليوم أن أعشق غياب هذا الوعى حتى أنسى هذا الحدث الأليم وكان لذيذا أن بلغ بى تيهى ان يأخذنى المترو حتى محطة المرج الجديدة.. وعدت فى نفس المترو إلى محطة عين شمس.. وكان علىَّ أن أمر من خلال طابور من المتسولين والمتسولات حتى وصلت إلى شارع عين شمس.. وركبت تاكسيا إلى بيتى الذى وجدت فيه زوجى مندمجا فى مشاهدة أحد أفلام الڤيديو.. واستقبلنى بحرارة كالعادة غير أنه لاحظ آثار البكاء فى عينى فقال وأنا أخلع ملابسى أمامه:

- ماذا بك يا أميرة عين شمس..

واستدرت نحوه بعد أن ارتديت جلبابا غامقا وقلت وأنا أرمى بنفسى على مقعد:

- صاحب الشركة مات..

- يانهار اسود..

- إسود واسود..

- يعنى إيه..

- الخير دا كله هايقف

- ليه مش له أولاد وزوجة..

- مالوش..

- موظفين..

- مافيش موظفين.. أنا كنت الموظفة الوحيدة..

- يعنى كان الشغل ماشى إزاى..
- فى قوضة..
- إنت وهوّ بس..
- أيوه..

وسكت قليلا وراح يهز رأسه لكنه قال وكأنه قد باع شيئا فى داخله منذ مدة:

- كله شغل.. أنا عارف وساكت.. أنا ماكنتش ندل قبل كده.. لكن الزمن خلّانى ندل والحاجة خلتنى معرّص.. شوفى هاقولك من الآخر مش هاتكلم عن الرجولة والأصول.. تعالى نروح لأى شريف فى البلد نسأله عن حل..
- مافيش شريف فى البلد.. هناك شرفاء.. الشعب كله شريف.. لكن الشريف مش موجود..
- المفروض يبقه فيه شريف..
- إذا كان الشريف سرّقوه وكسروا عينيه.. اللىّ كان ممكن يبقة شريف ويعدل حال البلد.. عكّموه.. مش قادر يقول لأى حرامى إنت بتعمل كده ليه.. كل الناس سابت على بعضها..
- هو فين الشريف.. ده مش فاهم..
- صدقنى أنا وتهانى خيرة هذا الشعب.. وعلى فكرة فيه ستات كتير من الهيئة عملت زى ما عملنا.. يعنى كنا هاننزل الشارع نبيع إيه.. إذا كان الشرفاء اللى تحت شوف البلد بتعمل فيهم إيه..
- إنتم بكرامتكم ولاحد يقدر يقول لكم تلت التلاتة كام..
- إنت عارف كل حاجة..
- أنا جبتها من الآخر.. لكن المشكلة وبعدين وآخرتها ايه.. وولادنا هاتعمل إيه بعد كده.. إحنا رايحين فين..
- مالناش دعوة بغيرنا..
- مش فاهم..

يعنى أنا ها أعمل ايه بعد ما صاحب الشركة مات..

- زى ما عملتى قبل كده..
- أنا جبت صاحب الشركة اللىّ مات من ميدان روكسى
- خلاص إنزلى روكسى..

وراح يضحك بصوت عال ولما سكت قال:

- ما فيش حته تروح فيها الرجّالة تجيب منها فلوس..

- الرجالة غلابه,مالهمش حاجة علشان ينزلوا بيها..

- ياخوفى من بكرة

.. ونمت هذا اليوم نوما عميقا محزونا ولما قمت من فراشى قبل أن يحل ظلام الليل كان شئ غريب فى رأسى كأنه إنفتح.. لكن فيما نخشى الكلمات الصريحة.. فيما نخشى الصدق على أن ننحرف،وأين العار إذا كنا قد عشنا مع الطهارة طيلة حياتنا وكنا قوما محترمين حتى نزلت إلى هذا الميدان لأجد رجلا أبيعه جسدى، إننى حتى الآن مستعدة أن أنزل كى أغوص فى بحور الطهارة إذا وجدت لى أيها الذى تلومنى بديلا من عمل شريف أو حقير حتى أعيش حياة دون أن أشحذ أنا وأولادى،والغريب أن زوجى إتفق معى وأنه إرتدى معى ثوب البغاء كى نعيش فى هذه المدينة وأنا على يقين أن نصف هذه المدينة قد لاذوا بالسكون والصمت، لكن كل رجل وإمرأة يخفي سره وأن مكنون الكلمات الحقيقية التى تعبِّر عما نفعله يختبئ فى داخل صدور تكاد أن تنفجر من كثرة الكذب .. منتهى الفجور والتخلف ياسادتى أن نقول لأنفسنا ولغيرنا نحن تمام.. كل حاجه زى الفل..

.. لماذا ندعو الكلمات الصادقة أن تموت فى الليل والنهار وأن ندفن رؤوسنا فى الرمال، مئات الأسئلة والإجابات التى تضيع وقتنا وحياتنا هباء، أنا ياسادتى وزوجى إختصرنا الطريق إلى الهاوية، وهل هى هاوية أم حقيقة حياة إنحرفت عن مسارها والناس تواجهها لأنها واقعة، أنا ياسادتى وزوجى لانخبئ كلمات صادقة وإتفاقنا كان لمواجهة حياة صدّروها إلينا قوم الفاسقة، لاتحاسبونا ولاتكلّمونا ولاتلومونا لكن إضربوا برصاص قاتل هؤلاء الذين قدّموا لنا تلك الهاوية.. أعتقد أنكم قد فهمتم وكفانا حديث النفس والتكرار وتعالوا لنرى كيف تعيش بلادى داخل جدران متهرئة.. قفلت غرفتى على نفسى ورحت أتزين بملابس البيت بعدها إرتديت ملابس داخلية خليعة ولما استكملت ردائى قبّلت زوجى قبلة بريئة من جبينه ورجوته أن يدعو لى فقال وأنا أنفلت من باب الشقة إلى روكسى حبيبتى:

- روحى الله يفتحها عليك بالتوفيق علشان العيال..

وكالعادة إبتلعتنى شوارع الحى الراقى لكن هذه المرة كان لى خبرة فى كيفية إختيار الرجل المناسب، وكنت أقف وقفة خليعة أمام فاترينات المحلات أعمل كأننى أدقق

الإختيار.. واعترضنى كثير من الشباب يعاكسونني.. تحت أمرك.. إيه الجمال ده.. عايزة تشترى إيه.. أنا عندى مكان قريب واللى إنت عايزاه.. ولكننى كنت أنظر إليهم بالإشمئزاز وكنت أقرّعهم وأوبخهم .. إننى أريد رجلا كبيرا ناضجا عنده إمكانيات.. مش هاعيِّل.. كان ذلك الذى فى رأسى.. وفى كل الأحوال لم أستظرف واحدا من هؤلاء الشباب ثم ماذا فى جيب شاب صغير.. وفى الحقيقة مشيت كثيرا وتعبت من الوقوف أمام الفاترينات وملت التطلع إلى وجوه الرجال، لم أجد فى شوارعى هذه مأربى هذه الليلة وشعرت ببعض اليأس يسرى فى داخلى..

وأخيرا أخذتنى قدماى لأقف أمام بنك الإسكندرية كى أركب تاكسيا إلى البيت.. وقفت وقتا طويلا لم أعثر فيه على تاكسيًا، كانت العربات تأتينى محملة بركابها، وشعرت بالقرف فمشيت فى اتجاه الميدان ناحية عمر أفندى ثم توقفت بجانبى فجأة سيارة ملاكى فاخرة بى إم دبليو وإذا بصاحبها يدعونى فى كياسة كى أركب مشيرا بذراعه وهو يفتح زجاج المقعد الأمامى قائلا:

- تفضلى ياسيدتى.. تفضلى

.. ابتسمت وفى لحظات تقدمت نحو بابه المفتوح وقعدت بجانبه قائلة فى رقة:

- مرسى.. مرسى أوى تعبتك..

- لا.. تحت أمرك..

- إنت جيت لى منين..

- من السما.. من أى جته تعجبك..

- نص ساعة ما فيش تاكسى..

- حرام واحدة زيّك تركب تاكسى..

- الناس الغلابة تركب إيه..

- واحدة بجمالك تركب بودرة على الأقل..

- إزاى واحنا مش عارفين ناكل..

- إسمك إيه ياست الكل..

- سهير..

- بتشتغلى..

- رئيس قسم فى هيئة حكومية..

- مؤهلك..

- بكالوريوس تجارة
- بتاخدى كام..
- كله ستميت چنيه..
- وجوزك..
- مهندس بطّال..
- يعنى إيه..
- بيدور على شغل من سنتين مش لاقى..
- تشتغلى عندى..
- فين..
- فى شركتى..
- شركتك نشاطها إيه..
- صناعة الأدوات الكهربية..
- أشتغل إيه..
- سكرتيرة..
- أشتغل بالليل بس..
- زى ماتحبى..
- ينفع شغلى يبدأ من الساعة أربعة مساءا..
- أوى.. لغاية كام..
- زى ما إنت عايز..
- أنا باقعد ساعات أنا ومدير أعمالى نشتغل فى المكتب لغاية الصبح..
- ماعنديش مانع..
- وجوزك..
- دى مشكلتى..
- هاعملّك غرفة نوم صغيرة لما نسهر تحبى تريحى شوية.. هاريحك أوى..
- أنا عايزه إيه أكتر من كده.. بكام يابيه..
- ماتشيليش هم الفلوس.. وفيه مثل بيقول على أد العرق..
- إسمك إيه يابيه..
- أسامة كمال..

- أسامة بك كمال..
- إيه رأيك تتعشى فى أى حته تعجبك..
- أنا مش عارفة الحتت..

.. ودخلنا مطعما فاخرا على النيل فى حى المنيل وتناولنا الكباب بناء على رغبتى حتى أتذكر أيام حسن عيد .. وكان الرجل لم يتجاوز أوائل العقد الخامس من العمر وسيما أنيقا له وجه أبيض جذاب ولكن تفوح من فمه رائحة الخمر.. ولما قلت له كمنى عن نفسك كان حديثة طويلا حيث قال:

- ولدت من أب وأم لهما أصل ريفى عريق.. كانت أمى غنية تنتسب لعائلة أحد البشوات فى محافظة المنوفية ورثت عن أبيها خمسين فدانا من أجود الأراضى الزراعية وكان أبى من عائلة غنية أيضا وورث عن أبيه خمسة عشرة فدانا باعها وجاء إلى القاهرة وافتتح محلا لتجارة الأدوات الكهربائية، لى شقيق واحد .. كان أبى يلبى كل طلباتى وأنا طفل وعندما كبرت كنت حادا فى طباعى حتى مع أبى وأمى.. بعد ذلك أخذت الثانوية العامة وقام أبى بتسفيرى إلى أمريكا للحصول على شهادة جامعية من هناك ولكننى قضيت فى أمريكا عاما واحدا ثم عدت إلى مصر دون أن أكمل تعليمى.. كان أهم شئ فى حياتى الفلوس والمستات بعد ذلك حدثت مشاكل كثيرة بينى وبين أخى الأصغر كانت تأخذ أبعاد حادة بلغت التشاجر بالأيدى، ورأى أبى بعد ذلك أن يقسّم الثروة بيننا ويظل هو مستقلا فى تجارته وظلت أرض أمى مشاعا بيننا أقمت بعد ذلك مصنعا للأدوات الكهربائية على أرض أمى، وبدأت بعد ذلك أتوسّع فى المصنع عن طريق الإقتراض من البنوك كما يفعل الناس منذ أوائل الثمانينات.. وسكت قليلا ولم أريده أن يطيل أكثر من ذلك فلقد عرفت الكثير عنه وقلت له وأنا أتفحصه مليا:

- متزوج..
- لا..
- لماذا وقد تجاوزت الأربعين.. ألا تحب أن يكون لك إبن أو إبنة..
- لا أحب الأطفال.. أحب أن أعيش حرا..
- ولكنك.. وسكتُ برهه ثم طفقت قائلة:
- وهل ستظل كذلك..
- على فكرة.. أنا أتزوج عرفى وعندما تحمل المرأة أجهضها..
- تتزوج من أسُر..

- أتزوج فنانات..
- معروفات..
- تزوجت من الراقصة يسرية ومن الممثلة هيام ثم تزوجت من راقصة مغربية أخذتها من الملاهى.. وحاليا أنا متزوج من المغنية الشهيرة رانية وهى عربية..
- أعرفهن جميعا.. الآن أدركت سبب أن زوجاتك يوافقن على الإجهاض لأن هذه هى عادة كل النساء اللائى يشتغلن بالفن..

... وسكتُّ ولاذ الرجل بالصمت ثم راح يتجرع الخمر.. وبدأت أخاف إنه رجل يعيش حياته بالطول والعرض.. ورحت أتأمل المطعم ورواده، كلهم بهوات ونساء شبه عاريات وأنا الوحيدة من الشعب.. مازلت أرتدى ثياب الحشمة.. دقت الساعة منتصف الليل فقلت له ممتنة:

- هل تسمح لى بالذهاب..
- فقال ورأسه تترنح قليلا:
- لما لاتقضى الليلة معى..
- هل هذا ضمن برنامج عملى..
- اعتبريه ضمن البرنامج..
- تحت أمرك. هانروح فين..
- شقة فى المعادى..

.. ولما دخلت بيته.. كان فيه كل شئ. طعام.. ملابس نسائية جديدة ومستعملة.. خمر.. بارفانات حريمى ورجالى من كل نوع.. كنت كمن تعيش فى الخيال.. فقلت له بعد أن تزينت وإرتديت ملابس داخلية جديدة من دولابه كما أمرنى.. قلت وأنا أقبل عليه فى فراشه..

- أنا خايفة
- من إيه
- واحدة زيى عبيطة هاتديك إيه - آجى إيه جنب أى ممثلة أو راقصة..

والغريب لمّا اقتربت من وجهه وجدت فى عينيه دموعا فقال وهو يشدنى من شعرى ودمعتان تسيل على خده:

- إنت ست تانية خالص.. تعرفى إن جسمك أحسن منهم بكتير
- ياريت

ورحت أداعبه قدر إمكانياتى.. وسعد بى فى أول لقائى به، ولما انتهينا بعد أن صال وجال راح فى نوم عميق وغطيته فانقلب على جنبه وهو مازال فى ثباته ولما اطمأننت عليه ذهبت إلى الحمام أخذت حماما دافئا وارتديت ملابسى الداخلية التى جئت بها وتركت الأخرى فى الحمام، ورحت أتفحص حبوبا كانت مبعثرة حول قنانى لعطر.. أنواع متعددة من الفياجرا والكامجرا، وأدركت كما تعودت أن أدرك معه فى هذه الليلة كيف كان فحلا يحتاج إلى إمرأة أخرى كى يفرغ ما فى بوهيميته.. كانت الساعة تقترب من الخامسة صباحا.. نمت إلى جواره حتى الضحى.. بعدها أيقظته فقام وراح يقضى حاجته فى الحمام ولما جاءنى فى غرفة النوم وجدنى أجلس على مقعد وقد إرتديت كل ملابسى فقال متبسما:

- إتبسطت..
- أوى .. وإنت؟
- هايلة..
- عايزة أمشى يا أسامة بيه..
- خلاص إتفقنا هاتيجى إمته..
- لغاية دلوقتى ما عرفش فين الشركة..
- الشركة فى شارع شامبليون.. هاكون هناك الساعة خمسة على المغرب..
- عنوانها..

.. ناولنى كارت فيه كل تليفونات الشركة والعنوان وقام إلى دولابه يقلّب فى ملابسه ووضع شيئا فى جيب بنطاله ثم قعد بجانبى وقال وهو يضع فى يدى كتلة من النقود الورقية:

- هذا عربون. عربون أول شغلنا..

... كدت أطير من الفرح وقلت وأنا امسك بكف يده وأنحنى عليها كى أقبّلها.. وتركنى أقبلها كما يقبل العبد يد سيده..

******

.. فى البيت لم أجد زوجى.. ويبدو أنه ذهب ليأتى بأبنائى من المدرسة وحان موعد آذان الظهر فتذكرت عملى وأنه يجب على أن أخبرهم بأجازة عارضة وهدتفت الهيئة، بعدها أيقنت بأن هذا العمل يفيدنى فى المعاش فقط عندما أكبر وأصبح غير قادرة على العمل فى القطاع الخاص.. وارتميت فى فراشى من شدة التعب الذى ألمّ بى فجأة ونمت حتى

الثالثة والنصف ولما كنت مازلت مسترخية فى سريرى جاءنى زوجى متلهفا وقال وهو ينحنى علىَّ ويقبلنى من جبينى:

- عملت إيه ياجميل..
- ما هى باينه يا عبد الحميد طول الليل برَّه يبقه إيه..
- إشتغلت طمنينى..
- صاحب شركة كبيرة.. أكبر من الأول بكتير..
- أهم حاجة المرتب كويس..
- ربنا كريم إدعى لى..
- هاتنزلى النهاردة..
- ضرورى دا أول يوم شغل رسمى..
- أجهز الغدا..
- ضرورى.. عملت ايه..
- فراخ وملوخية..
- والأولاد..
- أكلوا ولسه نايمين
- خللى بالك منهم «عايز فلوس»
- ياريت..

«إنصرف ليجهز الطعام فدخلت الحمام لأستحم كى أرتدى أرق الملابس وأتعطر بأحدث عطر إشتريته من عمر أفندى، إرتديت ملابس خليعة رغم أننى مازلت أضع الحجاب فوق رأسى، ونزلت من بيتى فى الخامسة والنصف وركبت تاكسيا إلى شارع شامبليون.. كانت الشركة تتوسط ميدان صغير أمام محل للكشرى، المبنى قديم من طابق واحد علقت على بابه يافطة مكتوب عليها «شركة الهويدى للأدوات الكهربائية».. صعدت سلّما عريضا من الرخام حتى أصبحت فى مواجهة مكتب كبير أمام الدرج تتوسطه ثلاث فتيات جميلات ينشغلن بالرد على الهاتف، وكان هناك حارسان ضخما الجثة يسألان كل من يدخل حرم الشركة عن إسمه وماذا يريد وهل هناك موعد سابق وكان كل منهما زائغ النظرات، وأخبرتهما فى جملة واحدة:

- عايزه أسامه بيه «إسمى سهير» فيه موعد سابق..

ورد كل منهما فى صوت واحد!

- أهلا يافندم دقيقة واحدة

ودفع أحدهما باب غرفة كبير على يسار مكتب الفتيات اللائى أراهن وقد تزين في شياكة بالغة.. وكانت كل واحدة منهن قد كشفت عن صدرها «الأكتاف حول الرقبة» تفضح جمال جسد طرى بشكل فاتن.. كما يقولون بنات على سنجة عشرة.. وشعرت بالتحدى وأنا أقف أمامهن، وقطع علىّ الحارس فرصة التأمل فيهن حيث جاءنى قائلا:

- إتفضلى سعادتك..

ودخلت خلف الحارس الذى يظهر كثيرا من الحفاوة.. وأقعدنى فى ركن بعيد بالغرفة الكبيرة، كنت أشعر بالتحدى لمجرد أن بالشركة فتيات كثيرات جميلات والعينة كانت فى المدخل.. إذا مالذى بداخلها.. كان الباشا يقعد إلى مكتب وأمامه رجلان يجلسان على جانبى المكتب.. ولوح لى بكف يده مرحبا وبادلته التحية فى خفة بالغة وأنا أرسم إبتسامة رقيقة فوق شفتى فأحنى رأسه ممتنا وسعدت بذلك كثيرا وراح قلبى يدق مبتهجا وأنا أتأمل تلك الغرفة الواسعة.. عدة أركان للجلوس.. صالونات مذهبة وانتريهات وثير ومكتب البيه تصعد إليه بدرج من الرخام، وخلف مكتبه حمام ومطبخ وباب مقفل كتب عليه أرشيف.. ويبدو أن هناك مشكلة فى تحصيل الشيكات.. وكانوا ثلاثتهم يتناقشون بصوت عال والبيه يشخط فى الرجل الذى على يساره قائلا:

- وحياة أمك هاتدفعه الشهر الجاى

.. وكان الرجل الآخر يقرأ فى الأوراق ويحاول تهدئة البيه قائلا:

- شوية ياباشا.. شوية.. إمكانياتك إيه ياجرجس..

ويرد جرجس وهو يهز رأسه كاظما غيظه:

- المبلغ على عشرين شهر .. مافيش بيع ولا شرا..

ويشتمه البيه بألفاظ نابية وهو يضرب بقبضته على مكتبه..

فيقول جرجس وقد بان على وجهه كثير من النفور:

- عيب يابيه أنا تاجر مش من الشارع «بلاش الشتيمة»

ويشعل أسامة بيه سيجارة ويسحب منها نفسا فى عصبية وينظر إلى الرجل الذى على يمينه ويقول:

- خلّص ياشريف أنا خلاص زهقت من الناس دى..

ويرد شريف بهدوء وقد علا وجهه ابتسامة رزينة:

- ياباشا.. معلهش السوق فعلا وحش.. وجرجس عميل غال عندنا هانريحه شوية

بعد إذنك.. ويرد أسامه بيه بضجر:

– يعنى دى بضاعة ولاّ تراب

فيقول جرجس محاولا الحصول على ميزة التأجيل:

– والكنيسة أنا صادق معاك.. على فكرة البضاعة فيها عيوب كبيرة وبنحاول نداويها.. خليكوا معانا، ريحونا المصلحة واحدة..

ويهز شريف رأسه وينظر إلى الباشا كأنه يقول له نريّحه.. فأومأ الباشا برأسه كأنه يقول له أوكيه.. ويقول شريف وهو يبتسم كعادته إبتسامة رزينة:

– على سنة ونص ياجرجس

– سنتين يا أستاذ شريف.. علشان كل شهر آجى أدفع العشرة آلاف وفوقهم بوسة .. ولاذوا بالصمت و.. وتبرمت شفتا البيه وقال كعادته بتحد:

– وحياة أمك لو شيك رجع لأخرب بيتك..

وابتسم جرجس إبتسامة عريضة وقال بعد أن اطمئن للجدولة الجديدة

– صدقنى يابيه أنا بلبّس طاقية ده لده.. ماتعرفش ماشية إزاى.. البلد حالها واقف..

وراح الأستاذ شريف يكتب الشيكات وجرجس يوقع بعد تحرير كل شيك.. ووضع الاستاذ شريف الشيكات فى جيب الملف ووضعها أمام الباشا الذى راح يتفحصها مليا وبعد أن انتهى أشار بيده نحوى وهو يهمس إلى شريف الذى أحنى رأسه وابتسم وقال:

– حاضر ياباشا.. تمام.. كده تمام.. هىّ دى الست.

– أيوه.. هاتمسك محفظة أوراق القبض.. شيكات وكمبيالات.. وهىّ اللّى هاتّابع مع البنك بس خلّيك معاها فى كل كبيرة وصغيرة حتى تعرف كل حاجة..

– حاضر .. تحت أمرك

– خدها معاك لمكتبها.. مكتبها جاهز هاتكون معاك.. وبعد ماتقعد معاها وتعرّفها كل جوانب شغلها تعال وهاتها معاك على الساعة تسعة نقعد مع بعض على رواقة..

.. وقبل أن نخرج من غرفة المكتب تجمعت السكرتيرات الجميلات حول مكتبه.. كن يقفن حواليه وكانت كل واحدة تتمايل يمنة ويسرة كأنهن عارضات أزياء.. وكان الباشا منسجما وراح يضرب الفتيات بكف يده ملاطفا على صدرها وهذه مداعبا بطنها والثالثة ممسكا بمؤخرتها.. كانت نادين من شبرا. وأحلام من الجيزة ودعاء من العباسية هكذا أخبرنى شريف وأنا أسير معه فى الردهة الطويلة حتى وصلنا إلى غرفته التى فيها أجلسنى على مكتبى وراح يقدم لى الدفاتر والتقارير .. وكيف يتم معالجة الشيكات

الواردة ومتابعتها مع البنك حتى يتم تحصيلها .. كان شريف لطيفا جدا معى حتى أننى تحيلت فى هذا اليوم الأول أنه يريدنى .. بيرسم من بعيد .. ودمه خفيف وتقيل .. كانت علبة سجائره من الذهب وكذلك ولاعة السجائر وساعته والقلم الذى يكتب به .. يالهوتى أنا فين .. وفى أثناء تسليمى الأوراق كان شريف يقول دائما .. أنا تحت أمرك .. اللى مش عارفاه قولى إحنا هنا فى مركب واحدة .. وكان فى الغرفة ثريا مضاءة كثريات القصور، وكان واضحا أن شريف قد تمتع فى طفولته وشبابه بحياة ناعمة .. كانت شفتاه تسمعان بلونها القرمزى كأن نورا أضاءها أو أحدا غطاها بطبقة من زبدة الكاكاو .. وكنت أتأمل كل شىء حولى .. آثار الغنى والرخاء ومظاهر الثروة كلها فى هذا الرجل الذى سامى والذى يقوم ويقعد على مقعد بجانبى ليسلمنى أوراق ويشرح دورة العمل الذى سأقوم به .. كان عطره نفاذا وحديثه مهذبا وكلماته رقيقة تحمل غزلا راقيا .. وكنت أشم رائحة غريبة تفوح كلما أخذ نفسا عميقا من سيجارته وطفقه من بين شفتيه أو من فتحات أنفه، أهى سجائر بها بخور .. لكن بعد أن مضى وقتا كنت فيها إحتسيت الشاى والقهوة قال وهو يستريح على مكتبه :

بتدخنى ..

- أجرّب ..

.. وقام وقد علت وجهه إبتسامة عريضة وقال فى أدب وهو يقدّم لى سيجارة من علبته الذهبية :

- هاتعجبك أوى ..

- مرسى ..

كان علىّ أن أتخلى عن كل ما هو شعبى ... أقصد الألفاظ العامة .. شكرا . ياختى ياخويا .. كل الكلمات الدارجة والغشيمة والتى كنا نتكلم بها فى الهيئة أو فى حيّنا الشعبى أو فى بيتى مع زوجى .. كان علىّ أن أتجمل .. بكل ما هو رقيق .. مع هذا الرجل ومع أسامه بيه .. حتى ينبهر هؤلاء الناس حولى فى هذا المكان الثرى .. ولما أشعل سيجارتى من ولاعة سجائره الذهبية إنحنى حتى كاد جبينه يلامس حجابى فوق رأسى فسعدت لذلك وأمسكت بكف يده .. بل أطبقت عليه فى لحظة إشعاله السيجارة التى تتحلى بها شفتى .. ورحت فى لذة متناهية أسحب من هذه السيجارة حتى دارت رأسى قليلا كأننى أتغذى بشىء غريب لذيذ يتيهنى ولكن شعرت كأننى أسبح مع رجل فى غابة من دخان تنتشى له الرأس .. ورحت أنظر إليه بعينين صريحتين جريئتين تخلت

عن الخجل.. رحت فى شرامة أكاد آكل وجهه وأشتهى شفتيه.. وقلت لنفسى وكلانا يتأمل الآخر ويتخيله ويشتهيه .. لم لايكون لى مكان قوى فى هذه الشركة خاصة وأن صاحب الشركة قد وصلت معه للآخر وهذا شريف فتح لى سكة.. إسمحوا أقول لكم ياسادة أن شريف هذا يعجبنى فى طريقته الجميلة فى التودد إلىّ وأنه سحرنى بوجهه وشفتيه وأعطانى فرصة لتأمله ولم يمر وقت آخر أمتعنى فيه بسيجارة ثانية وبدأ حديثا آخر قائلا..

– هوَّ دا الحشيش

– ياخرابى ياشريف بيه دا هايل.. هاتخلّيتى آخد عليه..

–ولايهمك.. إنت هاتكونى معايا على طول..

– إزاى.. وضحكت بميوعة.. ضحكة أسكرته فيها تخيل كيف تكون امرأة تتدلل.. مثل ماتخيلت وانتشيت وأنا أدخن سيجارة الحشيش.. وقال بعد أن بدا على وجهه كثيرا من الراحة:

– ياستى شغلك معايا.. متابعة العملاء وشيكاتهم.. وقرفهم ومتابعة البنوك

– طالما فيه شغل يابيه أنا تحت أمرك ليل ونهار.. وهى مين يكون لها الحظ وتشتغل مع واحد زيك.. كنت أريد أن أقول له.. أنا أحبك من الآخر.. ماقيش وقت نضيّعه..

– كدهَ أنا مرتاح ليك أوى يامدام سهير.. هاتعمل شغل كويس..

... وجاءه رنين الهاتف ورفع السماعة ويبدو من سياق الحديث أن الذى يكلمه هو أسامه بيه.. حيث كان شريف يقول ردًا عليه:

– ألفين على طول – طيب نستنى شوية.. خلاص ياباشا.. لازم أكون معاها.. علشان العملاء الكبار.. والبنوك طبعا.. خلاص إنت مالى إيدك أوى منها.. على العموم هىَّ باين عليها.. هاتعمل شغل.. عايزين نعدّى.. التهاردە خلاص.. أنا معايا فى الخزنة..

ووضع سماعة الهاتف ثم ركن رأسه على قبضته وراح يفكر قليلا ثم قال:

– هانبتدى بالعملاء.. فيه منهم بييجى المكتب والعملاء الكبار أوى هانروح مكاتبهم.. المعرفة الشخصية بالعميل مهمة جدا.. ممكن الشركة أى شركة تترفع من عميل واحد كبير فى البلد.. يقول لك إيه يامدام سهير لعلمك العملاء دولت مش متعلمين لكن معاهم فلوس زى الرز.. واحدة زيك لما تتعامل معاهم هاتجيب التخين منهم.. فاهمة ولا..

– لأ فاهمة.. أنا هاعمل المستحيل علشان خاطر الشركة دى..

– علشان كده إحنا عايزينك.. جميلة وفيك الجمال.. وأهم حاجة عندك الذكاء.. عانشوف وعلى فكرة أنا هاخطط لك تتعاملى مع كل عميل إزاى.. وكذلك رجال لبنوك بأسمائهم بشخصياتهم..

– نتعلم.. نتعلم منك.. وواحدة واحدة ياشريف بيه..

– بس أنا ليَّه طلب وده طلب الباشا برضه..

– إيه هو؟..

– إقلعى الحجاب

وفى لحظة عملت كأنه طلب منى شيئا صعبا.. لكننى سرعان ما تساهلت قائلة :

– هاخلع الحجاب قبل ماندخل للعميل..

– لأ قبل ماتدخلى الشركة.

– ماقدرش أطلع من بيتى والجيران وجوزى والشارع دى حتة شعبية أوى من غير الحجاب.. أنا تحت أمرك بس إزاى .. .. هايقولو قلعت الحجاب ليه..

– الحل موجود مافيش مشكلة.. بكره هاقولك..

.. ومرت لحظات راح كل منا يفكر وهو على مكتبه، وقطع شريف هذا التفكير قائلا وكأنه اتفق على شئ:

– شوفى ياستى هاقولك من الآخر.. هاصرف ليك مبلغ دلوقتى تشترى بيه أفخر الثياب ليكون مظهرك أوفر أوى.. التجارة بتاعتنا عايزة حاجات تانية حلوة ومؤثرة، حاجتين نلعب بيهم جذب العميل وتخدير رجل البنك.. إنت هاتكونى هذا السحر..

.. وكنت أبحلق فى وجهه مندهشة للترتيب والتخطيط الذى وصل إليه مع صاحب الشركة، وأومأت برأسى بالموافقة عدة مرات، وابتسم ابتسامته الساحرة، واستدار بكرسيه الدوَّار إلى الخلف وتحرك إلى خزينة صغيرة وفتحها وأخرج منها نقودا ورقية ثم قفلها ورجع إلى مكتبه وهو يمسك النقود بين كفيه وقال وهو يرميها أمامه فى جدية بدون أن يبتسم كعادته:

– جه وقت الجد .. معاك بطاقة..

– أيوه..

– هاتيها..

وراح يكتب ورقة بيضاء بصوت عال.. الإسم..العنوان.. رقم البطاقة.. رقم هاتف المنزل والعمل.. عنوان العمل وبيانات أخرى كالخبرات والهوايات وأبلغته أننى أكتب

الشعر والقصص.. خاصة عندما كنت فى الجامعة، وأنتى الآن أكتب مذكراتى اليومية فقط.. وطالب السكرتيرة فى الهاتف لتصوير البطاقة وكارنيه العمل وكارنيه نقابة التجاريين، ووضع كل هذه الأوراق فى ملف، غير أنه أخبرنى بضرورة إحضار صورة من شهادة الميلاد وعقد الإيجار وإيصال الكهرباء والتليفون.. ولما انتهى قال:

– قلتا إحنا دخلنا فى الجد.. دول تلات آلاف جنيه.. هات فواتير وخلاص إحنا قربنا على الصيف هات الملايس المناسبة.. آجى معاك..

– مرسى .. ماتقدرش تصبر مع الستات وهمّه بيشتروا.. هانزل لوحدى أو مع واحدة صحبتى ماتشيلش هم..

– اللهم خلال يومين تكونى جاهزه..

– على فكره يكره الخميس وبعده الجمعة.. إنتوا عايزينى يكره طيعا..

– أنا نسيت يكره الصبح هاتروحى معايا المصنع.. وبيقه عندك الجمعة أجازة تشترى فيها حاجتك..

– يعنى آخد أجازة من شغلى الصبح وأجيلك على عشرة الصبح كويس

– كويس أوى..

– تعالى هنا واقعدى فى قوضتنا ويفضّل ماتتكلميش مع حد عن أى حاجة يتحصل وإنت مش موظفة عادية .. إنت من الإدارة فوق.. أكيد فاهمانى..

– طيعا طيعا..

.. وجاء هاتف من الياشا وكان شريف يرد باهتمام.. أيوه تمام.. يكره.. على يوم السبت هاتكون على ستجة عشرة.. قولها إنت ياياشا.. خلاص ياريت كله يمشى زى ماحنا عايزين.. خلاص.. يكره رايحين المصنع.. ليه رايح فين.. طيب ماتتأخرش.. باى ياياشا.. ولما انتهى قال:

– معلهش مش كل حاجة حلوة أوى..

– إزاى..

– جوت العادة تكتب على كل موظف مهم شيك على بياض.. وورقة تانية .. وسكت.

– يعنى إيه..

– إنت من الناس المهمة .. هاتعرفى كل أسرارنا.. دا مجرد إجراء جوت العادة عليه.. أنا نفسى موقع على شيك وورقة على بياض..

– دى حاجة تخوف أوى.. يعنى ممكن أروح فى داهية وأنا ماعملتش حاجة خالص..

– لأ أبدا.. أسامه باشا طيب أوى.. ماتخليش موضوع بسيط زى ده يوقف فرحتنا بيك.. هى الفكرة إن المسئول عندنا يكون حذر وحريص على الآ يفتش سرا عن عملنا وشركتنا.. لكن مافيش أى حركة نص كم هاتحصل..

– يعنى رأيك أوافق..

– على ضمانتى..

– أوكيه.. هاجيب على الآخر معاك ياشريف بيه.. على فكرة أنا باثق فيك أوى..

– الثقة دى عندى بالدنيا

– طيب مرتبى كام..

– إتنين ونص..

– ألفين ونص..

– أيوه..

– مافيش مزايا تانيه

– العلاقات العامة اللى هاتنجحى فيها كل حاجة تعمليها تاخدى عمولتها..

– وإيه كمان..

– على فكره ماتسيبقيش رزقك.. دخلك هايبقه كبير أوى لو أديت للباشا وماتبخليش على الإدارة.. اعتبرى نفسك أصل من أصول الشركة..

– يانهار أبيض يابيه.. يعنى أنا آله..

– لأ ما قصدش.. إنت بنت الشركة.. وسكت.. ورحت أفكر .. وعرفت إن كل شىء له تمن.. ووقعت على شيك وعلى ورقة فلوسكاب دون أن يكتب على الورقتين كلمة أو رقما واحدا، وعلى عقد لمدة سنة، وهذا العقد ليس له صلة بالتأمينات وهو عقد معى لضمان العمل لمدة عام حتى أستطيع أن آخذ أجازة بدون مرتب من الهيئة وأنا مطمئنة صحيح مافيش حلاوة من غير نار.. طيب وماله لما نشوف التمن.. ومضى وقت آخر فيه أخبرنى شريف بأن الباشا خرج فى مشوار وسيصل الشركة فى العاشرة وأنه علىَّ أن أنتظره .. ودقت الساعة الثامنة وانصرف الموظفون ولم يبق فى الشركة غير الساعى وفتاتين من السكرتارية.. هكذا علمت من شريف الذى أخذ بعض الأوراق وانصرف وهو يقول:

– أنا فى قوضة اللواء .. عارفه قوضة اللواء فيها ايه..

– لأ مش عارفه..

- فيها الخزنة..
- اللواء ماسك الخزنة..
- أيوه ومعاه بنت بتساعده..
- باحسب ماسك الأمن..
- لما بتحصل أى مشكلة مع الشرطة أو مع الناس.. بنخلّيه يخلّصها..
- لواء شرطة؟
- إنت نسيت.. لواء شرطة.. كان قبل مايطلع على المعاش مدير أمن محافظة من المحافظات..
- المهم أستناك ولا أمشى..
- مافيش هزار فى الشغل.. عشر دقايق جاى..
- وبعدين..
- هانقعد مع بعض لغاية أسامة بيه ييجى..
- على فكرة أنا تعبانة أوى..
- ياست الكل نامى على الكنبة على ما آجى.. الشركة شركتك..

.. خلعت جاكت التايير ودخلت حمام مكتبه ورحت أتهيأ مزيلة تعب النهار من على وجهى بالمساحيق والبودرة ومشطت شعرى وتعطرت بعطرى.. كانت رأسى فى حاجة إلى نوم عميق.. وكان فى تصورى أن الباشا سيأتى فى العاشرة ليأخذنى شقة المعادى.. وكان شعورى الداخلى يؤكد بأننى أتجمل لشريف بيه.. رجلان ويخفق لهما قلبى فى وقت واحد واستعدادى أن أقدم لكل منهما جسدى طواعية طالما يدفع.. إستلقيت على الكنبة فى مقابلة باب الغرفة وتعرّت الجيبة عن ساقى الذى أعرب عن توحشه حتى ظهرت ملابسى الداخلية وكان شعرى الأسود قد ألقى بخيوطه فوق مسند الكنبة العريض وأغمضت عينى وأنا قد بعت .. بعت وأبيع كل شىء من أجل المادة.. وماذا بعد أن وقعت ورقة على بياض.. وفتحت أزرار قميصى فبرز النهدان بقوة فوق صدرى.. وكانت بطنى شبه عارية كالمرآة التى فيها تتعرى امرأة من ثيابها قطعة بعد الأخرى.. ورحت فى سنات من النوم كنت فيها أنتظر شريف وأحلم.. إننى أريده الآن.. ترى ماذا سيفعل عندما يدخل ويرانى.. ولم يمض وقت طويل ودقت الساعة التاسعة ولما خلصت دقاتها دخل شريف وألقى بأوراقه فوق مكتبه وكان منبهرا كأن شيئا وقع على رأسه.. كنت أراه وأنا مغمضة.. قفل الباب بالترباس.. خلع جاكته وحذاءه ثم خلع قميصه واقترب وأنفاسه

تتهدج فوق صدره وجثا على ركبتيه وأمسك بذراعى وانحنى يقبّل يدى بعد أن أمسكه بكفه العريض .. وراح يقبله بلا توقف حتى عملت أننى أستيقظ من نومى فقال وهو مازال يغدق قبلاته التى اقتربت من صدرى وفوق جسدى:

– مش ممكن إيه الجمال ده.. أنا فى علم معقوله.. ياخرابى على دنياك ياسهير..

.. وتركته وأنا أندمج حينا وأرجوه أخرى ألاّ يفعل وكفى.. لكننى كنت ألتصق بجسده حتى صار فوقى وكان جسده صارخا ومثيرا فرضخ كل كيانى لحظة بعدها نصف لحظة.. حتى استسلمت وصرت صفرا بلا إرادة تمنعنى سلّمت له وكنت أئن.. وأصرخ و ستغيث لكن الرجل لم يبال باستغاثاتى المتكررة.. وراح كالوحش يمزق جسدى..

.. بلغت الساعة الحادية عشرة فهاتفت زوجى أطمئنه وأخبره أننى قد أظل فى الشركة حتى الصباح.. .. كنت قد ارتديت ملابسى وجلست فى قبالته مرة أخرى على المكتب نتبادل أعماق الحديث فقلت له وأنا أنفخ دخان سيجارة الحشيش:

– أسامه بيه هايعرف اللىّ حصل..

– لأ طبعا.. على فكره هو أنانى جدا بيعتبر إنت أو أى بنت فى الشركة ملكه ماحدش يبجى ناحيته.. بس أنا باعمل اللى عايزه من وراه..

– إنت متجوز وعندك ولاد..

– متجوز بس مراتى بصفة دايمة فى بيت أسامه بيه..

– إزاى..

– على طول مرافقة أى ست يرافقها.. وعلى فكره هوّ وسخ بيحب الستات الحلوة تكون دايما حواليه..

– يعنى مراتك وصيفة لرفيقة الباشا.. على كده بتاخد كام..

– بتاخد كتير..

– يعنى مش فاضية لبيتها..

– هىّ بترجع بالليل.. ودايما هى فى برنامج يومى مع نسوانه.. وعلى فكرة بتجيب له ستات كمان..

– وإنت راضى..

– الفلوس.. كل الناس عايزه فلوس..

– لكن دى مراتك..

– هىّ عايزه تشتغل ويكون لها قرش مستقل..

- على فكرة إنت نمت معايا ببلاش.. مش أنا برضه واحدة بتحب الفلوس زى كل الستات

-تحت أمرك..هانتفق بعد كده.. ورجع بكرسيه للخلف

وفتح خزنته وأخرج منها باكو.. وقال وهو يضعه أمامه:

- ده كتير .. علشان أول مرة.. على فكرة أنا أول واحد عارف إن كل شىء بالفلوس.. لكن الموضوع ده هايستمر لو سمحت.. إنت حاجة أوڤر أوى.. ست .. ست..

- طيب قدّرنى..

- مرتب شهرى.. إنت عارفه أنا موظف..

- لأ ياشريف بيه.. إنت ماسك كل حاجة.. إنت تعتبر صاحب الشركة..

- فى كل الأحوال هانتفق وهاتكونى مبسوطة

- .. وقاطعنا جرس الهاتف ورفع السماعة إلى أذنه وقال:

أيوه ياباشا موجودة..

- فعلا هى ست جدعة أوى.

- تقريبا فهمت كتير من الشغل.. هانروح المصنع بكره.. هاتكون على السبت إشترت كل حاجة.. على فكرة أنا متفائل بيها أوى.. طيب جايين..

... وفى غرفة البيه قابلنى بالترحاب وقام ليقبلنى أمام شريف.. وكان شريف يعمل كأنه لم ير شيئا عندما كان البيه يقوم من مقعده ليقبلنى بقوة ثم يعود الى حيث يقعد إلى مكتبه.. ويبدو أنه كان مخمورا لأنه يترنح ورأسه تتمايل.. وتحدث معنا عن المصنع وطلب منى أن أكتب تقريرا عن الزيارة ثم قال لشريف:

- إحجز غرفة فى الفندق..

- وانشغل شريف بالحديث مع الفندق.. دقائق، وقال:

- كله جاهز ياأسامه بيه..

- الفندق بتاعى..

- طبعا.. هايكونوا فى استقبالك..

- طيب.. خلاص روّح إنت ياشريف..

وانصرف شريف وبعد قليل نزلت مع الباشا درج الشركة وقد أحاطنا إثنين من البودى جارد حتى ركبت معه الشبح فى المقعد الخلفى وانطلق السائق من بين الحارسين

الذى يقف كل منهما على جانب من السيارة حيث وقفا وقفة إنتباه وكل واحد منهما يضرب تعظيم سلام كأن وزير الجيش ينطلق من ثكناته.. وقال الباشا والعربة تقترب من النيل:

– عرفت الشغل من شريف..

– عرفت كتير..

– عايزك تعرفى كل حاجة بسرعة

– إن شاء الله..

– إكتبى تقرير عن حالة المصنع.. وخللى بالك الناس دى كلها اللى فى المصنع وهنا بيضحكوا علىّ.. عايزك تعرفى ليه وبيسرقونى إزاى.. وإزاى نخفض المصاريف

– معقولة بيسرقوك وساكت..

– عايز أمسك حد منهم..

– حاضر ياباشا.. هامسك..

وقهقه الباشا ولما سكت قال للسائق:

– أركن كويس وتعال الصبح على بعد الضهر خدنى..

– حاضر ياباشا.. حاضر.. الساعة إتنين كويس..

– كويس.. تبقه كلمنى من الاستقبال..

– حاضر .. تحت أمرك ياباشا

... كان حرس الفندق وموظفو الإستقبال قد استقبلونا بحفاوة بالغة وكنت أتعجب وأقول لنفسى اكيد الفلوس هى اللىّ عاملة الشغل دا كله، إن واحدا من أكبر الموظفين فى الهيئة، أو أى واحد من الشعب الغلبان، مش ممكن حتى يقترب من باب الفندق، الحرس والموظفين هايقرفوا منه، صحيح الفقير رحته وحشه، كنت أشعر بأننى عبيطة لأننى أتعجب وأطيل الإندهاش، ولم أكن أتصور وأنا امرأة محترمة عندما كنت فى الهيئة المحترمة، إن هناك عالما آخراً قريبا من هيئتنا يعيش بهذا الرخاء، إن الفقر والحرمان والحاجة تقع فى مبنى، والمال والبذخ والذهب والفتيات العاريات والجنس ينفتح على مصراعيه فى مبنى مجاور، والله ياسادتى أيقنت وأنا مازلت فى أول عهدى بهذه الشركة أنها دولة أخرى، ولا أستطيع أن أحكى ماحدث فى غرفة الفندق الفاخرة بينى وبين الباشا العنيف المريض الباكى، سوف أحكيه فى لقاء آخر سواء كان فى الفندق أو فى شقة المعادى، وكان المهم أننى فى الصباح الباكر، أخذت رزمة نقود من الباشا ونزلت مسرعة

إلى بيتى فى عين شمس مستقلة تاكسيا ولما وصلت بيتى لم أجد أحدا فشعرت براحة نفسية، كنت أتمنى دائما ألا يرانى أبنائى وأنا أعود إلى مسكنى ولكن ذلك لم يحدث إلا قليلا، وماكان يدور فى نفسى تجاه أطفالى إنهم والحمد لله مازالوا صغارا ولايدركون شيئا وأن أباهم يقوم بدور كبير تجاه إخفاء هذا الأمر فهو الوحيد الذى يعرف ويأخذ مرتبا كبيرا منى ويبدو أن كل هذه الأمور قد أخذت فى رأسه سكة كما يقولون.. المهم ياسادتى مهما كانت المرأة منا تقوم بعمل أفعال مجبرة عليها من أجل أن تعيش فإنها فى كل الأحوال ترغب فى الستر ولايعرف أحد عنها شيئا.. وكنت أحاول نفسيا الهروب من واقعى ولكنى إلى أين، وهل هناك واقع أستطيع منه أن أجلب كل هذا المال.. أهناك واقع آخر لإمرأة جميلة وجدت نفسها فى ظروفى، أهناك طريق آخر فى مجتمع بين الرجال وبين أصحاب الأعمال شريف لإمرأة جميلة، أهناك فى بلاد أخرى رجال أعمال شرفاء تستطيع معه إمرأة جميلة مثلى أن تعمل بشرف معهم بدون أن تتعرى لهم، اننى أيها السادة والسيدات فى مصر وكان الفساد يتسع خاصة بعد عام ١٩٨٠ كان الفساد يستشرى فى عظام هذه الأمة بشكل رهيب خاصة عند الذين يملكون السلطة وأبنائهم وأقاربهم وشللهم ومنتفعيهم، بل إن أصحاب السلطة هم الذين صنعوا الفساد وكان باقى الناس يقلدونهم.. فتحالف من بيده المال مع من بيده السلطة واتفقا على سرقة هذا المجتمع وهم رجال وكان معهم نساء بالطبع يملكون المال ولهن صلات قرابة او غيرها مع رجال يملكون السلطة، لم يكن هناك مثل فالكل ياسادتى يعكم ويهبش ويسرق ويجرى ويهرب.. أقسم لكم ورب أطفال هذا الوطن إننى من داخلى امرأة محترمة ولكننى أعترف بأننى سقطت وكل ظروف المجتمع الثلاثية من انهيار سياسى وانهيار اقتصادى وانهيار اجتماعى هى التى أجبرتنى وغيرى من النساء كالطوفان لنفعل هذا أو نندمج فى هذا المجتمع الغريب عن مجتمعنا، وأحيط علمكم أيها المجتمع بكل طبقاته أننى لم أتعلم السياسة من قبل خاصة عندما كنت فى الهيئة لأننا لم نكن نعرف فى هذه الدائرة الحكومية غير الحاجة والفقر، وكنا مستعدين جميعا رجالا ونساءا ألا نخرج من هذه الدائرة أبدا لو توفر القليل من ضمانات الحياة، ضمانات الحياة البسيطة وهى الطعام والشراب، وكان لايهمنى أن أجوع ولكن يهمنى جدا ألا يجوع أطفالى.. فنحن جميعا نزلنا الشوارع نبحث عن أرزاق لأطفالنا، وضعت مثل غيرى لا أعرف قصصهم.. هذه طريقى للعيش فى هذه البلد، ووجدتنى أدخل دائرة الفساد ولا أستطيع أن أخرج منها إلا إذا تغير المجتمع كله من الجذور وأتانا الله بخلق جديد وأفنى هذا الخلق، وإننى أدعو

كل عالمى.. عالمى المصرى أن يأتى ليرانى الآن فأنا أبكى بشدة وبصوت عال بعد أن أخذت حماما باردا وارتميت على فراشى اتشنج من شدة انفعالى.. أعرف انكم لن تستطيعوا رؤيتى ولن تسمعونى لأن كل واحد فى سوقه فلقد تعلمنا منذ خمسين عاما أن نكون فرادى، أقسم لكم وللمرة.. أتمنى أن تكون الأخيرة إننى لست وحدى فى هذه المدينة الكبيرة التى تبكى وتندم وتقول أين المفر أو ما هو الحل.. لقد طفح الكيل وأصبحت قضية الوطن واحدة فى رأس كل واحد وواحدة فى هذه المدينة.. هاتوا الطفل فى المدرسة الابتدائية أقسم لكم إنه سيتكلم عن القضية.. أعتذر لكم عن الخوض فى هذه الامور لكن والله هذا حديث كل الناس فى كل الشوارع والمقاهى والبيوت حتى لموتى فى الليل يتكلمون عنها فى القبور..

.. وفجأة جائنى نزيف مثل كل النساء حين يحزنّ بشدة.. فهل بقى لى حلم.. هل أستطيع أن أحلم والمصائب من فوقى ومن تحتى .. نزيف حاد لم أكن أستطيع إيقافه، وحاولت أن أوقفه بالإجراءات الطبيعية لكل امرأة حتى جائنى زوجى وأخذنى إلى مستشفى سان مارك بالكوربة.. وهناك لم أدر بشىء وفى منتصف ليلة هذا اليوم أفقت وأنا فى سريرى فوجدت زوجى وشريف وتهانى.. كانت وجوههم مثل الضباب وشيئا فشيئا إتضحت لى وجوههم وانكفأت فوقى تهانى تبكى وتحتضنى ثم جلست عند رأسى وراحت تتحسس وجهى برفق، وانحنى شريف وقبّل يدى ثم جلس على مقعد ملاصقا لفراشى وكان زوجى يدخل الغرفة مع الطبيب ثم الحكيمة، وبعد قليل دخل طبيب كبير وأخذ زوجى على مسمع منا.. إنه يفضل أن تبقى الليلة فى المستشفى حتى تستقر حالتها تماما.. فقال شريف للطبيب:

– موافق يادكتور.. أهم حاجة أن نطمئن..

– بكره الساعة اتنين تكون زى الفل وتروح بيتها تمام.. ومافيش داعى للزعل الجامد تانى..

فقال شريف ثانية للطبيب ..

– متشكر أوى يادكتور..

جلس شريف ثانية على مقعده ولكن بعد أن زحف بالكرسى قرب رأسى وقال هامسا وهو يخرج ظرفا من جيبه ويدسه تحت المخده:

ـ دى حاجة بسيطة علشان حساب المستشفى..

وأمسكت بيده وبكيت قائلة:

- معايه.. معايه والله
- عيب .. عيب ياست الكل
.. وشدَّ على يدى مصافحا وقبلها ثانية وانصرف فى أدب جم
وهمست تهانى فى أذنى:
- مين ده ياختى
- واحد من الرجالة بتوعى
- يابختك.. بيحبوك كده
وجعلتنى أضحك من قلبى فقلت لها وأنا أضربها على صدرها :
- ما انت عندك واحد بمليون ياوسخة مش مكفِّيكى الرجالة اللى معاك.. وكان زوجى قد إختفى من الغرفة بعد ذهاب شريف.. فقالت تهانى بصوت عال مداعبة حتى أضحك وأضحك:
- إحنا كنا فين وبقينا فين.. لو كنا فى الهيئة كان الزملاء بالكتير أوى الواحد هايجيب كيس برتقال
- يالهوى عليك ياتهانى بطّلى يابت
- والله ولا كنت هاتدخلى مستشفى الجلاء إلا بواسطة
.. ورحت فى نوبة ضحك متتالية حتى أنها لم تستطع أن توقفنى.. دخل علينا بعدها زوجى عبدالحميد الذى أخبرنى بأن الحساب ستمائة جنيه فأومأت برأسى ثم قلت:
- بكرة الصبح
وخرج ثانية قائلا:
- هاشرب شيشة على القهوة
- ماشى
.. ولم تمض دقائق حتى سمعنا طرقا شديدا بالباب ثم انفرج الباب بضلفتيه وبرز الحارسان الضخمان.. بودى جارد وفى لحظات كان أسامة باشا يظهر كالقمر.. أو كوزير للحرب بين حارسيه وتقدم نحوى بوجهه الصارم الأبيض الأحمر المنتفخ فانعدلت قليلا لهيبته وصولجانه وقلت بصوت مبحوح:
- ليه ياباشا معقولة تاعب نفسك علشانى
.. ووقف بجانبى ممشوقا دون أن ينحنى أو يبدى أى رقة أو حنانا كما فعل شريف.. لكنه مد يده وصافحنى والعجيب أن البودى جارد الحيوانات يقفان خلفه كأنهما يخافان

عليه من الإغتيال وكانت تهانى تنظر إليهما وتكاد تقهقه من الخيبه اللىّ الناس فيها ، ولكن هذا الباشا عايز كده..

.. وعدلت تهانى المقعد للباشا كى يجلس ولكنه رشقها بناظريه فى كبرياء قائلا:

- معلهش أصلى متأخر ورايا مشوار.. المهم سلامتك ياسهير.. سلامتك.. وكنت أشكره بوابل من الكلمات والثناء.. كده كتير ياباشا... خطوة عزيزة.. ربنا يخليك.. القمر زارنى النهاردة.. وفى لحظة أخرج من جيبه نقودا ورقية ودسها تحت رأسى... وما كان علىّ إلا أن أواصل الثناء.. كده كتير ياباشا.. معايا والله.. ربنا يخليك.. وراح يهز رأسه فى كبرياء وأدار ظهره وانصرف يحرسه حارسان منافقان يشخطان فى كل حكيمة وممرضة أو طبيب.. أوعه الباشا.. وسع.. وسع.. إستنى هناك.. وتقريبا دخل علىّ كل طقم النوبتجية من أطباء وطبيبات وممرضات يتساءلون فى فضول شديد:

- مين ده

- راجل مهم أوى

- فى المخابرات.. ماسك أيه بالظبط.. وزير

- راجل مهم وبس ياجماعة

.. وانصرفوا واحد بعد الآخر وكانوا فى دهشة بالغة من الهرج الذى حدث والغريب أن هذه الزيارة جعلت المستشفى بكل عامليها أن يضعوننى موضع إهتمام وعناية مبالغ فيها حتى خرجت فى الثانية بعد ظهر اليوم التالى مما جعلنى أضع فى يد كل ممرضة أو حكيمة مبلغ عشرين جنيها.

وفى البيت قابلنى الأبناء فى شوق ولهفة.. سلامتك ياماما.. ياحبيبتى يا مما.. وارتمى كل منهما فى أحضانى ولاذا بجوارى فى الفراش ثم تركانى أنام، وفى السادسة مساءا أيقظنى عبدالحميد ليخبرنى بتجهيزه للغداء.. وقمت وتناولت طعامى مع أسرتى، بعدها ذهب الطفلان إلى فراشهما واستأذن عبدالحميد ليذهب إلى المقهى فى الحارة.. وشعرت بهدوء نفسى يلفنى عندما وجدتنى فى خلال فترة قصيرة أطبق علىّ ثروة لابأس بها مقارنة بما هم مثلى من النساء وكنت أريد أن أحلم وحاولت، فشعرت أن لحمى ضباب مثل الفتيات والنساء فى مدينتى حين يرون الفاقة والحرمان والإذلال بالنهار فيحلمون فى ليل يأتى حتى ولو أخذهم هذا الليل فى غيبوبة ظلام، لكنى كما يحقق الأغنياء أحلامهم كل يوم، فإن للذين قد انهاروا مثلى فى تلك الطبقة المتوسطة أن يحاولوا أن يضمدوا جراحهم بالحلم، لأنه إذا لم تفعل النساء على شاكلتى محاولات لأحلام جميلة.. فإنهن

وهن يقدمن شرفهن لكى يعشن فإنهن جميعا سيسقطن كمدا من القهر.. إننى إمرأة قد غرقت فى عرق الرجال الذين يملكون ويتحكمون ويسرقون المال فى هذا البلد.. إننى نفسيا أخاف منهم فى كل الأوقات ولكننى مضطرة أن أجارى وأنافق ويمتد طريقى ولا أعرف إلى أى مدى سأصل. إن أسوأ مافى الوجود أن تبيع المرأة شرفها كى تعيش. وأيقنت تماما أننى وتهانى مثال واقعى حقيقى بأن هذا المجتمع قد انقسم، المجتمع كله ركن دينه على جانب وراح يعيش من جانب آخر، ومهما نورت مآذن المساجد وصدحت بصوت الآذان فى كل وقت، ومهما دقت أجراس الكنائس كل صباح، فإن الناس جميعا أصبحوا فى جانب آخر، وكأن كل النداءات الدينية مهما هتفت باليقظة والشفافية والعدل وهو ما تدعوا إليه كل الأديان، أقول أصبحت المساحة واسعة جدا بين نداء الدين ونداء الحياة، لأن حارس ثروة البلاد وجميع حراسها معه سرقوا ثروة البلد كلها ولم يعد للناس جميعا شيئا تسرقه إذا كانت السرقة هى الطريق الوحيد للعيش.. وأصبحنا جميعا نبحث عن من يدق أجراس الحياة أو من يوقف المهزلة.. لكن المشكلة أنك تجد حالة من الفوضى تعم المجتمع كله ولايمكن أن يأتى رجل يدق الأجراس من عالم فوضوى..

وحاولت تحرير ما اعترى نفسى من سوء. وشعرت بأننى أريد أن أخرج من هذا البيت وعلىَّ أمضى إلى هناك فى الجانب الآخر، ونزلت إلى الشارع بعد أن ارتديت كامل ملابسى المثيرة.. وأخذت تاكسيا حتى وصلت ميدان الحجاز، وفوق مقعد محطة المترو المتجه إلى شيراتون ألقيت بنفسى وقلت أحدثها..إلى أين؟ ألم أجد مأأبحث عنه.. هل مازلت ضائعة؟ هل سأركب عربات المترو الخالية المتجهه إلي ذلك الحى الخال من الشعب، وكنت فى داخل نفسى عندما أجد وسيلة مواصلات خالية من الركاب أقول هذه ذاهبة إلى حى راق أو مرتفعة السعر.. وظللت أنهار وأوهم نفسى بأفكار وتهيؤات لا وجود لها، كل ذلك وأنا مازلت وحدى أجلس وسط هذا الميدان الذى يحضنه من الشرق معهد الحاسب الآلى ومدرسة الطبرى ومحل عمر أفندى ومن الغرب محطة الأتوبيس. وبعد قليل وجدت أن هناك سيدة فى مثل عمرى تجلس على حافة المقعد وفى يدها منديل ورقى تجفف به دموعها.. وهنا أدركت أننى فعلا كنت مغَّيبة حتى عن مقعدى، كانت السيدة منفعلة وبدا لى أنها تبكى بحرقة فاقتربت منها قائلة:

- مالك يامدام

وتشنجت وحاولت أن تمسح دموعها وتتماسك ولكنها إنهارت وبكت بصوت عال،

ورحت أربت على ظهرها .. مالك ياست هدّى .. صلى على النبى .. إستغفرى الله .. قولى يمكن أقدر أساعدك قولى والله فيه إيه .. كانت عيناها متورمتين كأنها منذ أيام تبكى بشدة .. تفحصتنى مليا لتطمئن أننى سيدة محترمة أليق بأن تبوح لى بأوجاعها .. هكذا شعرت فبادرتها بصدق قائلة :

- قولى ياست الكل سرك فى بير .. فيه إيه
- الزمن .. الزمن
- عمل فيك إيه الزمن .. قولى
- أبدا جوزى مات من سنة
- وبعدين
- إتعرّيت من بعده
- مات إزاى
- مات من الحزن .. كان بيشتغل مهندس عند إبن واحد كبير من الواصلين فى البلد .. وسكتت ..
- وبعدين
- فى يوم بيقول رأيه لابن الواصل ده .. بيقول رأيه الصحيح فى شغله ماعجبوش
- وده ماله ومال موته
- الولد ده عمره ثلاثين سنة .. أثناء المناقشة ضرب جوزى بالقلم على وشه، وقال له يابن الشرمو .. إنت تنفذ وبس
- وبعدين
- جوزى رد عليه وقاله .. خليك محترم
- بس
- يعنى قال له خليك محترم وأنا مش قليل الأدب علشان أرد عليك بالألفاظ دى ..
- وبعدين
- تانى يوم الصبح صفوا حسابه
- وبعدين
- كان هايموت من الحزن ولما أفاق بعد أسبوع نزل يدّور على شغل .. مافيش شغل خالص
- وبعدين

- فى يوم ماشى فى النزهة مش دارى هوَّ ماشى إزاى عربية خبطته.. ودُوه المستشفى ومات بعد يومين

- يعنى بيضربونا زى العبيد ويشتمونا ويشردونا فى الشوارع ويتوهونا علشان نموت وآخرتها

- آخرتها زى أولتها

- إنت ممكن ترفعى قضية على اللى شرد جوزك ده

- لوعملت كده هاضيع أنا وأولادى.. دابيعتقلوا الأطفال.. اسكتى الله يرضى عليك

- مأساة والله.. طيب بتعيطى ليه دلوقتى

- كنت جايه لأخويا الكبير.. وأشارت بيدها إلى إحدى العمارات البعيدة.. ساكن فى العمارة دى..

- طيب أخوك زعلك

- أبدا.. أصل أخواتى الصبيان ثمانية.. إتفقوا بعد جوزى مامات يدونى متين جنيه فى الشهر

- وبعدين

- كل شهر الفلوس بتقل

- ليه

- همّ غلابة كلهم موظفين.. غصب عنهم.. ما عدش حد دلوقتى معاه يدّى التانى

- أخوك الكبير بيشتغل إيه

- قاضى

- أكيد راجل محترم

فعلا هو راجل شريف

- فيه مثل بيقول.. الشريف مايقدرش يعمل أى حاجة فى البلد دى

- بالضبط كده

- وبعدين.. طيب إنت بتشتغلى إيه

- باشتغل فى حسابات شركة قطاع عام.. أقصد قطاع أعمال.. هايسرَّحونا قريّب

- بتاخدى كام

- كله كله.. خمسميه

- يعنى مشكلتك إيه.. قولى الخلاصة

- عندك حل
- عندى حلول
- إزاى
- تشتغلى فى شركة قطاع خاص بعد الضهر
- والأولاد
- اتصرفى
- هاخد كام خمسمية..
- وعلى فكرة إنت حلوة وحركة.. ممكن تاخدى أكتر
- إزاى
- عليك بصاحب الشغل ومعاك سلاحك.. تاكلى عينه.. دا اللى ماشى دلوقتى
- ماقدرش على البهدلة دى ياحبيبتى.. إسمك إيه
- سهير.. وإسمك
- سوسن
- منين
- من بلد جنب ميت غمر
- تتجوزى عرفى
- ياريت
- أنا عارفة راجل أعمال.. بيموت فى الجواز
- مش متجوز
- متجوز وعنده سبع بنات وولد.. ومراته كبرت ومش واخده بالها منه وعايز واحدة تهتم بيه.. بس هو بارت تايم
- إزاى
- يعنى ييجى بعض الوقت ومش كل يوم ولازم يبات فى بيت ولاده
- يدينى كام فى الشهر.. مش مشكلة.. أنا عايزه أكمل حياتى وحياة أطفالى
- بس بشرط تبسطيه
- وإنت شايفه إيه.. راجل زى ده لو إدانى ألف فى الشهر هاكون خدامته علشان ولادى
- هات تليفونك... ساكنة فين
- ساكنه فى الزيتون

- وإيه اللى جابك هنا
- خدت فى وشى ولقيت نفسى تهت والشوارع فاضية
- كويس إنى لقيتك وما خدكيش راجل زى حسن عيد
- حسن عيد مين ,
- دا الراجل اللى خدنى أول مانزلت روكسى
- خدك فين ونزلت روكسى ليه
- حكاية زى حكايتك ياسوسن

.. وأخدتها من يدها وركبنا تاكسيا إلى حى الزيتون وأصرت أن أطلع معها إلى شقتها لأرى أبنائها .. كان بيتها جميلا وابنها أحمد فى العاشرة من عمره وندى الصغيرة فى السادسة .. طفلان جميلان بريئان وأم جميلة .. بيوت جميلة وناس أجمل لكن نحن فى مصر لا قيمة للإنسان ولا أحد يرعى أحد .. وحرام أن تنزل إمرأة جميلة مثل سوسن سوق الرجالة ، وتعاهدت معها على مساعدتها وأخذت هاتفها وناولتها هاتفى على أن نلتقى فى الغد مع الحاج نبيل رجل الأعمال الطيب الذى يحب أن يتزوج النساء ويصرف عليهن ببذخ .

وفى اليوم التالى لم أذهب إلى عملى واتصلت بالحاج نبيل وعرضت عليه حكاية هذه السيدة وبعد أن إنتهيتُ من حكايتها قال :

- حلوة .. سمباتيك .. بيضة
- كل ده فيها
- عندها بيت
- إنت راجل غنى .. هو إنت محتاج بيوت
- مش ناقص أعمل بيوت تانى
- قلت لك عندها شقتها فى الزيتون وبيت كامل من كله وبنت ناس
- إوعى تكون كركوبة
- مش فاهمة
- صحة وجاذبية وسنها قبل الأربعين
- سنها مايجبش سبعة وثلاثين
- مابحبش الستات اللى عايزه تخرج كل يوم
- يعنى كل شهر مرّة

- ماشى سعادتى فى البيت وتكون متدينة تعرف ربنا
- لو كان فيها كل ده تديها كام
- ميزانيتى فى الموضوع ده بكتيره ألف جنيه فى الشهر غير الفسح
- حلو أوى ياحاج عداك العيب
- أحب نخلص على طول
- دا أملى ياحاج نبيل.. دى هدية
- بكره الساعة كام
- بالليل الساعة عشرة.. هات العقود معاك وأنا هاكلمها ترتب نفسها
- أهم شئ العلن لازم حد من أهلها وهاجيب الشهود وأختى وأخويا علشان كل الشروط الشرعية تكون كاملة... وأنا عايز الإستمرار والاستقرار زى مافهمتك قبل كده
- خلاص ياحاج نبيل هانعمل كل ده بكره

وفى اليوم التالى كان كل شئ يتم على ما يرام كأننا جميعا كنا على موعد مع القدر وشعرت بأننى قمت بأول عمل طيب فى حياتى.

-٤-

فى صباح الخميس سرعان ما ارتديتُ ملابسى وذهبت مبكرا إلى عملى الحكومى المحترم فى الهيئة وأخذت أجازة عارضة، واستوقفتنى بعض الزميلات ليسألن عن أحوالى، وجلست قليلا مع تهانى التى أخبرتنى بأنها فى أحسن حال وترغب فى تهيئة وقت فى يوم كى نتقابل ونحكى عن الأحوال، وكان أهم خبر دسته فى أذنى بأنها دبرت رجال أغنياء لبعض الزميلات اللائى يرغبن فى رفقة رجل يغنيهن فى عبور أزمتهن الإقتصادية. وهن هبة فى الشئون القانونية وإيمان فى الشئون المالية وعلياء فى شئون الأفراد وهايدى فى مكتب رئيس الهيئة وأماني بالسكرتارية.. وسعدت كثيرا بروح تهانى العالية فى مساعدة زميلاتها واتفقن على أن نتقابل فى يوم لتحكى لى تفاصيل هؤلاء النسوة. وودعت صديقتى فى حرارة ومشيت مجتازة عدة شوارع حتى وصلت إلى شركة البهوات.. قابلنى الساعى وأخبرنى بأن شريف بيه ينتظرنى فى مكتبه، وفى الردهة الطويلة التى علىَّ أن أجتازها حتى أصل إليه قابلتنى سكرتيرة بشوشة جميلة تدعى أحلام وكعادتها كما فعلت معى من قبل قبلتنى بحرارة وطلبت منى للمرة الثانية أنها تريد أن تقعد معى فواعدتها، ولما دخلت إليه قبلنى بحرارة وكان يريد أن يقفل الباب بالترباس ويلقانى، ولم أكن مستعدة لذلك وعدته بأن يكون ذلك فى المصنع إذا تواجد مكان ملائم، ولما خرجنا من الشركة لم يكن هناك موظف واحد بها.. كانت الساعة العاشرة والدوام يبدأ من الحادية عشرة، وأصرت أحلام أن تنزل معى الدرج وكان شريف يتقدمنا وهو يبتسم ويدخن سيجارته.. كانت هذه الفتاة ودودة لحد بعيد حتى أنها كانت تحتضنى بذراعها.. وشعرت بأنها تريد أن تهمس فى أذنى بشئ.. فقلت لها مبادرة:

- عايزة تقولى حاجة
- أيوة ياأبلة.. خللى بالك من نفسك
- إزاى
- بتوع نسوان
- مين
- الاتنين ياحبيبتى
- ماتخافيش ياأحلام.. إحنا رايحين المصنع

- أنا عارفة ياأبلة بس

- بس إيه

- شغل جنبه شغل تانى..

- أنا مش صغيرة كل حاجة بحسابها ياأحلام.. أنا ست متجوزة وعندى إمكانيات عالية جدا فى إدارة المصانع.. هو دا اللى إنت عايزة تقوليه

- لأ ياأبلة.. فيه حاجات كتير خاصة بيَّه عايزه أحكيها ليك

- يوم السبت لما آجى ياأحلام

... وكعادتها قبلتنى مرة أخرى.. وركبت مع شريف الشيروكى السوداء التى إنطلقت بنا مخترقة وسط المدينة إلى طريق الضواحى.. طريق الأسكندرية الزراعى.. كانت الآفاق واسعة متمثلة فى الأراضى الزراعية الممتدة على الجانبين وفتحت زجاج السيارة قليلا لينفذ إلينا رائحة زهور البرتقال وأريج الخضرة اليانعة المنبثقة من أعواد البرسيم وأوراق اليوسفى، ورحت أتذكر الماضى لما كنت مراهقة أتخيل أننى أطير مع حبيبى فى الفضاء الواسع وأتمشى معه وسط الخضرة وكنا نحن هذا الجيل ويبدو أنه كان كل الأجيال تتخيل ولكن ليس فى واقعنا أى شئ جميل من هذا الخيال والعينة بينة ياساداتى.. الآن ماذا أنا ... لاحبيب.. لازوج.. حياة نار لا حديث فيها إلا عن الجسد والمال والمصنع والبنك، سباق رهيب مع تلك الحياة وهذا الغلاء الذى جعل أغلى مافيها الطعام والضرورى من الطعام لانحصل عليه إلا إذا بعنا كل ما هو غال.. لاأعمال شريفة.. والأسعار فوق والبطالة تنتشر.. رجال يبيعون أطفالهم، وأخرون يبيعون فتياتهم ويدفعونهن إلى البغاء .. وغيرهم يسرِّحون زوجاتهم.. سباق رهيب مع الحياة كالطوفان الذى يجعلك تبيع كل شئ حتى تعيش.. الفقر يقترب والمجاعة بدأت تصيب حتى الكلاب باتت تمشى فى الشوارع تعوى كالمسعورة، كنت أريد أن أبرر لنفسى ماأفعله، ولكن ألست بشرا لما لاأذوب مثل كل الناس فى هذا الواقع واندمج معه، شعرت بأن كل الأديان صعبة فى هذا الزمان تحقيقها، وفكرت فى دينى قليلا وجدته قيمة عظيمة وأنا بعيدة عنه جدا، كان شئ فى رأسى يتجمد وكأن بخارا يصعد إلى نافوخى، وسرعان ما تذكرت حكايات زميلاتى فى العمل اللائى أصبن بأمراض السكر والضغط وغيرها، كان يحدث لهن مثل ماحدث لى فى لحظة تصاعد البخار المتجمد فى رأسى، سرعان ما تخليت عن التفكير فى الدين لأننى لا أستطيع أن أحقق شيئا منه الآن وأنا أسير فى هذا الطريق.. وكان على أن ألحق بنفسى وبصحتى وأن أبتعد عن المرض والحاجة والفقر.. وقلت لنفسى هذا هو.

بحلقت فى الرجل الذى بجانبى فوجدته قد شطح هو الآخر.. فوضعت يدى فى جيبه لتقط علبة السجائر الذهبية وأشعلت منها واحدة.. هو الذى أشعلها لما إنتبه عندما مست جسده وأنا أتناول هذه العلبة كنت أريد أن يكون لى هذه العلبة وهذه الولاعة ذهبية فقلت له:

- عايزه واحدة زى دى
- أوى واحنا راجعين
- بكام
- مافيش بنّا حساب
- ماتضحكش عليه
- تروحى معايا ڤيلا الشروق
- ملك الباشا
- ملكى أنا
- فيها مراتك
- لسه مافيش حد.. بشطّب فيها
- فيها علبة وولاعة دهب
- كل حاجة عايزاها.. هنعمل عقد مع بعض
- عقد تانى كفاية عقد الشركة
- إزاى
- عقد إتفاق دائم.. أنا فكرت كتير فى مصلحتك وعايز أنقلك من عين شمس
- ياحبيبى صحيح.. إزاى
- أنقل للشروق.. خدى شقة الشيراتون
- بكام
- بالاجل
- يانهار إسود.. هو أنت ابن مين
- أبويا كان موظف كبير أوى
- مدير عام
- أبويا كان مدير مكتب راس كبيرة أوى فى البلد
- يانهار إسود..

- كل حاجة بانهار إسوه ماتصلى بقه
- راشن كبيرة زى مين
- أبويا كان من رجال الثورة المعروفين
- ساب لك القيلا دى
- على فكرة أبويا كان راجل شريف والراجل اللى كان معاه برضه كان شريف ومخدش حاجة غير مرتبه
- والقيلا منين
- من شغلى مع أسامة باشا وقبله من شغلى فى الإمارات
- هوّ انت حكايتك إيه بالضبط
- حكاية موظف بنوك.. خدت بكالوريوس تجارة وشغلنى بابا فى بنك أبوظبى.. فكرة بابا قعد عشرين سنة فى وظيفته ومات فى أوائل الثمانينات.. بعدين جالى عقد لإمارات برضه رجل بنك.. قعدت فى الإمارات عشر سنين ولما جيت كان معايا فلو كنت عايش كويس مع مراتى وأبنائى.. وسكت..
- وبعدين
- من تلات سنين بالضبط وأنا مع الباشا
- كنت عارفه
- واحد صاحبى قال أنا عارف واحد بيحب فلوس البنوك، وعايز واحد عارف اللعبة
- لعبة إيه
- لعبة البنوك
- إزاى..
- بكرة هاتعرفى من شغلك معانا
- بتاخد كام
- ألفين وخمسمية
- جنيه
- دولار
- وإيه تانى
- مزايا كتير تانيه.. العربية وبنزينها.. باخد بضاعة بالآجل.. كل ما نحصل قرض جديد باخد عمولة

- يعنى ياحبيبى بالعها فى كرشك

وراح يضحك ولم يغضب من كلمتى اللاذعة.. راح يضحك طويلا وضحكت معه حتى صلنا إلى مشارف المصنع.. وكنت أمسك بجسده أداعبه بأصابعى حتى نزلنا من العربة ند المدخل وتجمّع بعض العمال والعاملات حولنا حتى أدخلنا أحدهم إلى الرواق الذى ؤدى إلى مكتب المدير.. وقبل أن نقترب من الغرفة كان رجل يخرج من بابها مهرولا لف فتاة حلوة يضربها على مؤخرتها بفرع توت طرى.. وابتسمت وقلت فى نفسى ولها خير.. وابتسم شريف وعانقه الرجل كما يفعل أهل الريف كثير من القبلات الأحضان إلى أن أوقفه قائلا:

- كفاية يامحمود بيه.. سلّم على ست الكل

... واقترب محمود منى وصافحنى بحرارة قائلا:

- المديرة الجديدة.. أهلا ياست الستات نورتى المصنع

. بادلته التحية برأسى وابتسمت متمنية تكرار كلمات الترحيب وجلست على مقعد نشبى تم تنجيده بجلد خشن كما قعد شريف قبالتى وأسند كل منا ذراعه فوق مكتب لدير الذى ألقى بجسده الثقيل على كنبة صنعوها من شجر الجميز والسنط، الذى تكثر راعته على ضفاف جسر ترعة القرية التى مررنا بها قبل أن ندخل الطريق الضيق المؤدى ى المصنع.

. وراحا يتكلمان عن مشاكل التخزين وأن كثيرا من البضاعة تتلف لعدم توافر وسائل تخزين الملائمة ولعدم تنظيم وترتيب المخازن، وبعد ذلك تحدثا عن مشاكل مقاسات لمبات الفلورسنت وأنه لابد من تعيين مدير فنى على مستوى عال. ومسائل أخرى فى لمشتريات المحلية.. وكنت آذان صامتة لأعرف الكثير وأقدم الحلول المناسبة فى تقريرى ذى أقدمه للباشا، وكان مدير المصنع يدعى محمود مصيلحى وهو إبن عمة أسامة باشا ن قرية تابعة لمدينة المنصورة.. حاصل على بكالوريوس علوم يقترب من نهاية العقد لخامس طويل عريض المنكبين له عينان ساطعتان لامعتان مثل الكلوب الذى يستخدمه جار الفاكهة فى الليل وهم يجرون عرباتهم فى الشوارع المظلمة، ويبدو أن هذا الرجل عرف كل كبيرة وصغيرة فى هذا المكان وأنه لديه حلولاً لكل شئ حتى أن فتاتين يقيتين دخلتا علينا تباعا تحمل واحدة صينية الشاى والأخرى تحمل أطباقا مملوءة بالموز البرتقال.. كان المدير يضرب كل منهن على مؤخرتها وكانت كل واحدة تضحك بدلال بلسان الرضا تقول:

- آه يابيه.. والله ماعملت حاجة.. ياسلام يابيه.. عايز حاجة تانية

فيقول البيه:

- ياله يابنت أم

وتتمايل وتضحك بصوت عال.. ويبدو أن كل منهن تسعد عندما تلقن أمها بت الألفاظ الجارى التعامل بها فى الحارات والأسواق والحقول.. وكنت أندهش لكن كنت نفس الوقت أدارى إندهاشى لأنه كان يجب علىّ أن أكون لطيفة بأن أقبل كل ش وأتغاضى.. بالمعنى الدارج أكبّر دماغى وابتسم واجامل حتى أجد طريقا لقلب كل ر صغير وكبير فى كل مكان.. فى هذا المصنع كما فى الإدارة بالقاهرة.. بل وأجد مكانا قلب كل إمرأة وفتاة فى هذا التجمع الكبير.. كان علىّ أن أحضن كل شئ وأحتض ولاأتركه حتى آخذ منه مصلحتى.. أن أتحلى بسعة الصدر وطول الصبر وأن أزرع أسل الإنسانية فى كل مكان وفى قلب كل إنسان وإنسانة حتى أصل إلى المنتهى والغاية كانت طموحاتى كبيرة مثل كل الأفكار التى تختزن فى رأسى والتى انصهرت عند عبرت من كل الفقر الذى يسيطر على الهيئة.. إلى كل الغنى الذى يظهر بشكل سا مثل كلوب تجار الفاكهة فى تلك البناية القديمة وسط العاصمة وهذا المصنع فى قا حقول الموز والبرتقال والتى تقع على ضفاف جسر ضيق يحضن ترعة صغيرة يتوافر ف مياه النيل كى تخضر كل الأوراق..

وعندما قمنا نتجول فى أرجاء هذه البناية كى نرى العمال والعاملات فى أقسامهم و ينتجون كافة الأدوات الكهربائية... كان كل واحد منهم يحاول الظهور بأفضل ماعن حتى تنتقل الصورة إلى القاهرة.. والغريب أن أرى خضوعا كاملا لكل كبير وصغير هذا المكان لمحمود بيه.. هو كل شئ هنا بحكم قرابته لأصحاب المصنع ولشخصي الحازمة وفى نفس الوقت قلبه الرحيم فى مساعدة كل رجل وإمرأة يعمل هنا عند يحدث له حدث يستحق العون.. فإن الرجل يبذل قصارى جهده حتى يحصل له على إذ بصرف تلك المساعدة، وكان يصرف هذه التبرعات لمستحقيها من العهدة المستديمة ال تصرف له بصفة دائمة للصرف منها على الإحتياجات الجارية للمصنع، وكان لمحمد مساعدين ومساعدات وكان يقطن فى بناية أخرى عند مدخل العزبة.. وهى شقة المصنع القديم فى أول مدخل العزبة، ويخدمه ليل نهار أربع نساء يتناوبن العمل فى سك الخاص من غسيل وطبيخ.. وهن من أهل القرية التى تقع على جانبى الترعة الكبيرة ق أن تدخل إلى هذه الوسية، وفهمت بل وصل إلى سمعى فى هذا اليوم الطويل المسلىّ ج

وبعد أن تناولنا طعام الغداء الشهى فى استراحة المدير هذه.. إستدرجت إحدى النساء العاملات فى خدمته حتى قالت لى فى تودد.. أن هذا الرجل ساب من بلده وترك ولاده ومراته وطاح هنا.. إنه بالنسبة للنساء اللائى يخدمنه فاكهة.. فهو جزيل السخاء عليهن بالمال.. ويختار دائما كل جميلة سواء فتاة أو متزوجة على ألا يكون وراءها أى مشاكل.. وهو رجل فحل لاينام مع إمرأة إلا وأغوت الأخرى.. حتى أنه ماترك واحدة جميلة فى هذا المصنع.. وأن هناك رجالا يعملون من قرى مجاورة يأتين له بفتيات ونساء كل يوم تقريبا ليعملن فى هذه الوسية ويصبحن من نسائه بعد ذلك.. وأيقنت أن العزبة والمال وأرض الموز والبرتقال والعنب وتلك الخضرة الفسيحة واليانعة وهذه المخازن وخشخشة الآلات ونهيق الحمير ونعيق البهائم فى الزرائب المنتشرة وسط تلك الحقول.. وصراخ الفتيات وأصوات النساء على طول الطريق وداخل الاستراحة وحول الماكينات وفى غرف التعبئة والتغليف.. هو جو مجتمع بأكمله يتنفس الحياة على طريقته ولكن فى لحقيقة هو شبه وإطار مجتمع صناعى.. لكن فى الحقيقة يا ساداتى ليس فيه صناعة بالمرة لكنها أرزاق.. ناس بتاكل عيش أو ناس عبيطة فى عبيطة.. قولوا أى حاجة تانية غير صناعة.. والمصيبة ياساداتى وكما علمت فيما بعد من أفواه قليل من حكماء هذا المكان ن فى هذا المكان مسخرة ولكنها تحت ستار.. والحسرة الأكثر بشاعة أن البنوك تعطى لفلوس للتيوس.. هكذا أيقنت هذه الحقيقة فى هذا اليوم الكامل الممتع وهو فى نفس لوقت يوم فيه عرفت الحقيقة المرة أو النكبة الكبرى لهذا المكان، وعندما كانت العربة لشيروكى تتحرك بنا والجميع وعلى رأسهم محمود بيه وحوله رجاله ونسائه يلوحون لنا السلامة مودعين.. كان جسر الطريق الضيق طويلا حتى وصلنا إلى طريق الترعة لكبيرة التى فيها بدأت المركبة تجرى بسرعة.. قلت ياسادة عندما كانت السيارة قد دأت تهاجر هذا المكان.. كنت قد بدأت أكتب تقريرى.. تقريرى الذى فيه لاأكتب أى ئ عن الحقيقة التى قلتها لكم الحقيقة أن المصنع تمام وأن محمود بيه صلاة النبى عليه.. تفقت مع شريف على هذا.. كان علىّ أن أجامل الجميع وأن أقول بعض الملاحظات لعادية عن المصنع والمخزن وغيرها.. لكن دون المساس بالشخصيات المحترمة والجو العام ناك.. هكذا أخذت بنصيحة شريف والنصيحة التى فى نفسى كى أستطيع مجاراة هذا لواقع والنجاح فيه وأن يظل أسامة باشا آمنا على ماله وحاله.. كان حديثى مع النفس طويلا حتى إقتربنا من مشارف القاهرة. ويبدو أن شريف كان فى حديث مع نفسه.. كان يبتسم ثم بدأ يضحك وأخذ يدى فى حنان وراح يقبلها ويقول:

- كتير جينا المصنع وقلنا كتير للباشا .. لكن .. وسكت
- يعنى الباشا مابيعرفش يحل ..
- لا هى الفكرة إنه فى الآخر يصدّق محمود قريبه، لوقلنا من هنا لبكرة مافيش فايدة
وكان علىّ من الآخر أحط إيدى فى إيد محمود
- يعنى
- أمشّى حالى ومافيش حد يكرهنى .. باختصار ماليش دعوة بالمصنع .. وسكت قليل
ثم نطق قائلا :
- رغم إن كل البلاوى فى المصنع
- قلت لى بياخد كام
- ثلاثة .. داغير الأكل والشرب ببلاش .. بيصرف من العهدة زى ماهو عايز
بإستراحة وبيدّى النسوان أجرتهم منها تحت بند إكراميات لناس بيقدموا خدمة
للمصنع
- طالما فيه مبيعات وصافى ربح خلاص
- ياريت .. إنت عارفه إن كل مصاريفنا الجارية من حداشر بنك
- يانهار إسود
- مش نهار إسود بس .. أول مرة تقولى نهار إسود فى محلها .. شركتنا دى عايلة
شوية نسوان من البلد اللّى جنب المصنع يقفوا على الترعة الكبيرة فى مدخل الطريق
ويلطموا ويصوتوا ويحطوا على راسهم طين .. على المصيبة اللى جايه بكره
- طيب ولما الباشا فى غيبوبة فين أبوه
- أبوه فى محلاته بس .. وكل اللى بيعمله أبوه يطلع كل شهر يزّعق له شوية وينزل
وأسامة بيسيب له فارغه لأنه مايقدرش يعمل حاجة
- ليه
- هى المشكلة إن الراجل الكبير غلط وعزل ولاده وكل واحد كتب نصيبه باسمه .. بيع
وشرا
- وهو أبوه بيعرف منين إن الحال مايل
- الخباصين كتير وساعات بعض المحاسبين بيكلموه لما يصطادهم تحت .. بيفكروا إن
صاحب العمل

- وعملتوا إيه مع المحاسبين دول
- نبهنا عليهم كتير واللى بيغلط بنمشيه
- يعنى فيه مصيبة جايه.. غلطتى لما وقعت على كل الأوراق دى
- لأ متخافيش.. شركتنا دى باقى لها تلات سنين كمان تكونى فيهم عملتيهم صحيح
- اشتغلى معانا كويس.. المهم ماتوقعيش على شيكات بتتصرف من البنوك ودايما شاورينى فى كل خطوة
- يعنى أعمل كام فى تلات سنين
- أقل حاجة تعملى فايض بس نص مليون وتأمنى حياتك
- بس المرتب مايوصلنيش لكده
- علاقتك بيه.. وعلاقتك معايا مش بتاخدى فلوس
- بس ممكن تغيرونى فى أى وقت
- لأ وضحك.. ثم أكمل.. برضه فيك تلات سنين

دخلنا القاهرة عن طريق شبرا.. وكنت تعبه أريد أن أذهب إلى بيتى لأنام وأفصحت عن رغبتى لشريف لكنه أمسك بيدى للمرة العاشرة وقبلها فى حنان وابتسم وأوعز إلى بأنه لابد أن نذهب إلى الشركة لمقابلة الباشا وننال رضاه.. وإننى إمرأة جديدة ولابد من أن أضرب على الحديد وهو سخن.. وذكرنى ثانية تلات سنين.. كان الطريق مزدحما بأرتال السيارات حتى وصلنا بصعوبة وسط البلد.. كانت عقارب الساعة تقترب من السابعة والنصف، وفى غرفتنا كتبت تقريرى بمساعدة شريف.. ولما خرجنا من مكتبنا فى الثامنة والنصف كان كافة موظفى الشركة قد غادروها فى الثامنة.. وكالعادة قابلتنى أحلام فى الردهة الطويلة المؤصلة إلى مكتب رئيس مجلس الإدارة.. وكما تفعل قبلتنى بحرارة.. وابتسم شريف ابتسامة عريضة وهمس فى أذنى:

- خللى بالك
- منها
- البت دى لابدة وبتحب الستات
- هو أنا ناقصة.. وش عرفك
- حاولت معاها ومارضيتش.. وقالت مامعناه مالهاش فى الرجالة أوى
- باين عليها غلبانة

- على فكرة الباشا ملاحظ كده وهى الوحيدة اللى ماطالهاش من طقم السكرتارية
- نكمل بعدين

... لوّح لنا الباشا بسعادة.. كان معه رجلان فجلسنا فى أحد الأركان وكل منا يقلب أوراقه.. ولما إنتهى من المقابلة جاءنا فى الركن الذى جلسنا فيه، وناوله شريف سيجة وهو يقول:

- أنا عاملها مخصوص عشانك
- الصنف المرة دى مش حلو
- هاجيب لك بكرة من الصنف بتاعى
- علبتك فيها كام سيجارة
- خمسة
- سيبهم وبكرة جيب

وهز رأسه نحوى وقال:

- المصنع عجبك
- طبعا حاجة هايلة أوى
- عايز إيه
- شوية تنظيم.. إحنا بس بنساعد محمود بيه
- لولا محمود كان المصنع خِرب من زمان

ولاحقه شريف بوابل من كلمات المدح فى محمود

وأنهى الباشا الحديث بقوله:

- إبن عمتى مش حاجة لعبة.. طبعا المصنع حته منه

وقلنا فى صوت واحد:

- طبعا ياباشا.. مافيش زى محمود.. إحنا بس نقف جنبه
- فين تقريرك ياسهير

- وناولته ملف به خمس ورقات.. وأخذه الباشا بامتنان ووضعه بجانبه على الكنبه و وهو يبدو عليه التعب:

- على فكرة أنا تعبان أوى النهاردة

ابتسم شريف فى دهاء وغمز لى بطرف عينه فبادرته قائلة:

ـ ليه ياباشا واحنا دورنا إيه.. أهو كده هاتقطع قلبى.. سلامتك من التعب
ـ آه ياسهير حلاوتك فى حنانك.. يعنى إنت مش تعبانه من مشوار المصنع
ـ ولو تعبانة أنا تحت أمرك للصبح
ـ عامل سهرة فى المعادى هانمشى دلوقتى
ـ ممكن أدخل حمامك
ـ أوى خدى راحتك

.. ورتبت بقية هندامى وتهيأت لسهرته.. إنه فى كل لقاء لقة نقود.. وخرجت إليه فلم أجد أحدا منهما.. وكان الباب الكبير للغرفة مغلقا كالعادة ولما كنت مستغربة وأقول لنفسى أين ذهبا وتركانى فُتِح الباب ودخل منه هلف.. أقصد بودى جارد أد البغل وقال كأنه عسكرى فى الجيش يبلغ سيده بأمر:

ـ الباشا منتظرك تحت

.. ولم أنبس بكلمة.. أخذت حقيبتى وهرولت من الباب الذى فتحه لى هذا البغل.. وكان الباشا وحده فى العربة يقعد أمام عجلة القيادة وفتحت الباب ودلفت بجانبه.. وانطلق أسامة باشا بالشبح وهو يسرع بالمركبة وسط أرتال من المركبات الأخرى التى تتجه إلى الكورنيش ثم قال:

ـ مافيش مشكلة تقعدى معايا للصبح
ـ أنا ملكك ياباشا.. موجودة معاك فى أى وقت عشان أسعدك

.....

كان البرج الذى يسكن فيه ضخما كأنه جبل وكنت أتأمله من الخارج.. كيف شيدوه ومن يسكن فى هذه البناية؟ وكان إندهاشى أكثر عندما كنت لاأرى غسيلا منشورا فى واجهة العمارة.. ثم أنه لا توجد بلكونات، هل يقطن هنا قوم لا يغسلون ملابسهم؟ ويبدو أننى من التعب لا أعرف شيئا عن ما يجرى حولى.. وأن هناك أناسا جاءوا من كواكب أخرى ليقطنوا هذه الأبراج الشاهقة ولما دخلنا مصعد البناية كان حارسان من الأمن كالعادة يتمحلسون للباشا الذى كان دائما سخيا معهم حتى أوصلانا إلى الأسانسير وقفلا بابه وهما ينحنيان.. ولاأعرف لماذا تذكرت مقولة كانت زميلة لنا فى الشرابية تقولها دائما كلما رأت أمرا غريبا أو شيئا متناقضا.. كانت تقول.. عوضى.. عوضى على الله.. إضرب العسكرى يخاف الشعب.. فيرد عليها زميل كان يجلس قبالتها.. ألف مليون عوض.. ولا عوض واحد راضى ييجى ...

.. وكانوا جميعا يضحكون من قلوبهم.. وماذا يُسرّى على الفقراء حياتهم ولكنى سرعان ما انتبهت إلى حنان الباشا الذى نزل عليه فجأة وقد أمسك بيدى وأنشأ يقبلها فى دفء كأنه شاعر رومانسى.. وكانت عيناه تنمان عن حب طافح قد فاض فجأة واحتضنته بيدى الأخرى فى رفق.. وتوقف باب الأسانسير وأنا مازالت أحتضنه فلاذ بصدرى ونزعته من داخل المصعد وأنا أجره بقوة حتى أتمكن من قفل بابه.. لكنه سرعان مانزع نفسه من يدى وقال وهو يعدل من جاكت بذته :

- فيه ضيفة جوه
- جوه فين
- فى الشقة
- الشغالة
- رقاصة

.. ودق جرس الباب بقوة وفتحت لنا سيدة ترتدى بدلة سوداء ودارت رأسى وارتميت على مقعد بالصالة الكبيرة وكنت مشدودة وكأن شيئا يغلى فى داخلى... ولماذا هذه السيدة وأنا؟ هل يأتى رجل آخر؟ أم أن هناك نوعا من الممارسات يستلزم إمرأتين.. ولم يكن لديه أى إهتمام بما يدور فى داخلى وتظهره علامات وجهى التى إكفهرت.. جلس الباشا لحظات وانتفض فجأة وقال وهو يدخل غرفة نومه:

- إتعرّفوا على بعض

فردت السيدة:

- طبعا ياباشا

.. واقتربت منى تلك السيدة وهى تبتسم ثم جلست قبالتى بعد أن ألقت بجاكت بذتها على الكنبة وقالت وهى تضع ساقا فوق الأخرى:

- أمانى عمر..
- سهير
- على فكرة أنا عارفة الباشا من زمان
- والله
- أيوه باشتغل معاه من عشر سنين
- فى الشركة
- لأ.. كل مايطلبنى باجى له

- بارت تايم
- بالضبط
- ليه دا الشغل عنده كتير إشتغلى فى الشركة أحسن
- علشان الأولاد وجوزى برضه ليهم واجب عليّه..

غير أننى لم أتمالك نفسى وقلت فى حدة:

- بتشتغلى إيه بالضبط
- رقاصة
- وبعدين
- زى أى راجل لو عايز حاجة أنا تحت أمره

وتجرأت قائلة:

- بتاخدى كام
- لا بقه دا سر
- مش مشكلة.. بتيجى كل يوم

" غير أنها فجأة قامت وفتحت الغرفة التى دخلها الباشا وابتسمت ثم قفلت الباب وانقلبت نحوى وهى تقهقه قائلة:

- الباشا نام
- معقولة
- على فكرة دى عادته لما يكون تعبان.. ياستى فرصة ندردش.. وسكتت "

غير أننى قاطعت صمتها الذى لم يتعدى دقيقة وقلت:

- إنت منين
- من مصر القديمة .. الملك الصالح
- وعرفتيه إزّاى
- أبدا فى يوم الصبح ريحة الشغل وكنت متشبّكة على الآخر ودى عادتى كانت الساعة تمانية بدرى.. طبعا واقفة على محطة المينى باص زى أى واحدة موظفة بتروح شغلها.. فجأة لقيت عربية شبح بتقف جنبى وصاحبها بيفتح الباب يقول إتفضلى تحت أمرك ريحة فين.. بصراحة ركبت بدون تردد.. كنت ساعتها متمردة على حياتى كلها وقلت لنفسى بعد ماركبت معاه.. واحدة بجمالى حرام تركب مع البهايم
- بهايم.. هوَّ فيه بهايم

ـ البلد مليانة.. الناس اللىّ يسّوى واللىّ مايسواش.. مرة مينى باص ومرة سرفيس وكل دى فوضة.. أى واحدة حلوة تركب إنت عارفة بتتبهدل إزاى بكفاية نظرات الناس فى الشوارع مليانة تحوش وأنا كنت إتمليت على الآخر.. من البيت غم والشارع غمّين والشغل زى قلّته مافيش مرتبات.. فى عرض النبى الواحدة مننا تعمل إيه.. هم البشوات دول برضه من البلد.. عايشين.. إيه المانع نعيش معاهم.. آه ياستى.. كويس إن الواحدة حلوة ..

ـ فى الحقيقة إنت صريحة أوى ياأمانى.. حكايتك حكايتى وحكاية كل ست فى بلدنا

ـ وحكايتك ياسهير

ـ والله هاقولك حكايتى بس خلّينا نعرف حكايتك للآخر النهاردة

ـ وبعدين رحتى مع الباشا فين..

ـ رجعنا المعادى

ـ هنا

ـ طبعا هنا

ـ وبعدين

ـ لقيته بيموت فى الرقص رقصت ..

ـ وبعدين

ـ قلعت

ـ وبعدين

ـ لقيته بيبلبع

ـ إزّاى

ـ بياخد فياجرا

ـ إزاى

ـ أول مارقصت خد فياجرا.. قعدت أرقص ساعتين

ـ وبعدين

ـ قام علىّ زى الوحش عمرى ماشفت كده

ـ إزّاى

ـ أنا متجوزة من إتناشر سنه عمرى ماشفت كده

ـ يعنى إتبسطتى

- إلا إتبسطت.. بعيد عنك الفقر دكر.. دا الراجل بتاعى لا قادر يمشّى البيت ولاقادر ياخد فياجرا.. الفقير ياختى فقير من كله .

- آه ياأماني.. والله كل اللى بتقوليه عندى.. الفياجرا غالية.الغلبان مايقدرشى ياخدها.. اللى من الشعب يدوبك ياكل فول والفول بيملا المصاريين ويخلّى الرجالة تنام للصبح

- وإنت ياسهير بتعملى إيه.. وظيفتك إيه

- باشتغل فى الشركة بتاعته

- بس

- لا طبعا.. تحت أمره بالليل وفى أى وقت زى مانت شايفة

- وجوزك؟

- موافق على كده.. غصب عنه.. يعنى أمشى كده ولا ننزل الشارع نشحت

- الموضوع دا بقه عادى فى البلد.. إوعى تفكرى إن مافيش غيرنا

- كتّر خيرك بتجبرى بخاطرى

- من عشرين سنه ماتعرفيش إيه اللى حصل.. زى ما يكون حيطة مالت على البلد.. كل واحدة بتدّور على حالها وحال ولادها .

- كويس إن لينا حال والواحدة مننا أهى حلوة شوية

- على فكرة كل واحدة ليها سعر.. كله بياكل عيش وكل واحدة على أدّها

- هى المصيبة إن ييجى يوم مالاقيش أسامة بيه

- البلد مليانة يس فين تلاقى كل واحدة عارفه باب ماسكه فيه بايديها وأسنانها

- على فكرة هوّ سخى أوى مع الستات

- كل شئ بتمنه.. بس خللى بالك ياعبيطة فيه ناس أكرم منه بكتير.. وأنصحك نصيحة ما تقوليش لحد فى الشغل سرّك لان الستات بيطيروا بعض .

- آه ياأمانى الموضوع كبير معايا أوى.. هو إنت هاتباتى

- ياالهوى المفروض أصحّيه

- طيب قومى خدى دورك وخلّصى

... وقامت وهى تتثاءب ثم إبتسمت إبتسامة عريضة وقالت:

- كأنك مش موجودة.. هاتشوفى اللى بيحصل كأنى لوحدى

.. وراحت تخلع ملابسها حتى أصبحت عارية تماما وأخرجت من حقيبتها بدلة رقص

زرقاء وارتدتها فوق جسدها العارى وكالعادة أخذت تجرّب الرقص بعد أن وضعت شريط لموسيقى راقصة بالكاسيت.. وراحت تنتشى وتتمايل وتتقصّع للخلف وترمى برأسها للأمام ولما إندمجت بدأت أصفّق لها وكأن الليل يسلم نفسه لإمرأتين، وبدأ كأن كل شئ حولنا يبدو ناعما أملسا، لكننى كنت دائما أعود بذاكرتى للأمس حيث نعير لحيوانات فوق الأسطح ومواء القطط الجائعة فى الأزقة والحوارى والذى كان يلطفهما صوت بائعة الحليب عند بزوغ الشمس، كنت عندما ينوّر الصبح وتصدح شمس الضحى يبرز الواقع المخيف بمشاجرات البائعين تعلو فى السوق الذى أمام بيتى.. عندما كنت أخرج من بيتى قاصدة عملى فى الهيئة أرى صبيان لا بيوت لهم يتراشقون بالحجارة ويلعبون الكرة الشراب فى عرض الطريق، وكان الماء الملوث فى برك صغيرة ينتشر فى كل مداخل الحارات حولى، كنت أريد أن أهرب وأن أنسى.. لكن لابد من النقود.. إن كل أجواء هذا المناخ القذر الفظيع لابد أن يكون مبررا لأن أنهل من الحياة النعمة التى أمسك بها الآن حتى أنتقل من هذا الحى الشعبى الذى بات يخنقنى.. ولما إنتصف الليل دخلت أمانى للباشا أيقظته وقام ودخل الحمام ثم أتانى وجلس بجانبى واحتضنى بذراعه حتى باتت رأسى على صدره واندمجت أمانى فى رقص يثير الغريزة وهى عارية تماما ولايستر جسدها غير تلك البدلة الزرقاء الشفافة.. وكالعادة أشعل البيه سيجارته المفضلة وكان ينفخ دخانها فى وجهى فأنتشى وشاركته أنفاسا منها.. ثم أشعل ثانية وثالثة حتى صارت رأسه ثقيلة وبدا أن أمانى قد تعبت من رقصها العنيف المثير فتحرك جسده فقام وهو يزيح رأسى من فوق صدره قائلا.. شويه... شويه.. وأخذها بكلتا يديه وكأنه يحملها ودخل بها غرفته..

ولأول مرة أشعر بالخوف.. الخوف من هذا الرجل الذى يعرف إمرأة غيرى.. على فكرة أنا عبيطة.. أكيد يعرف الكثيرات قبلى.. بل والآن يعرف عشرة نساء غيرى على الأقل.. حاولت أن أنام ومددت جسدى فوق الكنبة ورحت أفكر متى سينتهى من أمانى حتى أدخل إليه وأقبض.. أقبض رزمة النقود وأذهب إلى بيتى.. كان شيئان يشغلانى.. النقود والجسد حتى رحت فى نوم لكننى كنت أسمع أصواتا وأدرى بما يحدث حولى.. أبتسم هنيهة.. وأسخر من نفسى هنيهة وأخرى أغط فى نوم.. لكنه ليس نوم إننى أحاول أن أكون فى غفلة أو أبلع شيئا لابد أن يمر، فهذا هو واقعى.. جسدى ونقوده.. وكنت راضية يكفينى أننى فى أضخم برج على نيل مصر منه أنهل من نعيم الحياة فى محاولة للنزوح.. للنزوح إلى أين.. وكانت الأحداث تمر بسرعة رغم أننى مازلت نائمة أنتظر

... كان هناك سباق رهيب بين فتيات الشركة وأنا، ولكن كنت فى النهاية الفائزة فأنا أجملهن جميعا، وكنت أثناء لقائى مع الباشا والبيه أتحدى كل النساء حتى لاتضاهينى إمرأة أخرى تأخذ رزقى، وكان الجميع يلهث وراء المادة ومن يبعد عن هذا الطريق فإنه يقترب من الفقر، وكان كل الموظفين فى الشركة من مهندسين ومحاسبين وعمال يأكلون الفول والطعمية من محل آخر ساعة. كانوا يعيشون فى عالمهم وهو عالم الشرفاء جميعا من هذا الشعب. واختصرت حياتى وعدت فجأة وباختيارى أشترى نعمة المال بنعمة أملكهاوأصبحت من يوم لآخر أشعر بانهيار نفسى وهو عجزى عن تحقيق قيمة الأديان فى داخلى، وكنت أقول كما يقول الناس من يستطيع أن يمسك جمر النار فى يده وبالتالى فإننى لن أستطيع التمسك بدينى، ولما كان هذا الشعور سائدا كل أوساط المجتمع الشعبى والراقى فى بلدى، كان الجميع أيضا يدركون ويسألون سؤالا واحدا.. كيف تتحقق قيم الأديان وليس فى الأرض عدل؟ كيف ينادون بالقيم وهم لصوص، كيف يحكمون وهم يتقاسمون ثروة البلد؟ وكنا نتمنى جميعا أن تتوافر الأعمال الشريفة للناس.. لكن أدنى هذه الأعمال غير موجودة.. الجميع يشعر أننا فى غابة حتى الأطفال الصغار فى المدارس وصلهم هذه المعنى.. لاأحد يعمل من أجل الفقير وكل واحد يعمل من أجل نفسه، ومن دوافع الحاجة التى تتسع من يوم إلى يوم بشكل جعل الناس جميعا تنزل الشوارع كى تعيش.. وكان كل الذين نزلوا الشوارع يبحثون عن شئ واحد، ولذلك أصبح شيئا عاديا أن تبحث أى أنثى عن رجل تعطيه شيئا من جسدها.. أى قدر منه من أجل الحصول على شئ يساعدها فى أن تحصل على ضروريات الحياة أو بعض منها.. شئ عادى أن تقوم النساء بدورها حتى لا ينزل الأطفال إلى الشوارع، كل واحد أصبح من بداية عام ألفين يحاول أن يحافظ على كيانه بطريقته الخاصة.. وكانت الخيبة التى أراها بعينى الآن أن الأموال التى يستحوذ عليها الأغنياء ليست من إنتاج لهم.. أو أنهم ينتجون سلعة عالمية يقومون بتصديرها، أو حتى سلعة تباع فى سوقنا المحلى وتغنينا عن إستيراد سلعة نستوردها.. إنها جميعا أموال اقترضوها من البنوك، وكل واحد منهم له طريقته فى الإحتيال على البنوك، وأموال البنوك جميعها هى أموال هذا الشعب.. ليس كل الشعب ولكن فئة من الشعب تستطيع أن تدخر.. إننى لن أطيل عليكم حديثى فقد يكون عند البعض ممل، ولكن باختصار هذا

الوضع العام والفساد الذى استشرى فى البلاد هو الذى جعل سيدة مثلى كانت محترمة وتعمل فى هيئة محترمة،جعلنى هذا الجو العام أن أدخل مع كثير من النسوة ميدان بيع الجسد بالمال من أجل أن نعيش ولاشرف... يتكلمون عن الشرف والكرامة. ياهؤلاء يا من سرقتم بلادى وتعيشون فى ترف القصور أنتم جميعا عراة من الشعور لا كرامة لكم ولا جذور.. جعلتم الأطفال فى بلادى لايحلمون. غارت أجفاننا ولم يعد لنا بصر وانتفخت أهدابنا من الحزن،من العمياء فى وطنى.. أرجال يضربون العدل بالهراوة، وأصبح الناس جميعا يتمنون الموت الربانى بدلا من موتكم وخطفكم اللقمة من أفواه الجميع، تخوّفون الناس بهراواتكم وتجردونهم من أسباب العيش ومازلتم تتكلمون عن الوطن.. هل تسمعون ملايين الناس فى أكواخهم وهم يعوون قبل السقوط.. لقد سبقتهم ملايين ماتوا بأسرارهم ولاتدرون.. وهل هناك أحد فى دنيانا هذه يستطيع أن يعرف سر الموتى فى القبور فإلى متى يظل الظلم والطغيان يسود.. إن كل الذين ماتوا فى وطنى من ربع قرن ماتوا من الجوع، أو ماتوا وهم يدعون إلى الذى أوصلهم إلى فقر صنعوه فى أرضى وعلقوه فى سمائى كالمشنقة.. إننى يئست ياساد تى وأخاف أن تيأسوا مثلى.. كفى والله أنى أعرف أنكم جميعا تعرفون أكثر من حكايات كهذه.. أعتقد أنه كفى أن كل واحد كما يقولون فيه مايكفيه.

.. وفى يوم أخذنى الباشا فى سيارته الشبح إلى مصنعه.. دخلت المركبة بوابة العزبة التى فتحها لنا غفير غلبان يمشى حافيا.. كان هالعا خائفا يلتقط أنفاسه لأنه فوجئ بزيارة سيده، نزلت من العربة قبل أن ينزل سيدها الذى راح يعدل المركبة فى ركن بجوار خص الخفير، رحت أتأمل عشة هذا الرجل وكيف كان يقعد قبل وصولنا وأمامه قصعة فيها كومة نار يضع فوقها قورى الشاى وكوز ذرة يشويه ولقمة من خبز يسخنها.. وكان الأطفال وأمهم من خوفهم من الباشا قد وقف كل منهم متأهبا بجوار العشة وحول النار ينتظر كل منهم شتيمة الباشا وتهزيئه لهم كالعادة كلما وصل إلى عزبته.. نزل الباشا من الشبح وهو ينظر إلى كل واحد من الغلابة شذرا وكأن كل منهم نزل عليه نوبة برد من الخوف، وسبّهم وشتمهم كمن عاش فى الحارة طيلة عمره.. واقتربت منه وابتسمت وأنا أحاول مسكه من ذراعه لأثنيه عما يتلفظ به فقال وهو ينزع يدى عنه:

- دول ولاد قحبة.. روح ياوسخ إبعت المنيه..

- يانهار إسود كفاية

ونظر لى شذرا وكاد أن يشتمنى أنا الأخرى لكنه تماسك وقال وهو مازال متعصبا :

- أسكتى.. داولاد منـ.. مايجوش غير بالعين الحمرا.. دول حرامية

- معلهش ياباشا معلهش

ودخلنا إلى المبنى العتيق.. يبدو أنه بيت جده وعدت بذاكرتى إلى الماضى لما كنت أذهب مع أبى إلى بلدتنا نقضى يوما أو يومين ثم نعود إلى القاهرة، كان البيت يشبه هذا البيت فى غرفه وأثاثه لكنه كان أقل فخامة من هذا المنزل لأن بيت جدى هو دار واحد من الشعب ليس خلفه مزرعة ولاخدم ولاحشم ولابوابة ولاعربة تدخله.. كنا نمشى أنا وأبى من موقف السيارات حتى منزل جدى هذا، وكان مبلغ سعادتى أن أبى هو إبن ناظر المدرسة الإبتدائية القديمة وكل فرد فى القرية صغير وكبير يعرفه ويحكى عنه حكايات طيبة، أدخلنى الباشا غرفة نوم بها دولاب كبير وسرير وكنبه وقال فى عجالة استريحى أنا فى المزرعة خلف البيت.. وهذه منيرة سوف تلبى كل طلباتك حتى أعود.. أطلبى ماتريدى.. وشكرته وانصرف وراحت منيرة تمسح وتنظف كل قطعة أثاث فى الغرفة بقطعة قماش فى يدها، وكان ذلك فرصة فى جرجرة هذه السيدة لأعرف كثيرا عن المكان وما حوله، وتوالت أحداثى بسرعة قمت إلى الدولاب وفتحت حقيبتى ونقدتها عشرة جنيهات وسعدت منيرة بالنقود حيث قالت ليه ياستى كتر خيرك ياحبيبتى.. أنا تحت أمرك طول اليوم أطلبى بس.. ولم يكن عندى شئ آخر أعطيه لها حتى أستميل كل مافى رأسها من معلومات تخرجها لى لكننى قلت فى لطف وأنا أخلع ملابسى فى مداراة شماعة أفقية بجانب الدولاب :

- إنت منين يامنيرة

- من الفسقيه

- يعنى إيه

- من الناحية اللى جنب العزبة على طول.. الحته دى بيوتها على حرف الترعة الصغيرة.. بيوت الغلابة والأجارية والشغالين عند البيه.. أصلها مليانة فساقى

- يعنى إيه فساقى

- يعنى سواقى كثير وطنابير رى وناس بتروى بالراحة من الترعة.. حاجة زى كده والنبى ياستى همّه سموها كده.. أنا طلعت فى الدنيا لقيتها كده

- إنت بنت

- متجوزة الراجل الغلبان اللى فتح البوابة.. عم رجب

- كان فيه ست واقفه جنبه

- دى أم ولاده لكن أنا مراته التانية
- إنت حلوة أوى أتجوزتى الراجل ده إزاى؟!
- دى حكاية طويلة.. وسكتت
- قولى الحكاية
- هتزهقى ياستى.. حكاية مسخمطة كده
- قولى ياميرة.. إنت زعلانة من الحكاية دى
- أيوة ياستى زعلانة
- إحكى
- مش هاتقولى لحد ياستى.. إدينى الأمان أحسن ينقطع أكل عيشى أنا وجوزى ونتبهدل فى البلد كلها
- كل الأمان وحياتك.. واقتربت منها وقبلتها
- رجب اتجوزنى عشان البيه.. كنت باشتغل فى المصنع وعجبت البيه، جاب رجب وأمره يتجوزنى علشان البيه لما ييجى..
- يعنى إيه؟
- مش قولتك حكاية سوخة ياست الكل فى المصنع ممكن أمشى فى أى وقت لكن لما أتجوز رجب أبقه ملكه جوه العزبة وطبعا رجب غلبان تحت أمر البيه ومايقدرش يقول تلت التلاتة كام
- يانهار إسود يعنى..
- أيوه ياستى.. بعد شوية هادخل أستحمه وأدخل قوضته إللى قصادك دى
- وبعدين
- يجيلى
- يعمل إيه
- يسخمطنى ياست
- من غير كلام ولا حديث
- ومين فى البلد دى له كلام
- ورجب!
- رجب مين؟
- جوزك

ـ جوزى على الورق، دا أغلب من الغلب.. كل الناس اللى هنا فقرا مش لاقيين الكوتة.. والبيه كل حاجة هنا وعلشان كده كلنا عبيد تحت أمره.. مافيش حد يقدر يتكلم هانروح نشتكى لمين دا مصاحب الحكومة كلها.. أسكتى ياست الكل

ـ يعنى أصحاب العزبة والمصنع ده هم كل حاجة هنا

ـ بالعكس كان جده راجل محترم أبويا وجدى حكوا لى وكل الناس هنا عارفه.. جده كان باشا كبير أيام الملك عمره ماعمل كده.. لكن أبوه وهوَّ أجارك الله مابيرحموش

ـ والحياة ماشيه كده وخلاص

ـ عندك حياة تانية نروحها ياستى

ـ بتتبسطى مع البيه

ـ بصراحة أيوة

ـ هو ولاَّ رجب

ـ رجب مين.. أغلب من الغلب.. الناس دى كلها ماتعرفش تعمل حاجة من دى.. ومنين يجيبوا القوة.. الأكل يدوبك.. بيشتغلوا ويروحوا بيوتهم والهم والغم حته واحدة.. مفيش صحة ياستى.. دول مخلوقين للعذاب وبس

ـ يعنى إنت بتحبى البيه

ـ بس بيضربنى قبل وبعد.. ثم طفقت قائلة وكأنها تشخط فى:

ـ هوَّ إنت مين ياستى

ـ أنا مديرة أعماله

ـ آه.. آه ياستى.. عامله إيه معاه

ـ لا لا يامنيرة.. ماليش دعوة بالكلام ده أنا ست محترمة شغل وبس

ـ ياريت ياستى.. طبعا إنت حرة مش زيِّنا ليك بيتك وجوزك.. طبعا زى البيه

ـ طبعا طبعا ولايهمك إنت عسل يامنيرة

ـ ربنا يخليك ياست الكل

ـ عايزه آكل يامنيرة

ـ حاضر ياستى

.. وانصرفت منيرة لتأتينى بطعام، واستلقيت فى فراشى والغيظ يستبد بى، لكن سرعان مارحت أتأمل ورق الشجر الأخضر من خلال النافذة، وكنت أسمع أصواتا لرجال ونساء يعملن فى الحديقة خلف البيت وكان يترامى إلى سمعى من بعيد صوت الباشا يشتم

ويزعق فى هؤلاء العبيد.. هؤلاء الذين تأكدت بأنهم حفاة عراه لا حول لهم ولا قوة بعد سماعى حكاية منيرة زوجة الغلبان، وقلت لنفسى ماذا أنا بجانب هذا العالم حولى.. هذا العالم الذى يملكه هذا الباشا.. هو السيد الوحيد وكلهم جوار، وشعرت بأننى أقحم نفسى عندما أحزن لأخلاقه مع الناس والنساء.. ليس زوجى وليس حبيبى وليس أى شئ يسكن فى صدرى.. يجب أن أتعرى من شعورى لأن كل شئ عاد باهتا،أحاول الهروب من زمانى ولكن إلى أين إلى أين إلى سادة البلاد الذين جعلوها مطحونة تحت أقدامهم .. وسألت نفسى سؤالا هل تعلم الحياة أننا نعيش مع هؤلاء الأباطرة؟ وهل يعلم الزمان أنه ظلمنا حقا؟! ولماذا نحن عبيد وهم أحرار؟ هل أنا ومثلى نعيش الحياة؟ إذا لماذا خلعت الحياة عنى ثوب الستر، أريد أن أبكى لكن أين البكاء؟ البكاء يجهلنى وجدى ناظر المدرسة الإبتدائية فى قريته كان صاحب مبادئ وأنا حفيدته فهل كان يجب فى أول الأمر ألا يكون صاحب مبادئ.. أم أننى أمرأة انشقت عن أهلها،ولكن أين كان أهلى لما لم يساعدونى عندما كنت أقع وأترنح وأمد يدى بالسلف إنهم لم يساعدونى لأنهم لا يعرفون غير أنفسهم وهذه صفة من صفات هذا الزمن، وآخرون من أهلى ليس لديهم شئ يعطونه لى أو لغيرى.. واعترف لكم ياسادتى أننى إمرأة شديدة الإغراق مع نفسى عبيطة ذليلة صاحبة ذكريات.. لكننى فى الحقيقة أصبحت بلا فضيلة فلو سمحت يانفسى لا تعودى بذكريات الخلق النظيفة أيام كان المدرس فى قرية جدى إذا سار من شارع هرب التلاميذ إلى شارع أخر كى يتداروا إحتراما لهذا المدرس.. تعالوا ياسادتى الآن كى تروا المدرس والناظر والطبيب والضابط والمحاسب، إنهم جميعا ياسادتى لم يعودوا كما كانوا، كما كنا زمان.. فلم يعد زمان ولم يبق مكان للشرفاء.. إن كل شئ سرقوه ولم يعد أمام الكثير من الناس شيئا يسرقوه. إذا فلنبع أى شئ لهؤلاء السادة كى نعيش،ولكن المصيبة أن إمراة مثلى لديها جمال وخلعت ثوب البرقع لتحفظ بيتها من الضياع وعيالها من التشرد ولتجد لزوجها عملا حتى ولو كان معرّصًا.. المصيبة أن غيرى من النساء بدون جمال فماذا يفعلن هؤلاء؟ ألم أقل لكم ياسادتى أننى إمرأة عكاكة ومالى ومال غيرى بنفسى وحياتى، إنه علىّ أن أنسى كل شئ مضى وأن أتغاضى عن كل ماحولى وأن أعيش وحدى.. أعيش بلا رحمة رافعة سكينتى كما الجميع رفعوا ليعيشوا..

.. وأيقظنى من أوهامى أن الباشا جاء إلىّ وابتسم ابتسامة باهتة كالعادة وقال:

- كله تمام

.. انعدلت فى فراشى وقلت وابتسامة عريضة تملأ وجهى فجأة لأنه الباشا:

- طول ما معاك ياباشا كله تمام

هز رأسه وأمسك بأوكرة الباب وقال فى مكر:

- هاقعد شويه مع الخباصة

- الخباصة

- خباصة العزبة منيرة ماعرفتهاش؟

- لا ياباشا عرفتها وقعدت معايا

- راحت فين أكيد خبصت معاك وقلبت الدنيا

- لا ياباشا دى غلبانة شكرت فيك أوى

- راحت فين

- تجيب لى أكل

- لما تيجى إبعتيها الخباصة.. أنا جوه فى قوضتى

- حاضر ياباشا

.. كنت مندهشة مما يحدث علنا.. ولكن كان على أن أمسك بأية مشاعر وأعيش الواقع كما هو.. ولم تمض لحظات حتى جاءتنى منيرة تحمل صينية بها أشهى الطعام.. فطير.. وخبز وعسل نحل وجبن قديم.. ودورق ماء.. ولمّا وضعت الصينية أمامى على السرير رحت أضحك وأنا أتناول الطعام وأخبرتها بأن الباشا فى غرفته يريدها.. وضحكت منيرة ضحكات ماجنة مثيرة بلا حياء،ولم أكن أتصور أن هذه الفلاحة لديها هذه الإمكانيات.. كأنها تخلت عن ثوبها القديم الذى كانت ترتديه فى أول النهار، إسمحوا لى كأنها إمرأة ساقطة.. أعلنت عن نفسها بضحكات عالية نفذت إلى الغيطان الخضراء، والغريب أن حصان الباشا الذى يربطوه فى زريبة قرب نافذة البيت.. الحصان صهل والحمار المربوط بجانبه نهق والثور الذى يجر المحراث قرب حديقة البيت قد نعر.. كل شئ ثار فجأة وكأن هناك إتفاقا بين الحيوانات بعد ضحكات منيرة.. وقلت لنفسى مغتاظة منها يبدو أنها خباصة ولبؤة لكل هؤلاء.. يخرب بيتك يامرة.. والغريب أنه لم تمر دقائق كانت تدخل وتخرج من الغرفة تقفل أبواب وتشد ترابيس.. وفجأة وقفت أمام المرآة وخلعت جلبابها ثم أرتدت ملابس داخلية جديدة من الدولاب بعد أن خلعت ما كانت ترتديه من قطع عادية.. ووجدت أمامى إمرأة فاتنه فى كل شئ.. أعتقد أنها لاتقل شيئا عنى.. راحت تمشط شعرها.. وتضع المكياج والمساحيق كأى إمرأة كأنها نشأت فى المدينة.. أم أن هذه فطرة النساء؟! لا أعرف تُهت وخفت على عيشى ودخلى من هذا الباشا وسألت

نفسى.. إذا كان لديه فى كل مكان إمرأة فما الذى أقدّمه أنا.. أو ماذا يريد منى؟ ومضت دقائق أخرى ومنيرة تكاد ترقص أمام المرآة وهى تتأهب للباشا.. والتفتت نحوى وراحت تستعرض بجسدها وهى تطلب رأيى قائلة: إيه رأيك ياست الكل.. مش بطالة.. يعنى أنا ست.. وكان رنين ضحكاتها المثيرة أقوى من أقول لها أى شئ.. وفى لحظة كانت منيرة تقفز من فتحة الباب إلى غرفة الباشا..

•• وانتظرت دورى فى سوق الحريم اللائى لا صاحب لهن.. نساء مقاطيع عبيد لمن يملكون، أنا وهذه الفلاحة زوجة رجب فى مقام واحد.. ماذا حقق لى تعليمى.. هل أغنتنى وظيفتى المحترمة من هذه الحاجة، بماذا يكمل الناس حياتهم وهكذا سرت مع السائرين... أحصل على المال من الفاجرين.. ولولا هؤلاء ماوجدت إمرأة مثلى مكانا فى هذه الشركة، وظهر لى فيما بعد أن كل شركة لأصحاب هذه الرأسمالية فيها إمرأة على الأقل تقوم بهذا الدور.

.. وخرجت منيرة وغطاء صدرها ممزقا وقالت لى كما تقول النساء فى هذه الأوقات:

- أدخلى خدى دورك.. هاتلاقيه متلقح
- عايزنى
- نايم.. نايم زى الخروف.. خشّى صحيه
- خليه يشبع نوم.

•• وفتحت منيرة الدولاب وأخذت ملابسها فى يدها وانصرفت. وقمت إلى النافذة اتطلع إلى الحقول الممتدة.. كان هناك هواءا باردا يلفح وجهى وكانت بعض الرياح قد بدأت تزحف فوق أفرع الشجر، وكانت أشعة الشمس التى بدأت تضعف لقرب انتهاء النهار تبعث ضوءا مريحا يتسلل أغصان الخضرة وينثنى فوق أعواد القصب.. شعرت وأنا أتأمل الطبيعة الجميلة حولى بأننى قد أخطأت وأن وجودى بهذا الشكل فى تلك الحياة سوف يلوث جمال هذه الطبيعة الخلابة، وبكيت.. بكيت حماقاتى وحياتى الحاضرة.. شئ كبير فى داخلى يصرخ راثيا قيمة الطهارة، لكن من يمنع فى بلادى اضطراب الإنسان مع الفقر.. كانت الحاجة عندى تعربد فى نفسى ليل نهار كأنها رياح فوق أسطح من صفيح، لكن إضطرابى الآن وأنا أعيش مع الأغنياء محيرا فيه كل شئ تاه.. فأنا الريح ذاتها تمزق كل المعانى والقيم.. كان يوما تافها عندما التقيت مع النقود.. دخلت فى ليل سرمدى مثل كل أمرأة تقف على قارعة طريق.. أنا مثلهن ولكن فى إطار يبدو نظيفا.. لكننا جميعا محترمات وعاهرات نعمل فى شركات.. وفى كل هذه الشركات سواءا

كانت للحكومة أو يملكها باشوات هذا الزمان تجد آلاف الحكايات منها تستطيع أن تكتب تاريخ أمتى.. وهذه الخطى لهذا الشعب الأصيل من ساقها، ماهذه القوى الغاصبة التى استعمرت تصرفاتنا وجعلتنا جميعا فى غيبوبة لا تفيق.. إننا فى حاجة لمن يحررنا ويأتى لنا بفجر جديد.. يصلح النظام فى هيئات وشركات الحكومة وينظف شركات الرأسماليين ليس فى بلادنا اشتراكى وليس فى بلادنا رأسمالى، ولو كان هناك واحد من هؤلاء لكان العدل.. ليس فى بلادنا رجل أعمال حقيقى.. أفيقونى على مصنع واحد ينتج سلعة مفيدة لهذا الوطن.. أقسم بالله العظيم الذى عصيته أننى لست سياسية ولا أنتمى لأى حزب ولا أى جماعة.. لكننى واحدة من هذا الوطن تكلمت فى الإصلاح والقيم والعدل ومازلت أتمنى.. لافرق بين إمرأة شريفة وغير شريفة فى الحديث عن السياسة.. المظالم وصلت إلى كل واحد يعيش فى بلادنا تقطعه بلا رحمة.. إسألوا طفلا صغيرا فى مدرسة ابتدائية.. سيحدثكم عن المظالم مثل أى كبير.. من الآخر كما يقولون إننى أدخل الآن إلى غرفة رجل يقولون أنه رأسمالى.. أدخل إليه وأعلن.. أنا أمرأة من هذا الوطن بنتك وأختك وأمك.. أدخل إليه كى أعطيه جسدى حتى أحصل على نقود كى أعيش ولايتشرد أولادى فى الشوارع.. وهذا هو الطريق الوحيد الذى وجدته لكى أعيش.. ومازلت وحتى الآن مستعدة بكل مابقى فى من أمل.. أن يدلنى أى واحد على طريق آخر كى أحقق حياة كريمة

... وجدته مثل التلقيحة يشخّر فأضأت نور الغرفة وقلت فى نفسى.. جتك داهية إنت وأمك.. وكأننى أؤدى وظيفة.. إحتويتة فى أحضانى عسى أن يصحو بسرعة.. لكنه يغط فى نوم ثقيل فتركته ونمت بجواره نمنا كثيرا حتى إنتصف الليل.. كنت أعطيه ظهرى فانقلب نحوى وراح يداعبنى بيده ويقول:

- شوفتى الفلاحة
- أيوه
- تسيبى الفلاحة تاخدنى منك
- مزاجك ياباشا
- صحيح دى عاده زى أبويا
- هيّ حلوة أوى
- أبدا هى حاجة علشان نثبت الميراث.. أمها كانت طول عمرها مع أبويا فى نفس القوضة دى..

- إتعلمت منه

- كل الفلاحات الحلوين.. شفت أبويا معاهم من عمر عشر سنين.. كان يسيب أمى فى مصر ويجى يعمل اللى عايزه

- ماكنتش أعرف إن الزرايب فى البلاد فيها ستات حلوه كده

- أحلى حاجة إنهم ما بيخدوش فلوس.. أهم حاجة عندهم إن يكون هم مكان للمعيشة زى ماانت شايفة كلها زرايب..

- بس أنا غير دول ياباشا

- طبعا

- الثمن رخيص ياباشا.. دانا على طول نوبتجيه معاك

- مش مشكلة نزوّد الأجرة شوية

... إحتضنته بقوة وارتمى فوقى وتركته وتحديت كل النساء وفعلت ما يعجبه حتى تزيد الأجرة، أتانى من الخلف فى بشاعة.. لكننى تعودت على ذلك منذ لقاء الفندق الأخير لما شعرت بأن رفضى هذا الجماع قد يؤثر على وظيفتى فى الشركة وقد يبحث عن أخرى تعطيه كل شئ.. لكنه رغم بشاعته النفسية وحالته الثائرة أثناء هذه الممارسة فهو فنان فيها يجيدها بشكل يثير ويعجب أى إمرأة بعد أن تتعود عليها.. وللأسف أدمنت هذه الممارسة بعد ذلك وأنا التى كنت أطلب منه بعد كل لقاء عادى أن يأتيه معى.. وكان يبكى بشدة بعد هذه الممارسة.. وفى هذه الليلة الطويلة نام الباشا فى الهزيع الأخير من الليل فتركته لآخذ حماما ساخنا جهّزته لى منيرة.. بعدها دخلت عليه غرفته ووجدته كالعادة يغط فى شخير عال،وانتبهت إلى حقيبته الجلدية تحت النافذة وأغرانى منظرها.. ماذا بها؟.. وفتحتها فإذا هى مملؤة بالدولار. خمسة لفات فئة الألف ومجموعة متناثرة من فئة المائة دولار فتناولت منها كبشة وقفلت الحقيبة ورتبت الأوراق فى يدى.. سبعة حلوين فى ميه أربعة بكاوى تقريبا فل عليك ولاهايدرى بحاجة ملعون أبوه لما آخد نصيبى من فلوس البنوك.. دى فلوس الشعب لازم الشعب ياخد نصيبه.. أنا بالنيابة عن هذا الشعب.. وضعت الأوراق فى حقيبتى ونمت بجواره واحتضنته حتى أنام هكذا تعودت معه.. ورحت أفكر فى عالمى الجديد.. لا ليس جديد.. لكن الجديد أنه لم يعد يهمنى أى شئ آخر حتى أبنائى رميتهم على أبيهم، إحترفت الحياة بين هذين الرجلين الباشا وشريف.. ماذا أريد بعد.. هل هناك رجال آخرون يستحقون أن أوزع وقتا باقيا معهم.. سوف أرى وأعرف العملاء واحدا بعد الآخر كما أخبرنى شريف، ومهماتى فى البنوك لم

تبدأ بعد.. أكيد هناك رجال يستحقون الإنتباه.. رحت فى نوم عميق وأنا أفكر فى آفاق أخرى أجد فيها رجالا.

•• ركبنا المركبة الشبح متوجهين إلى القاهرة بعد الضحى، وكانت الشمس ساطعة تبعث الدفء فى أرجاء الطريق وجنباته، وأكبر شعور إنتابنى طول الطريق أننى إمرأة صايعة لا أهل ولا زوج ولا أولاد كما يقولون.. إمرأة ماعندهاش عرض، ولم أكن أتصور وأنا طفلة صغيرة عندما كنا نقول أناشيد الصباح فى المدرسة أن فى حياتنا يجد الإنسان هذه الظلمة، كان المجتمع فى مخيلتى ناس يتبادلون الإحترام والتقدير فيما بينهم.. لكن هذا المجتمع ناس يأكلون بعضهم البعض.. لا إحترام ولاأدب.. الكبير يبلع الصغير.. لاشرف ولاكرامة ولاعزة ولاعمل شريف.. وإذا وجد العمل فهو عمل لا يغنى عن الشحاتة والتسول والنصب.. إذا مافائدة العمل. لا يوجد شئ واحد صحيح وقوى، لا حقيقة ولا حرية ولا عدل، ولكن كل شئ فى أى مكان هو إنتهاك وانهيار وتحت إلى أسفل السافلين.. كل الناس أصبحوا تحت لدرجة أن تحت لم يعد فيه إلا جواليص الطين، أنا لست راضية عن شئ ولا عن نفسى.. إننى ألعن تصرفاتى ورغم ذلك لن أتوقف عن طريقى.. إننى أرفع سكينتى كى أعيش مثل كل الناس يرفعونها حتى يحصلوا على رغيف.

.....

ومرت أيام كثيرة فيها حصلت على أجازة بدون راتب لمدة عام، وأصبحت المرأة المفضلة لدى الرجلين أذهب إلى شقة المعادى فى ليلة والآخرى فى فندق النيل وثالثة فى البيت الريفى قرب المصنع ورابعة فى المكتب بعد إنصراف الموظفين فوق الكنبة..إلى أن جاء يوم ذهبت فيه مع شريف إلى تُيلا الشروق..

--- كانت الڤيلا فى مكان مهجور من طابقين لها سور عال تقع على مساحة ألف متر من طابقين.. تم تصميم حمام السباحة لكن لم يعمل بعد.. الحديقة حول المبنى بشكل دائرى وكأن المبنى ساقية تقع وسط مياه النهر.. زرعت الأشجار فى كل الأجناب وبعض النخل الإفرنجى تناثر حول حمام السباحة.. كان المكان فخما لكنه خال من الحياة تضمه رمال قريبة وبعيدة كأنه جبل قد تم تسويته.. وهناك مبان أخرى لبيوت وڤلل فخمة لم يكتمل تشييدها أو طلاؤها لا يسكنها أحد بعد.. وكان الطابق الأول قد تم تشطيبه بدرجة سوبر لوكس ولم يكن فيه أى أثاث عدا غرفة واحدة بها دولاب وسرير وتسريحة ودورة المياه الرئيسية قد زودوها بمرآة وفوطة وصابون للإستحمام، وفى المطبخ

بوتاجاز عادى وأكواب وشاى وسكر، وثلاجة صغيرة بها بعض أنواع الطعام والفاكهة ، وأغمضت عينى عن قميص نوم حريمى عُلّق فوق مشجب باب الحمام، وكانت الديكورات التى أقامها فى الغرف والصالة المفتوحة تبهر العين لفخامتها وجمالها وطريقة تصميمها.. أغمضت عينى عن هذا أيضا.. كنت أريد أن أقول له جايب البلاوى دى منين.. يانهار إسود منين دا كله.. لكنى أمسكت بلسانى.. كنت أريد أن أبكى حزنا على الفقراء فى عين شمس وشبرا الخيمة وعزبة بلال وامبابة.. ولكن لماذا أبكى.. هو أنا خايبة.. حمد الله على الخيبة هاتِ عالآخر ياسهير مش مهم دول اللى ناهبين البلد.. كظمت كل شئ وتجاسرت وتمالكت قواى وأنا أرتمى فوق سريره:

- مبروك يابيه حاجة حلوة أوى
- إتفضلى
- مرسى ياحبيبى.. آه ياحبيبى.. نفسى أطلع من عين شمس
- فى إيدك.. نتفق
- إزاى
- معاك كام
- عشرين
- بس
- الأكل ومصاريف المدارس واللبس وجوزى بياخد بدل بطالة.. همّ كتير يابيه..

وفتحت أزرار قميصى وتعريت حتى أغريه.. كنت فاتنة وارتمى على الفراش بجانبى وقال:

- تحت أمرك عايزه إيه.. وقبّلنى وتركت له نفسى لحظات ثم إبتعدت قليلا عن وجهه وهمست قائلة:

- العشرين يعملوا إيه فى زمن كيلو اللحمة فيه بعشرين جنيه
- بلاش تعقيد الله يكرمك.. المهم عايزه تروحى فين
- أعدّى
- تعدى فين
- أعدى شارع جسر السويس.. أروح مصر الجديدة
- خدى شقتى فى شيراتون
- يالهوى.. إزاى وبكام؟!
- بالأجل.. على الحساب

- بتتكلم جد
- هاتى العشرين والباقى أكتب بيه كمبيالات عليكِ
- مستعدة بس إزاى ؟
- اتناشر كمبيالة كل كمبيالة بعشرة
- وأجيب منين العشرة
- إرفعى سعرك شوية.. بكرة تعرفى عملاء وأول الشهر هتروحى البنوك

إعرفى رجّالة تانية بس يكونوا نضاف ومعاهم فلوس.. ممكن توصلى إلى ثلاثين فى الشهر

- خلاص اتفقنا خليك معايا دلنى على الطريق علشان أعدّى
- أوى أوى
- هاتيجى الشروق إمتى
- إسبوع بالكتير
- نكتب العقد إمتى؟
- من النهاردة.. نروح عند محامى بالليل يخلّص الموضوع كله بس هات العشرين معاكِ
- حاضر ياحبيبى

.. وقمت إليه والدموع تنسال من عينى.إنحنيت فوقه أقبّل رأسه ويديه شاكرة وقفته، وابتسم كعادته وراح يخلع حذائى وملابسى وعدلنى على فراشه وكما قبلت رأسه ويديه.. راح يقبل كل شئ فى والأدهى أنه إندمج فى تقبيل جسدى وذهب يقبل قدمى فى حرارة كأنه يقبلنى من فمى.. ولن أحكى تفاصيل عن لقائى به هذا اليوم غير أننى كنت أستريح لشريف ولمعاملته الطيبة لى، كان إنسانا راقيا بمعنى الكلمة.. ولما كنا قد قضينا وقتا من الليل فى ڤيلته والمكان مهجور ليس فيه تاكسيات فقام شريف بتوصيلى إلى قرب بيتى..

.. عدت إلى بيتى ونصف الليل يقبل فوجدت عبدالحميد يقعد فى الصالة يقرأ الجورنال والأبناء قد ناما فى غرفتهما، سعد عبدالحميد بوصولى مبكرة هذه الليلة حيث قال مبتهجا:

- فرصة أقعد معاك شوية
- خير فيه حاجة

- عايز أتكلم معاك
- هو فيه بينا كلام
- مش أنا جوزك
- طبعا فيه حاجة جديدة ولاّ كلام عادى

وشعرت بأنه يريدنى فقلت له فى جفاء قبل أن أخلع ملابسى أمامه:

- لوسمحت عايزة أقلع
- هوّ أنا غريب
- دلوقتى بتكسف منك
- حاضر ياستى

.. وقفل الغرفة وانصرف.. كنت أشعر أنه أصبح رجلا غريبا عنى، وفى الحقيقة عدت نفسيا بعد إندماجى فى عملى هذا لاأطيق أن يرانى عارية.. بل كنت لا أطيقه بالمرة.. إرتديت ملابس البيت.. ملابس سيدة عادية كأننى إمرأة مطلقة أو أرملة بلا زوج.. كان هذا شعورى.. وارتميت على فراشى زهقانة.. قرفانة.. وقطع علىّ ضجرى بطرقه علىّ الباب بشكل مؤدب.. حيث كان يطرق طرقة واحدة ثم يسكت قائلا: عايزك قبل ماتنامى يانور عينى.. فقلت فى نفسى حرام أن أنهره.. ريّحيه ياسهير.. فبادرته قائلة:

- خش ياعبدالحميد

جلس على حافة الفراش وقال وهو يتحسس الكلمات:

- أنا عايزك.. وراح يمسك بأصابعه المرتعشة أصابع قدمى..

فقلت متثائبة:

- وضّب الحمام
- طيب شوفينى الأول
- لا أنا تعبانه النهاردة ومش طايقة حد يلمسنى
- أروح فين
- روح لمرات شلاطة بتاع القهوة
- وعرفت منين
- الناس كلهم قالوا لى
- أنا باضحك معاها بس.. لكن صدّقينى مافيش حاجة.. ماخونش مراتى أبدا
- ربنا يخليك ياعبده.. إنت شايف مراتك بتعمل إيه..

- بتعملى كل خير لينا.. خليتنا بشوات.. على فكرة.. وسكت
- على فكرة إيه.. كمّل؟!
- عايز زيادة فى المرتب
- كل ده على الشيشة
- الشيشة.. سندوتش.. حاجة ساقعة.. برضه نعوشينى شويه
- إنت بتاخد كام
- متين وخمسين
- زيادة ميه كويس
- ياحبيبتى
- هات الشنطة من الدولاب

.. فقام وناولها لى.. فتحتها وناولته رزمة من النقود الورقية كان شريف قد دسها فى حقيبتى وأنا أرتدى ملابسى.. وقلت له:

- عد
- يانهار إسود.. كلها عشرات
- عد ياعبده
- ولما إنتهى كان يلهث وقال:
- ألف
- دول تعبى النهاردة ياعبده
- يعمر بيتك.. يعنى كل يوم ألف
- لأمش بالشكل ده.. ماقدرش كل يوم أتعب زى النهاردة.. ياريت ماتحسدنيش ياعبده.. إدعيلى.. خد منها ميه مبسوط..

.. أخذ المائة وأعاد بقية النقود إلى الحقيبة ثم وضعها فى الدولاب قائلا:

- هاروح أوضّب الحمام
- متزعلشى منى ياعبدالحميد.. مش عايزه أتعب وأنت ممكن تتصرف.. خليك مع مرات شلاطة أنا موافقة لأنى مش هاقدر أدّيك حاجة.. خلينى كل يوم أقدر أعمل حاجة.. كله ليكم ياعبده

... وذهب إلى الحمام وهو يهز رأسه وكان سعيدا.. كان كلانا مكشوفا للآخر وكان الرضا هو سلوكنا الواضح وكأن كل مايحدث شئ عادى وضرورى وعلينا قبوله

والإندمـاج فـيـه.. وكنت أندهش مما يحدث وفى نفس الوقت أقـول لنفـسى ولماذ الإندهاش.. وضربت كفا بالأخرى هامسة أحدث عالمى:

- ياغلبان ياعبدالحميد .. ياترى فيه كام عبدالحميد زيّك فى البلد ..

-٥-

كانت ثمة بطالة فى البلد.. واستاقت البطالة الناس إلى العاصمة من أجل الحصول على أى عمل.. وكان منظرا مألوفا أن تجد مجموعات صغيرة من الرجال والنساء يتسكعون هنا وهناك فى محاولة للعثور على أى شئ يحصلون منه على المال، وكان بعض الفلاحين والصعايدة يظنون أنهم قد يجدوا فى أكياس وصناديق الزبالة شيئا ألقى به بهوات القاهرة. ولايعرفون أن القاهرة لم يعد بها بهوات.. حتى هؤلاء البهوات الذين كانوا فى الماضى يقطنون الزمالك وجاردن سيتى عادوا فقراء ولايجدون لأبنائهم عملاً وعادت دخولهم بالكاد يعيشون منها.. وكثر المتشردون الذين لا مأوى لهم فناموا تحت سيارات النقل فى الأحياء الشعبية وفى عربات القطار وفى مداخل وورش محطة السكة الحديد المتهالكة.

وكان من الطبيعى أن يناموا فى الحدائق العامة ويقيموا بها فى أى وقت، يأكلون ويشربون ويتسامرون أوقات النهار ويتبرزون حولها خلف حائط قديم أو فى مداراة كشك مقفول هجره صاحبه أو فى داخل مركبة صدئة لايقبل تاجر خردة حملها إلى مخزنه.. وكان هؤلاء على موعد كل صباح وقبل أن تطلع الشمس فى فعل هذا الإخراج النتن والذى كانت تتطاير كرات دخانه إلى طبقات الهواء العليا فتتوزع على أحياء القاهرة، وكان هذا الدخان الملوث أحد أسباب انتشار السحابة السوداء فى سماء العاصمة من ليلة لأخرى، هكذا كان يقول العابرون من موظفين وموظفات ومن طبقات الشعب الأخرى الذين كانوا يمرون من هذه الطرق ذاهبين إلى أعمالهم أو عائدين، وانتشرت هذه المقولة فى هذه المواقع من الناس الذين يشاهدون كل صباح عُرَم هؤلاء القوم.. حيث قال كثير منهم فى كل يوم لبائع الصحف الذى تعودوا الحديث معه والذى كان أكثر المتضررين من هذا الدخان ومن روائحهم الكريهة.. علينا أن نذهب إلى وزير البيئة لنبلغه بالسبب الحقيقى لوجود السحابة السوداء.. علينا جميعا أن نذهب إليه لنأتى به كى يشاهد هذه الفضلات السمينه فى مواقعها الحقيقية، إن من واجبنا أن نأتى بهؤلاء الوزراء جميعا ليمشوا فى شوارع القاهرة بدلا من ركوبهم السيارات الفاخرة.. ليتعرفوا على مدينتهم.. كيف يعيش هؤلاء الناس ثم كيف يتشردون ويتسولون

ويسرقون وينحرفون.....

كنت واحدة من هؤلاء.. واحدة من هذا الشعب الذى كان يجب عليها أن تمشى بجوار السوق كل صباح حتى تجد تاكسيا يوصلها إلى عملها، كنت أرى هؤلاء العاملين فى السوق يعملونها حول الأسوار وعلى مرأى من سكان المساكن المجاورة.. وعلى عينك ياتاجر أمام المارة مثلى.. هؤلاء العاملون يفعلونها فماذا تنتظر من العاطلين الذين ساءت أحوالهم.. إنهم فى الغد سيقومون بأعمال شائنة.. مراقد وغرز وشلل بأعمال بالية منتشرة فى كل مكان حتى أنها قد بدأت تدخل على أسواق وسط البلد وتهجم على قلب المدينة..

- وفى مساء كل يوم قبل وصولى إلى باب الشركة كنت أتأمل عمال الريجيسير الذين يعملون فى السينما وهم ينتظرون أى مخرج يأخذ واحدا أو مجموعة منهم يلزمه فى دور بفيلمه.. كانوا جميعا يجلسون على الأرض أو واقفين بجوار كشك أو عربة كشرى أو فى مجموعات يدخنون السجائر ويبصقون على الأرض، أصوات عالية وكلمات فظة وعيون مفنجلة أو منتفخة من شدة المعاناة وطول الإنتظار لا يختلفون عن هؤلاء الذين يقيمون فى الحدائق أو عربات القطار.. غير أنك تستطيع أن تقول أن هذ الريجيسير متحضر قليلا عن سابقه لكنه أكثر إنحطاطا.. وجميعهم يرتدون ملابس غير نظيفة من رجال ونساء وفتيان وفتيات وينتمون إلى أحياء شعبية فقيرة.. ولامانع فى إنصراف أى منهم إذا أتته حسنه من هنا أو هناك فإنه يغادر فرحا بها.. ولقد تعود بعض الموظفين الذين ينصرفون فى الليل من شركاتهم أن يقفوا مع بعض الفتية والرجال من الريجيسير بهدف الحصول على فتاه أو إمرأة تعجبه من هؤلاء الريجيسيرات اللائى يجدن صعوبة فى الإنتظار كل ليلة ويعدن إلى بيوتهن فى ساعة متأخرة من الليل وهن خاليات الوفاض..

.. فى الشوارع أشياء غير جديرة بالإحترام وفى هذه الشركة ناس رجال ونساء يضحكون بلا معنى، كان هناك فراغا فى حياتهم فلما جاء كل منهم إلى مقر هذه الشركة وجدوا جميعا أنهم كانوا يبحثون عن شئ وجدوه فيها.فتيات وسيدات فى المصنع والإدارة كأنك جمعتهم من الملاهى.. الملابس الضيقة المثيرة والصدور العارية والوجوه المتبرجة بلا حياء، وكأنّ ضوء النهار فى يوم تهب فيه الرياح الصفراء هو لون نفوسهم ووجوههم التائهة وعبونهم الزائغة ..

.. وفى يوم كنت أدخل غرفتى ومعى أوراق كثيرة ولم يكن شريف قد وصل بعد.. فإذا بالمحاسب صلاح زكى مدير مالى الشركة يقف عند الباب وقد مد يده لى مصافحا

وهو يقول:

- أهلا ياست الكل.. تحت أمرك

- أهلا أستاذ صلاح.. خلاص إتفضل معايا شويه

ودخل خلفى وجلس فى مقابلتى وقال وهو ينعدل فى مقعده:

- يعنى سعادتك من زمان فى الشركة وما حاولتيش تتعرفى بىّ.

- أبدا ملخومة على طول فى المصنع ومع الباشا.. زى ماانت شايف

- ممكن نتكلم باللغة العربية.. بلاش العامية

- نتكلّم زى ما الناس بتتكلم فى حياتهم.. خلينا فى لغة السوق

- كل واحد يتكلم بطريقته

- مش دى القضية

- يعنى أنا المدير المالى.. عصب الشركة وعقلها.. ولقد فرحت كثيرا بوجودك على أساس نتعاون من أجل ضبط الأمور فى هذه الشركة

- كلامك جميل من النهاردة نتعاون

- عملت نظام جديد لحسابات العملاء وتحليل المبيعات وتوجيه المدفوعات والمقبوضات بالخزينة وإدارة أوراق القبض فى الشركة والبنوك.. لكن!!.. وسكت

- لكن ماذا؟!

- عملت قاعدة تحتية وقوية فى المحاسبة.. لكن هل يكون العمل المالى قويا وكاملا بدون أستاذ عام وميزان مراجعة وأرصدة ثم ميزانية بتحاليها آخر العام.

- لكل عمل قاعدة تحتيه وقاعدة فى القمة.. إذا كانت القاعدة سليمة يكون قمة القاعدة سليمة بالتبعية.

- الشئون المالية هنا.. القاعدة التحتية معى.. قمت بتطويرها بشكل كبير ولكن كثيرا من القاعدة التحتية للعمل المالى ليس معى.

- مثل ماذا؟

حسابات الرسائل المستوردة وحسابات البنوك بالكامل

- لماذا؟

- الرسائل الإستيرادية بجميع مستنداتها وأوراقها وفواتيرها مع الأستاذ شريف فى السيارة الشيروكى.. وسكت.. فقلت:

- وحسابات البنوك.. أقصد كشوف البنوك والإشعارات الخاصة بالحركة..

- أيضا مع شريف
- هذا معناه أن معك نصف الشئون المالية والنصف الآخر مع شريف
- بالضبط
- خلاص إشتغل اللى معاك
- عايز أعمل شغلى بالكامل
- همّ حرّين.. دى شركتهم يعملوا اللى عايزينه فيها
- هيّ المشكلة عندما سمحوا لى بالإطلاع على كشوف حسابات البنوك بهدف إيجاد حلول لسداد المديونية منعونى من عمل قيود محاسبية وألاّ أطلع والد أسامة بيه بهذه الكشوف لأنه لو إطلع عليها هايحرق الدنيا.. هكذا أبلغنى شريف
- تقريبا شريف هو المتحكم فى كل أمور الشركة
- نعم هو محاسب أصلا واشتغل فى البنوك.. عارف لعبة البنوك.. وأسامة ساقط ثانوية عامة ومش عارف أى حاجة.. وكل مؤهلاته العنطزة والكبرياء وانبوردى جارد.. كل مهمته كيف يصرف فلوس البنوك فى الملاهى.. وكيف يتزوج من كل مطربة أو ممثلة تروق له
- ياخسارة كل يوم إعلانات فى الجرايد تقول رجل الأعمال أسامة كمال..
- خيبة.. وهو أكبر ولد صايع فى البلد.. لكن الفلوس بتعمل الكلب أسد
- ياريتها فلوسه.. دى فلوس الناس الغلابة.. مش كده برضه
- بالضبط كده مش مشكلة فلوس مين.. لكن ياباشا يالّلى عامل راجل أعمال.. هل عملت مصنع حقيقى ينتج سلعة سليمة تنافس حتى فى السوق المحلى فقط.. المصيبة إنه ماعملش حاجة.. شقة فى المعادى بيزنى فيها، حتى الأرض الزراعية بتاع أبه مش عارف يزرعها.. والمصنع آخر بوظة إبن عمته وابن خالته عاملين عمايلهم مع نسو ن الفلاحين.. فلوس الشرفاء الغلابة فى البلد بتاخدها البنوك علشان تديها لناس بهذه الصعلكة.
- والعمل

... وسكتنا قليلا.. كانت عيناه تموران بالرقة والعذوبة رغم أنه يتكلم بعصبية، لكن يبدو أنه رجل يملك بصيرة نافذة من طريقة كلامه.. وقلت وأنا أهز رأسى لشعورى بمرارة:

- ممكن أشوف معاك كشوف البنوك
- أوى أوى

وخرج المحاسب صلاح إلى مكتبه.. كنت حائرة متوجسة وأيقنت أننى وقعت ماحدّش سمّى عليه.. كما يقولون.. وعاد الرجل ومعه ثلاثة عشرة كشف حساب راح يقرأ وكلى آذان صاغية «الأهلى المصرى، العربى الإفريقى، المصرى الخليجى، مريكان إكسبريس، الوطنى المصرى، أبوظبى، بنك مصر، المصرى المتحد، المصرى لامريكى، فيصل الإسلامى، المهندس، بى إن بى بارابيا» كان يقول اسم البنك والرصيد لدين.. وقمت بقيدها فى ورقة وجمعتها على الحاسبة.. كانت مديونية الشركة مائة أربعون مليون جنيه.. فقلت للمحاسب صلاح وأنا أكاد أخلع حذائى لأضرب به نفسى:

- إن ذلك كابوس ثقيل.. وكم تبلغ الفائدة السنوية على قيمة هذه القروض تقريبا

- لن تقل الفوائد عن سبعة مليون فى السنة

- وكم تستطيع الشركة أن تسدد إلى البنوك شهريا

...إبتسم فى حسرة وكسا وجهه أسارير متجهمة كأنه يريد أن يضحك بصوت عال يفك شدة حزنه لكنه سرعان ما تمالك مشاعره المتضاربة وقال:

- إننا نصرف الرواتب والأجور من البنوك

- وتسديدات العملاء

- ضئيلة ونجد صعوبة كبيرة حتى نحصّل كمبيالة من عميل.. العميل يعمل فضيحة احنا نعمل فضحتين.. والمناديب بتوعنا خونة بيتفقوا مع العملاء علينا لأن مفيش ولاء لشركة ومافيش ولاء لأن الشركة لا تعطيهم حقوقهم إلا القليل منها

- خلاصة الكلام.. زى ماتقول كده مافيش إدارة

- بالضبط ماقيش إدارة.. صاحب الشركة زنديق وزان وقمرتى وخمورجى وحشاش وقليل الأدب وبيسب الدين ولايصلّى ولايصوم.. كل ما هو حقير فى أسامة كمال.

- وسايبينه عايش

- مين اللى سايبه

- حق الناس كلها تخلص من واحد زى ده

- والناس مالها

- علشان الظلم اللّى جاى منه

- كل واحد بيقول وأنا مالى

- هى المشكلة الناس اللى بتشتغل وفاتحه بيوتها من نصّاب ييجى غيره علشان يجيب فلوس من البنوك

- بس دى فوضى
- طيب فين الشركة المحترمة فى البلد
- أكيد فيه
- من ثلاثين سنة باشتغل محاسب مالقيتش واحد صاحب شركة محترم
- والسبب
- فيه حاجة غريبة بتخلّى الناس دى تعمل كده
- طبعا.. الناس دى كلها كانت جعانة.. طالعة من بيوت جعانة الشبعان عمره مايعمل كده
- طيّب أسامة أمه كانت بنت باشا وعندها خمسين فدان.. ماكانش جعان
- أيوه.. لكن جده الباشا كان راجل محترم.. كان مسئول عن كل واحد فى البلاد اللى حوالين عزبته.. أكل وكسوه ومساعدة فى الزواج ومشاركة فى الضراء. وعلى فكرة العيب على أبوه
- إزاى
- أبوه طول عمره زانى وماعرفش يربيه
- ياعزيزى دا كل الناس الغنية بتزنى.. إنت بتقول الكلام ده إزاى
- آه.. إنت شايفة الظاهر بس.. آه لو الناس تعرف معنى الطهارة .. آه لو كان راجل محترم كان كفاية عليه يزرع الخمسين فدان... ولا كان فيه داعى للمصنع والبنوك
- برضه العيب على البنوك
- لأ العيب على النفوس.. نفوس اللى زى أسامة واللى زى الناس اللّى فى البنوك.. كله عايز يركب الشبح.. الطمع والجشع مابقاش لهم حدود
- وبعدين
- نحاول نحل أى مشكلة فى الشركة والباقى على الله
- نحاول
- طيب نكمل إمتى
- بكره
- مش فى الشركة
- نروح فين
- نقعد فى نقابة المعلمين

- إشمعنه..!!
- مكان هادى والطلبات هناك رخيصة على أدّنا
- خلاص النهاردة الساعة كام
- بينا تليفون.. هاكلمك

.. ولما انصرف صلاح زكى كنت مثقلة بأحزان كثيرة وأيقنت أن الشركة خرابة قامت على قش، وأن أكبر شئ فيها عملية الإقتراض من بنوك مصر كلها، وشعرت بأنى أختنق فى هذه الغرفة فانطلقت إلى الرواق الموصّل إلى غرفة الذين يقولون عنه الباشا وأسندت رأسى إلى زاوية من زوايا الحائط المستدير والذى يوصل أيضا إلى غرفة السكرتارية أسندت رأسى بقوة وأطلقت العنان لدموعى دونما إنتحاب،ولأول مرة فى هذه الشركة أشعر بأننى خائرة القوى وكان شئ يكاد ينهار فى قلبى لكن صوت دموعى كان يتناهى إلى سمعى،وكانت فتيات السكرتارية يتكلمن بصوت عال ويضحكن وأيقنت أن اللص لم يأت بعد.. أقصد الذى كنت أقول عنه الباشا وكانت الفتيات خاصة هايدى وأحلام يعشن دور التلطف والجو العاطفى مع كل الشباب ورجال الشركة اللائى يملن إلى فتيات مدللات متبرجات، وكان الذى كنت أسميه باشا يأمرهن عندما يدخلن إلى الشركة أن ترتدى كل منهن بلوزة تظهر صرة البطن.. بمعنى أن الجزء العلوى من الحزام وفى مساحة لاتقل عن عشرة سنتيمتر من الأمام والخلف عارية تماما عندما تقوم الفتاة وتمشى وتتحرك بين الغرف، وكانت أكثر الغرف تأثرا بعرى البنات غرفة المالية لوجود عدد كبير من المحاسبين ومعظمهم لم يتزوج بعد.. كان اللص الكبير يهوى أن يرى بطون الفتيات الصغيرات عارية،وكان يريد أيضا أن يرى العميل هذا العرى حتى يكون العميل تحت تأثيره.. وكان يطلب من أى فتاة أن تتعرى وتجيب على الآخر أمام العميل فهى التى تأتى بملف العميل من محاسب العملاء وهى التى تفتح الملف، وهى التى تنحنى أمام العميل لتعطيه ورقة أو تناوله قلما وفى كل هذه الحركات يظهر البنطال الضيق مفاتن ساقها وبروز مؤخرتها المثير وصدرها الذى يبرز نهديها فى تحد.. وكأن الفتاة تقول للعميل كلمات.. تحت أمرك أطلب إحنا شركة مودرن.. إنت هنا.. إحنا أحسن شركة فى مصر.. وكان كثير من العملاء يرتدى الجلباب أو جلباب وفوقه بالطو أو جاكت وكان معظمهم لم يحصل على الإبتدائية، فكانت هايدى أو نادين أو أحلام بالنسبة لهم فاكهة.. حيث كان العملاء يفصحون بكلمات أمام هذا الباشا يمتدحون الشركة ويتنغمون بجمال الناس خاصة

السكرتيرات... كأن يقولون.. شركتك ياباشا مافيش زيها فى مصر.. وتحت تأثير العرى . بتجيب الجمال ده كله منين ياباشا وأنا روحى بتعيش لما آجى عندك يديم ياباشا.. تعيش ياست هايدى.. تتجوزى إبنى ياأحلام.. تتجوزينى يانادين مهر ز ماتطلبى.. كانت الفتيات تسعد والباشا المزيَّف يسعد،وفى النهاية يحصل العميل عا أكبر المزايا كأن يوزع له بضاعة راكده أو معيبة أو يجدول مديونيته فى فترة قصيرة يحصل على بعض المبالغ النقدية كمقدمات ولاأحد يتعجب أننى فى وقت لايتجاوز ر ساعة وأنا أبكى ورأسى على زاوية الحائط قد تذكرت كل الذى يحدث مع العملاء،وأ ماتقوم به فتيات السكرتارية لدور مذهل فى مد طول عمر هذه الشركة التى أقامو صاحبها على النصب ومازال يقيمها ويحاول إطالة أمدها بإغراء هؤلاء الفتيات للعملا ولغيرهم من الرجال الذين يقدمون للشركة مصالح، وكانت هناك غرفة صغيرة ليس بها أحد.. هذه غرفة الأدوار حيث تقوم تلك الفتيات باستكمال الحديث والحوار ، العميل أو غيره من الرجال وذلك بسين من الباشا إلى شاب يدعى مصطفى والذى كا يعمل كحلقة وصل بين الباشا والسكرتيرات فكل واحدة منهن لها عملائها ولو رجالها وفى هذه الغرفة يستكمل أداء الواجب.. تتواعد السكرتيرة مع العميل خار الشركة، والعميل الذى ليس لديه مكان فى القاهرة كان مصطفى يتدخل بتقديم شق للعميل أو لأى رجل يؤدى مصلحة للشركة، وكانت شقة مصطفى تقع فى باب الشعر بأحد البيوت القديمة. وكان دخل مصطفى منها لا يقل عن ألف جنيه شهريا يأخذه من العملاء والنزلاء أو من ليس لهم فى المدينة بيوت..إستغنت كل فتاة عن كل ش حتى ترضى زبائنها وتحصل على المال الذى تريده، وكان مصطفى هذا ينسق الأدوا ويوزعها على البنات ويتواعد مع العملاء وغيرهم حتى يستقبل هؤلاء القوم فى شقته ودوره تعدى هذا بكثير حيث كان يأتى بنساء أخريات للباشا وشريف بيه.. ومصطفى هذا من إحدى قرى ديرب نجم شرقية وأول من عمل فى حسابات العملا لكنه فشل فيها لكونه سارقا.. كان يسرق الشركة ويسرق العميل ولما جاء صلاح زكى كمدير مالى إكتشف أمره، وأبلغ ذلك للباشا الذى أقاله من حسابات العملا ليعمل معه فى العلاقات العامة فهو موهوب فيها ويجيدها..

ولاأعرف لماذا سردت كل هذه الأدوار فى مخيلتى وأنا أركن برأسى على حائط أصم وأننى مازلت أبكى.. ويبدو أن هدوء الزواق من المارة فى مثل هذا الوقت وعدم وجود اللص الكبير وشريف بالشركة أضفى كثيرا من الهدوء بل وأن يلهو أو يسرح

كل واحد مع نفسه.. لم يأتنى أحد ولم تقلقنى فتاة السكرتارية الفضولية أحلام.. تلك الفتاة صاحبة الإمكانيات العالية.. تلك المرأة التى مازالت فتاة أمام أهلها وسكان حيها بل وفى نظر كل واحد من الشركة.. عدا أنا حين أبلغتنى أنها تفعل هذا لترضى الباشا ولتستمر فى عملها.. فيه قرش حلو هنا ليه نسيبه.. هو حد يسيب الجاتوه، هكذا قالت لى وهكذا بدأت أعرف حكاية كل واحد فى هذه الشركة عدا صلاح زكى.. ولما عدت إلى غرفتى جففت دموعى وهاتفت شريف لأخبره بأننى سأنصرف فى الثامنة فوافق وأخبرنى بأن نلتقى غدا بالشركة فى حدود الساعة الخامسة ومضت دقائق بعدها هاتفنى صلاح زكى من غرفة المالية الملاصقة لغرفتى وذكّرنى بموعده معى فى نقابة المعلمين بالجزيرة وأنه سيكون هناك بعد نصف ساعة.

كان رجلا يبدو ودودا مهذبا، وكان حديثه لبقا ومرتّباً ولم أسأله فى البداية سؤالا واحدا لكنه راح يسترسل قائلا:

ـ لمعلوماتك ياسيدتى الفاضلة كل الأصول التى يمتلكها هذا الزنديق لا تتجاوز خمسة عشر مليونا بما فيها أرض أمه والمخازن، والمخازن معظم بضاعتها تالفة ومعرضة للشمس والمطر صيفا وشتاءا، ولو كان عنده أقل قواعد الأخلاق على نفسه لحافظ على المال الذى اقترضه من البنوك وأنشأ مخزنا راعى فيه كل قواعد المخازن، وكان رجال البنوك فى قسم البضائع دائمى ملاحظتهم بذلك وهو لا حياة لمن تنادى.. وسكت وقد تبرّمت شفتاه وراق له أن يتأمل بواخر النيل وكوبرى قصر النيل وحديقة الأندلس التى تقع فى مقابل النقابة وشعرت براحة نفسية لا حدود لها عندما خاطبنى بأننى سيدة فاضلة وأنه لو عرف كم عانيت من إحباط فى الأيام الماضية لكرر مخاطبته لى بأنى سيدة فاضلة، أكيد كان سيفعل إنه رجل يبدو نبيلا وعندما كنت أعتقد أن الطبقة المتوسطة فى بلادنا لم يعد فيها أحد، أيقنت الآن أنه مازال هناك رجال فيها، أهناك نساء مازلن فيها؟ إن كل شئ كان مهيئًا فى بلادى لأن ينقض الأغنياء.. أعنى لصوص البنوك على نساء الطبقة الوسطى وأن يشرّدوا رجالها ويستعبدوهم.. ورحت أنا الأخرى أتأمل أرتال السيارات خاصة الفاخرة منها التى تتجه إلى حى الزمالك ويبدو أنه لاحظ ذلك فتركنى قليلا ثم أردف:

ـ قيمة الآلات والأدوات والعدد كانت قيمتها الشرائية لا تتعدى المليون جنيه فى بداية عمل المصنع وجميعها مستوردة من الصين لايمكن مقارنتها بغيرها مستوردة من ألمانيا أو اليابان.

ـ ألا يمكن معالجة المخازن.. نقوم بفرز البضائع ونقيم سورا حولها ونعمل لها ستة من الجمالون

ـ كل شئ ممكن لوكان يريد ترتيب وإصلاح حاله لكن المشكلة أنه تائه.. الحرية ضيعته والخمر هلك رأسه والحشيش جعله متهور، وفى الآخر سوف يقول لنا إسألو محمود وفتح الله طبعا محمود مش عايز أى إصلاح وقلنا مرارا.. وكان رده أن هذ سيكلف كثيرا.. وفى رأيى أن تكلفته عادية ولكن عائدها يبقى دائما سنين طويلة ويحافظ على البضاعة..

ـ محمود ابن عمته وفتح الله يطلع مين

ـ إبن خالته.. خالة تعبانة كانت بنت واحدة من البلد إتجوزها جده، الناس كلها تحكى أن جده الباشا كان رجلا محترما مسئول عن كل فقير ومحتاج فى كل النواحى المجاورة وكان يركب حصانه بالليل ويدخل به الحوارى ليقدِّم معونة لكل محتاج ولايوجد أحد فى هذه القرى إلا ويدعو له بالرحمة.. رجل كان ماله هو مال الله ولذلك أرضه عاشت بعد أن مات لأنه زكّاها، ومع هذا الزنديق مازال إرث أمه.. ولكنه لايعرف حتى كيف يزرعها حتى الآن والفلاحين بيضحكوا عليه.. كفاية عليه الآز الإعتداء على نسائهم وبناتهم الجميلات.

ـ نحن الآن نترحم على ناس زمان الأصلاء، وناس هذا الزمان لانستطيع أن نتكلم عنهم لأننا نعمل عندهم. إننا فقط نتافقهم حتى نحصل على مصالحنا، وكل منا يبحث عن أسرع الطرق للحصول على هدفه ولكن أين مصلحة مصر؟ مصلحة الأمة إذًا هناك عبودية جديدة ملكوها لصوص وأفاقين وزنادقة ونحن رضينا بعبوديتهم لأننا نبحث عن مصالحنا.

ـ طبعا الفقير زاد فقره والطبقة المتوسطة إنهارت بالفعل وكان على الذين يمسكون بالسلطة أن يحافظوا على الطبقة الوسطى لأنها عصب المجتمع ونوره،وحماية الطبقة هذه من مصلحتهم لأنها طبقة تحميهم وتعضدهم فمنها المحاسب والمهندس والمدرس والقاضى والضابط.. الفوضى جت من فوق، جموع الشعب تضرب بالكرباج فتجرى، منهم من يختبئ خلف جدار، ومنهم من يلقى نفسه فى النيل والترع ومنهم من يسرق رغيف وآخرين يسرقون أموال الشعب من البنوك، وغيرهم يرتشى من وظيفته ليعيش، والفلاحين باظوا وركّبوا دشات وبيسهروا للصبح، وكان عيب على أيدِ الفلاح الخشنة تصبح ناعمة وهو فلاح وماعدش فيه فرن واحد فى بيت يخبز عيش

لرى يمرى زى زمان.. كله بنى المسلح.. ياستى كل واحد عايز يبقه بيه وكل واحد
لى أده.. شوف الخيبة فى القرى واقفين طوابير على الأفران.. مفيش حد بقه ينتج..
زلكة وأنتكة حتى الفقير عرف الفزلكة، آه يافقير لوظللت تنتج.. عندك فرن وتروح
غيط من الفجر وماتسهرش فى القهوة.. كنا هانقول إن عندنا قاعدة إجتماعية فى
بلاد زى ماهىَّ لم تتغير، لكن كله تغيَّر وكل واحد لبس توب غير توبه.. أسأل سؤال
ن الذى دفعنا إلى هذه السطحية؟ من الذى ساقنا إلى هذه الإمعة؟ من الذى جعلنا
ننتج القمح فى الصحراء ليكفينا دقيقهُ؟؟! من الذى جعل الفزلكة والأنتكة تصل إلى
فلاح والفقير؟ من الذى جعل أولاد البلد يتحولون إلى نصابين وأفاقين وقوادين؟ من
ذى جعل كل أصحاب الشركات الخاصة يطردون العاملين فى شركاتهم دون سبب
يتشرد الناس فى الشوارع لتصبح البلاد كلها قد تتحول إلى باعة جائلين، من يحمى
شعب من أهله؟ نحن ياسيدتى أمام قضايا خطيرة.. من يوقف هذا الزنديق.. من
مسك الكرباج من أيدى الخونة لأنه كفى ضرب هذا الشعب.. وصلنا جميعا إلى ذل
ى جمود لايجب أن يكون فى الحياة، قبضات السادة تعصر رقابنا وتخنق أنفاسنا
هل تعيش الجثث؟ أكبر شئ فى حياتنا الخوف.. إننى أخاف كل صباح وطيلة الليل
خاف كل ساعة من النهار أخاف من شعرى فوق رأسى.. أخاف أن يأكل الأولاد
لجبن فى ليلة واحدة فمن أين آت بجبن لهم فى الصباح.. وسكت..

.. كنت أريد أن أصرخ لكن الله رحمنى بالدموع، كنت أدارى دموعى من المدرسين
المدرسات الذين يجلسون حوالينا.. لكن يبدو أن كل واحد يعيش واديه. وانتبهت إلى
ذا الرجل وقلت له فى إعجاب وتقدير:

- كل هذا فيك ياأستاذ صلاح
- الطفل فى النجع عارف الكلام ده.. الفرق الوحيد إن أنا عرفت أعبَّر عن المناخ
- وبعدين
- نرجع لقضيتنا الصغيرة.. هل ممكن نعالج أمور الشركة؟
- إذا توقف باشا هذا الزمان عن أفعاله
- عمره ماهيبطل
- والعمل
- نعيش زى الناس
- علشان كده أنا إختصرت الطريق

- بتاخدى كام
- ثلاثة
- زيى
- بلاش نحسد بعض
- أنا باتكلم عادى
- تفتكر هانعمل حاجة
- الشركة مليانه لبش، فيه واحد بودى جارد شغلته التجول فى الشركة علشان ينقل كل حركة عن الموظفين وأحلام وهايدى بينقلوا كل حاجة، وسعادة اللواء ماسك العلاقات العامة بس ده ذنبه على مستوى علشان يحلل ألفين ونص كل شهر
- كلامنا كله فى البطّال وماحدش هايعمل حاجة لكن لما إنت حر أوى كده قاعد ليه
- علشان أكمل ديوانى.. ومافيش شركة تانية أروحها البلد قفلت
- ديوان إيه
- أنا شاعر ولى خمسة دواوين شعر فى السوق
- ياه علشان كده إنت ثائر أوى لكن ثورتكم كلها نظرية كلام بس،فين الشعر زمان كان حر وعلى أد كلامه،شعراء هذا الزمان كتير منهم ينافق علشان يتغدى.
- المفروض أكون شجاع وأدخل أقول للباشا أسامة إنت وإنت أقول له الحقيقة لكن المشكلة بعد هذه المواجهة الصريحة لأنى هاقول له كل حاجة هااكون فى الشارع.. أأكل ولادى منين وأجيب تلات تلاف جنيه منين كل شهر، الوضع العام جعل الناس كلها تتعلم الصبر.. فى الحقيقة كل الناس بقت أندال وسوف أجد شركة أخرى بإذن الله
- إذا لابد من الرحيل
- ضرورى هذه الشركة كباريه
- وضّح لى الأحوال أكتر أفصح ياسيدى
- أخشى أن تكونى جاسوسة،أرجوك لاأريد أن أفقد عملى قبل العثور على عمل آخر
- أقسم بالله لست ذلك
- كل الناس بتحلف
- على العموم أجرى على الله.. عايزه تعرفى إيه
- عن كل واحد فى الشركة
- الباشا معاه إعدادية.. ومش عيب المهم يكون دماغ وكتير من رجال الأعمال فى

مصر ليس معهم أى شهادات ولكن بيشتغلوا حلو أوى

- إيه رأيك تتكلم باللغة العربية طالما أنت شاعر

- موافق ماذا تريدين بعد

- أخيب باشا رأيته فى حياتى.. حياته تدور فى أربع محاور.. الشبح، الملاهى، تغيير بنات السكرتارية كل أربع شهور، النصب على البنوك.. ومن مظاهر النصب الكبرى البودى جارد أمامه وخلفه

- من الذى يسيره ويديره

- شريف وزوجته يديران الأمور لمصلحتهما تماما.. شريف هنا فى الشركة والبنوك والمصنع، وزوجته هناك مع عشيقته أو زوجته فى شقة الزمالك وماخفى كان أعظم!

- أفصح ياسيدى الفاضل

- زوجة شريف الباشا يرافقها بصفة دائمة، فهى تعمل كالوصيفة لرفيقته.. ورفيقته .. هذه لاتدوم فكل عام تقريبا له رفيقه جديدة، فى أول حياته كانت رفيقته راقصة مشهورة بعدها راقصة مغربية كانت تعمل فى ملاهى القاهرة والإسكندرية وأقعدها فى البيت بعد ذلك، وهذه المغربية حولت دولار إلى أهلها فى حدود إثنين مليون جنيه. بعد ذلك جاء دور الممثلة الصغيرة المشهورة وهى ممثلة درجة أولى لهفت مليون جنيه، وهذه الرابعة المطربة التى زاع صيتها فى الشرق.. هذه غالية جدا وتزوجها عرفى وهذه الأخيرة لهفت حتى الآن تلاتة ملايين جنيه.. أما قبل ذلك فله صولات وجولات قبل الإقتراض من البنوك...

- أنت تعرف عن حياته الخاصة أكثر مما تعرفه عن حسابات البنوك، سمعت أنهم أبعدوك عنها

- بالضبط كل واحد هنا يعرف حكايات عن هذا الباشا الخائب أكثر مما يعرف عن عمله أنا أقوم بنصف عملى فقط، ولقد أصلحت الكثير من عمل الشركة المالى

- وماذا عن حسابات الرسائل الإستيرادية

- هذه أيضا مع شريف فى سيارته الشيروكى

- إذاً هناك أسرار

- أسرار كتيرة.. أعتقد عرفت كل شئ..

- عرفت وتعلمت كثيرا من حكايتك

- وماهو دورك ياسيدة سهير

.. إستولى علىّ الصمت هنيهات وحدّقت فى وجهه دون أن أنبس بكلمة، ثم قلت بصوت عميق وخفيض:

- إن الذى أتى بى إلى هذا المكان زوجى وأبنائى

- من أجل مواجهة الحياة

- زوجى مازال لايجد عملا

- مؤهلاتك عالية ياسهير

- مرسى.. تعتقد ماذا سيكون دورى فى البنوك؟

- أكيد سيتعاملون مع بنوك جديدة.. أو أنهم سيستخدمون أوراقا جديدة فى التعامل مع البنوك القديمة

- لكن ماهى حكاية البضاعة؟

- البضاعة ونفس المخزن مرهون لإثنى عشر بنكا

- ألا يوجد هناك مراجعة ؟

- موظفى البضائع فى البنوك معظمهم من الشباب، إنهم يتغاضون عما يحدث لايرون شيئا بالغا، والبركة فى شريف بيه.. الظروف الحلوة فيها إكراميات زى الفل والغدا كباب والسلام عليكم.. وفى الآخر كله تمام

- وهل هذا يحدث فى شركتنا فقط؟

- كل الشركات المقترضة من البنوك خاصة بضمان البضائع لأن المراجعة فيها والشغل فى المخازن بيتوّه الناس كلها.. هذه الشركات جميعها فيها واحد زى شريف

- ماالذى تنصحنى به؟

- ألاّ توقعى على أية أوراق خاصة بالتعامل مع البنوك، وألا توقعى على الشيكات توقيع ثان.. لأن هذا ممكن يعملوه بعدين

- أهناك نصائح أخرى

- أخبرينى أولا بأول بما يحدث معك وبقدر ماأستطيع سأنصحك

.. ويبدو أن علاقتى بشريف وأسامة قد أثرت فى حياتى كلها وأصبحت أشتهى الرجال، تمنيت وأنا أنصرف معه وننزل درج النقابة المؤدى إلى الباب الكبير الذى يشرف على حديقة الأندلس،تمنيت وهو مازال يمسك بكف يدى حتى أنزل كل درجات السلم وتقف قدماى بأرض الشارع، أن آخذه إلى بيتى.. لكن ليس لى بيت

خاص بى.. لما لايكون لى هذا.. لقد أثارنى صلاح زكى رغم أنه لم يمسك بأى شئ من جسدى ولم يلامس إلا كف يدى.. تذكرت عندما كنت مراهقة وألتقى بإبن الجيران ويمسك بيدى.. ماأحلى أن تشعر المرأة بخفقان قلبها عندما تلامسها أنامل رجل تشتهيه..

.....

كان شريف قد أعد أوراقا جديدة للحصول على قرض، واستغرق ذلك وقتا طويلا ومقابلات مع أشخاص يتقلدون وظائف كبيرة فى هذا البنك، وكان المصرف يقع فى حى المهندسين، وفى كل مقابلاته مع هؤلاء الكبار كنت أنا ثالثتهم أتزين وأتعطر وأبرز جمال صدرى وأرتدى بناطيل ضيقة شفافة تثير أى رجل..

وكان شريف يمهّد ويتكلم ويوعد ويتمتم كل يوم فى أوراق جديدة حتى جاء يوم فيه إنتهى من تجهيز كل الأوراق والمستندات اللازمة لهذا الإئتمان، وكان القرض بضمان أوراق تجارية، ولما كان شريف يظهر أننى سأقوم بدور مهم جدا وأن علىّ أن أطلب ماأريده من الشركة وأنه سوف يبذل قصارى جهده للحصول عليها من أجلى، وكان دائما يقول واحدة بعد واحدة غير أننى إنتويت أن أعقد معه تلك الصفقة التى حدثنى عنها من قبل..

.. وفى يوم إنصرفنا سويا من الشركة وركبت معه الشيروكى ليوصلنى إلى بيتى فى عين شمس بعدها يذهب إلى بيته فى شيراتون، وفى الطريق تدلّلت معه فى دلال وحكيت له أحدث النكات.. وبعد نفق العباسية توقفت المركبة كثيرا عند جامعة عين شمس لإزدحام الطلبة المنصرفين من أبوابها فمددت يدى فى حجره ورحت أعبث فى سوستة بنطاله فقال:

- إذا فلنذهب إلى قيللا الشروق

- لماذا ياعزيزى

- أريدك

- وأنا أريدك.. وأريد شيئا آخر وعدتنى به من قبل

- ماهو؟

- تغيير شقتى والنزوح إلى شيراتون

وراح يضحك بصوت عال ولما تحركت المركبة بصعوبة بين الطلبة كان يهز رأسه ويقول:

ـ مساكين هؤلاء .. ليتهم يظلون سنين أخرى ولا يتخرجون الآن، ليتهم يبقون فى أحلامهم.. إنهم لايعرفون أن الواقع مؤلم وأن فى الجامعة تسطع الأحلام وبعدها يسقط كل شئ.. كنا فى أيامنا على الأقل يذهب من ليس له واسطة إلى أى دولة عربية.. المشكلة الآن كله قفل.

ـ لاتدخلنى فى مواضيع لاطائل من الحديث فيها.. إن الكلام فيها معدد ومكرر.. ياشريف وسكت.. لكن أصابعى قد أثارته..

... ورجع إلى عادته فابتسم وطالت ابتسامته بعدها قال ونحن عند إشارة روكسى فى جسر السويس:

ـ ماذا تريدين.. كم معك؟

ـ أصبح لدى ثلاثون ألف..

.. وفى سرعة الشيروكى كان شريف يحادث محامى يعرفه قائلا:

ـ ياأبو شيماء عندى شقة عايز أبيعها.. إيه الأوراق المطلوبة.. واستمع قيلا ثم أردف:

ـ بكرة.. ومعايا الست.. المدام اللى هتاخد الشقة.. حاضر تمام كل الأوراق هاتكون معايا.. مرسى أوى الساعة كام بالليل.. ثمانية كويس.. تسعة أوكيه.. تسعه هانكون عندك

والتفت إلىَّ ووضع كف يده اليمنى فوق جسدى فى دفء وقال:

ـ ماذا تريدين بعد.. بكرة بالليل

ـ أجيب الفلوس معايا بكرة

ـ الفلوس فين

ـ فى البيت

ـ بلاش الصبح.. بالليل لما ترجعى من الشغل.. هارجع معاك نجيبها ونروح للمحامى

ـ المحامى فين

ـ فى مصر الجديدة.. عايزة ترّوحى دلوقت

ـ عايزه نروح الشروق

ـ للصبح

ـ زى ماانت عايز

ـ على فكرة بعد بكرة هانروح البنك سوا

- ألبس إيه؟
- زى الممثلات... الحاجات اللى تخللى أى راجل يرّيل
- هم رجالة البنك بيريلوا
- لأ.. كل حاجة عندهم بتمن.. وبعدين نوعدهم
- بإيه
- بعدما ناخد القرض ده.. هاقولكِّ تعملى إيه.. على العموم إنت اللى هاتروحى بعد كده.. دورى معاكِ هاقولكِّ على حاجات فنية فى الكلام معاهم.. لكن البيبسى ده بتاعك إنت
- يعنى إيه بيبسى؟!
- لما نرّوح هاقولك
- جعانه أوى
- لما نرّوح هاجيب خروف مشوى
- ومراتك
- مابتجيش البيت خالص.. وفى دقيقة واحدة طلب المطعم ليرسلوا الخروف على الشروق
- ومين مع الأولاد
- اليومين دول أمى
- هىَ على طول فى بيت أسامة
- عايزة تحافظ على مرتبها.. بلاش وجع دماغ أنا مرّيح راسى من وجع الستات
- هو أنا مابوجعش
- إنت البلسم
- ياترى بلسم لكام سنة
- مش قلت لك خلّصى المواضيع فى تلات سنين.. الشركة بالكتير تلاتة
- وبعدين أروح فين
- إشترى أرض وابنيها
- معقولة
- بعد ماتخلّصى الشقة.. حُطّى فى دماغك عملية الأرض
- ياه معقولة هاجيب دا كله منين

ـ الرجّالة فى البنوك مش شوية والعملاء .. عندنا عميل .. هاقولك عليه .. ولما تجيبى القرض ليك فى كل نص مليون عشر بكاوى

ـ والله

ـ دا وعد .. أسامة بيه يناولهم ليكى بنفسه

ـ بالله

ـ خلّى ربنا بعيد يابسهير .. خلينا نعمل بيزنس ونعيش .. بلاش واحنا فى المواضيع دى تجيبى سيرة ربنا .. هو أطهر وأعظم من إن نجيب سيرته .. إنس .. مش عيز ضميرى يضحّى .. أبويا ربّانى كويس أوى بس كنت مدلّع ، ماقدرتش أحافظ على أى قيم قالها لى .. لو كان عايش مكنتش هابقه كده .. بعد ما مات طلع الكبت كله واللى كان مستخبى

ـ أنا أبويا كان مدرس فى الأزهر وماطلعتش زى أبويا .. كنا بنخاف منه أوى

ـ هو الخوف اللى خلاكى كده

ـ يعنى أنا كده كويسة

ـ طبعا هوّ فيه أحسن منك .. من موظفة شحاتة إلى العز دا كله

ـ لغاية دلوقتى ماعنديش حاجة

ـ بكرة الشقة .. والموبايل

ـ بإيه ياحسرة

ـ هدية منى

ـ عايزة عربية

ـ أجيب لك عربية بالتقسيط

ـ من مين هدية برضه

ـ بالتقسيط المريح فيه واحد أعرفه فى منصور هايريّحنا أوى ..

وكما طلب الخروف وطلب المحامى .. طلب هذا الذى يعمل عند منصور شيفورليه قائلا :

ـ أحمد صابر إزيك .. عايزين عربية صغيرة .. عارف أنا مين .. شريف حبيبك .. أجيلك إمتى .. يوم الخميس هاجيلك ومعايا السنيورة .. الساعة كام .. الصبح .. حدّاشر كويس .. أوكيه

.. وكان الوقت يمر وسرحت ببصرى حولى فرأيت سوق القنال على يمينى والسكة

الحديد التى يسير عليها القطار القذر الذى يقصد مدينة السويس، ومازلت أمسك بجسده تارة وأخرى أدلّك ساقه.. وهو يقول معبّرا عن سعادته.. آه من أيامك.. بعيش معاك ياقمر.. يلعن العالم من غيرك.. إنت حظى الجميل فى الأيام السودة، وكنت أضحك حتى دخلنا مدينة الشروق على يمين الطريق.. وتساءلت بصوت يسمعه.. من يأخذ هذه الأرض ومن يبنى؟ ومن أين أتوا بالمال حتى شيدوا هذه القصور.. كنا منذ قليل نمرُّ بجسر السويس حيث الشعب الكادح... حيث الحاجة تلاحق الناس كالظل.. ومن يوم لآخر لانرى أملا فى أن تتوافر أدنى حدود هذه الحاجة..

.. لقد افترست حاجات الناس نفوسهم وأصبحت النفوس ضعيفة واهنة تقبل المال وتضحى بأغلى ماعندها..

.. إن الجميع لايكفون حاجتهم الضرورية فيذهبون إلى بيع أى شئ.. حتى أن رجالا تمنوا لو كانوا نساءا.. إنهم هناك فى كل الأحياء الشعبية لايعيشون إلابروحهم، وأن أكبر شئ عال وقوى فى هذا الشعب أن لهم روح، له روح فى كل الأعياد والمواسم.. عيد الزعف ورأس السنة والمولد النبوى ورمضان.. إن المناسبات هى التى تحى هذا الشعب لكن ما توافر من الضرورى للحياة لا يكفى الجمال والحمير أن ترعى.. وكان شريف يبتسم حتى دخلنا بوابة القُيللا وكالعادة ينحنى الحارس وكاد يقبل يد سيده الذى ناوله عشرين جنيها فكاد الرجل ثانية ينشطر من فرط سعادته.. وأخبره سيده بأن الفسبة سوف تحمل إلينا خروفا وعليه أن يدخله.. وماكان من الخفير بسطاوى إلا أن يقول أحلى مالديه من كلمات .. هنا وشفا ياباشا.. مش عايز حاجة تانية تحت أمرك.. أأمرى ياست الكل.. فاضطررت أن أضع فى يده عشرة جنيهات وكاد يقبل يدى.. وكنت أريده أن يفعل حتى أشعر أننى من الأغنياء حقا، لكننى سعدت ودخلنا إلى البيت الفخم والذى دخلته مرات من قبل.. لم أكن أعرف أنه فرشها وأثثها بهذا المستوى.. إنه بقدر جموع المحتاجين والمساكين والفقراء فى هذا البلد يوجد ناس أغنياء جدا وواصلين ولن تصدقوا أيها الناس الغلابة أنه فى صباح اليوم التالى كان شريف قد اتفق لى على عربة جديدة قيمتها خمسة وخمسون ألف ولن أدفع مقدم لها إلا خمسة آلاف وكل شهر ألفان، وحصلت على عدة الموبايل والخط وفى المساء حصلت على شقة شيراتون بعد أن دفعت مامعى من سيولة.

.. بعد أسبوع من عمل كافة الإجراءات القانونية إنتقلتُ إلىّ شقة شيراتون بعد تجديد معظم الأثاث وركبت سيارتى وتحدثت مع كل من أعرفهم لأخبرهم برقم المحمول

وأنا أقود مركبتى الجميلة فى شوارع القاهرة، ولدت الدنيا فى حجرى مرة واحدة، وكم كنت فرحة بهذه الأيام التى إنتقلت فيها إلى طبقة إجتماعية أخرى، وفى ليلة من الليالى كنت أختلىْ بنفسى بعد أن قفلت باب غرفتى التى تحوى جنباتها غرفة نوم جديدة فاخرة إشتراها شريف من أحد المحلات فى مصر الجديدة وكان قسطها ألف جنيه لمدة عام ونصف، إختليت بنفسى ورحت أحسب دخلى من عملى،ثلاثة مرتب وتقريبا أربعة من أسامة فى حدود خمس مرات فى الشهر وستة من شريف وتلاتة من العميل عبدالسميع من قرية سين مركز صاد دقهلية لابس جلابية وبالطو وجزمة برطوشة بتورنشها مراته كل يوم بالجاز هكذا أخبرنى وكان يضحك وهو فخور بأنه بنى نفسه وأصبح عنده أكبر مكان يبيع أدوات كهربائية بالجملة فى المحافظة كلها، ونقول فيه عمولة كل شهر على صرف أى مبلغ من البنك أوصّله للشركة يعنى العملية ممكن توصل إلى عشرين ألف.. ورسمت خطة طموحة وقلت لنفسى أهو فى الطريق يمكن أعرف واحد تبيه هنا أو هنا علشان يتحسن الدخل شوية.. حتى أستطيع أن أفكر فى شراء أرض بعد ذلك. وارتديت ثوبا جديدا فى نفسى وانتويت أن أخطو خطوات ثابتة نحو الأمام وأن يكون لى شخصيتى المستقلة، وأنه بالإمكان فى خلال ثلاث سنوات أعملها بس شوية تركيز.. وفاتنى أيها السادة الكرام إخباركم بأن موعدنا مع البنك قد تأجل إسبوعين، ولقد فرحت لهذا التأجيل لأنه منحنى فرصة كى أفرح بأحداثى الجديدة ومرت أيام أخرى وأنا أسعد إمرأة فى شرق القاهرة.. ولما كنت فى الماضى أذهب إلى بيتى فى ميكروباص أوتاكسى، وأعود إلى بيتى عن طريق جسر السويس مارة بالزيتون والحلمية وعزبة شنودة والألف مسكن والعرب ثم أدخل إلى عين شمس حيث الشغب والكنكنة والعوصة تغيَّر مجرى حياتى وعدت أدخل إلى بيتى عن طريق الخليفة المأمون وروكسى وسفير والإسماعيلية وتريومف وسانت فاتيما وميدان الحجاز ثم شارع النزهة والجولف حتى أصل إلى شقتى الفاخرة.أسماء وطرق جميلة وناس برضه حلوة لابسة نضيف والعطر أنفاسها واسم شيراتون يجنّن وبقيت متلمعة ناعمة واتعوج لسانى.. ألسته أفرنجى ملساء رقيقة.. أنتكة.. فزلكة شياكة على الآخر ودايما آخر موديل من فوق ومن تحت وبقه شعرى يجنّن سايح على كتفى بعد ماكنت فى يوم من الأيام الفقر مرة فيها رقّعت سروالى الداخلى حتى أنزل يوم واشترى اتنين من العربية فى شارع عرابى.

.. فرق كبير أوى بين البرابير والجلاليب وبين المناديل المعطرة ماسكادا أيادى رقيقة وفساتين باريس أو على الأقل أرقى الملابس المحلية.. خطوة واحدة لكى نعدى من حسر

السويس إلى مصر الجديدة. ومن إمبابة وبولاق إلى الزمالك ومن شبرا الخيمة إلى أغاخان ومن.. ومن.. ولاكل واحد أو واحدة يقدر يعدّى.. التعدية ليها شروط وإمكانيات وتمن.

وفى يوم كنت فى المكتب مع شريف وكان كل منا منصرف إلى عمله ونشأت قائلة بعد أن إنتقلت إلى مقعد بجوار مكتبه:

- حتى الآن لا أعرف تفاصيل هذا القرض وكذلك ماالذى أضيفه أنا حتى يتم الحصول عليه

- هذا البنك نتعامل معه لأول مرة.. ووجودك معى فى أول مقابلة يجعل رجل البنك لطيفا

.. وجود إمرأة ورجلين فى أى جلسة يكون له مفعول السحر، المهم ندخل فى الموضوع.. عميل مدين لنا بمليونين سحبنا عليه كمبيالات بثلاثة يسدّدها على عامين، العميل فى العام الأول يسدد للبنك كافة هذه الكمبيالات لكنه عندما يحل العام التالى لايسدد ويكون وقتها قد أوفى بسداد ديونه فيرجع علينا البنك بالكمبيالات غير المحصلة، فنقوم بعمل شيكات أو كمبيالات أخرى بدلا منها على عملاء وهميين.. وطبعا فى هذه الفترة نكون سحبنا كتير..

- وكيف يوافق العميل على توقيع كمبيالات زياده عن دينه

- يأخذ العميل كمبيالة علينا بالمبلغ الزيادة.. وهذه اتفاقيات بين التجار يساعدون بعضهم بعضا

- ماذا يعنى عملاء وهميين؟

- أسماء لاوجود لها

- وهل يقبل البنك أوراقا على ناس لا وجود لهم

- يقوم بالإستعلام عن المسحوب عليهم.. وهؤلاء الذين يقومون بالاستعلام من أفقر موظفى البنك ويعودون إلينا.. وحدثت معى كثيرا.. فيقولون على سبيل المثال وكما حصل معنا..

- ياباشا مفيش حد.. مفيش حد فى العنوان

... أبتسم وأضحك وأهزر معهم بعض الوقت وقبل أن أفتح الخزينة التى خلفى هذه.. أقول:

- يابهوات روحوا تانى هاتلاقوا الراجل ده.. وبعدين إنتم دخلتم شارع غلط.. وفى هذه اللحظات تكون البكاوى طلعت فى إيدى ووضعتها على المكتب لحظات أخرى أضع

فى ثلاثة ظروف ثلاثة آلاف جنيه.. وأقول فى كثير من الأدب:

ـ كل سنة وأنتم طيبين.. وأنا باعتذر عن الخطأ فى العنوان.. مش ذنبى يابهوات دخلتم فى شارع غلط.. ويضحك الجميع.. وأقوم إليهم فى مقاعدهم وبكل أدب أناول كل منهم ظرفه.

ـ يالهوى

ـ الموضوع فى الأول والآخر استغلال ظروف.. الواحد من هؤلاء الموظفين يكون غير قادر أن يدخل على أولاده بكيس فاكهة.. إستغلال ظروف.. ضعف إنسانى.. ضعف نفوس.. الوضع كله أصبح هكذا.. الظروف العامة تفرض هذا.. قولى كما تريدين.. هكذا يكون إنهيار الناس أمام النقود.

ـ وهل يذهبون يستعلمون مرة ثانية؟

ـ لا.. إنهم يذهبون إلى البنك ليقولون كله تمام

ـ يانهار إسود.. دى فلوس الناس

ـ نحن ياسيدتى العزيزة أفضل من غيرنا.. نحن نقدّم أوراقا وشيكات ونفتّح مَخّنا وندفع فلوس.. غيرنا من طبقة أعلى منا شوية.. يأخذ ملايين الجنيهات من البنوك بسماعة التليفون وبدون أى ضمانات

ـ هذا يعنى أننا أفضل من غيرنا.. وأننا مازلنا شرفاء

ـ طبعا نحن مازلنا أشرافا لأننا نحاول وندفع ونقدّم ضمانات، لكن غيرنا البنوك أمامه بوابة مفتوحة يأخذ منها كما يريد.

ـ ومن هؤلاء؟

ـ اللى واصلين

ـ من هم الواصلين؟!

ـ لا استطيع أن أذكر أسماء «لاتوجد قدوة أو مثل فى بلدنا.. كل الناس تقريبا بتلعب على فلوس البنوك..

ـ فى رأيى أن فلوس البنوك هذه لايحصل عليها إلا أنتم والناس الواصلين.. لكن صدقنى معظم الشعب الغلبان لايعرف حتى أن يأخذ ألف جنيه من أجل أن يفتح كشك صغير..

ـ هل ممكن أن تقولى لنا طريقا آخر نحصل منه على المال حتى نستطيع أن نصلح صناعتنا هذه..

ـ كما علمت أن مايملكه الباشا لايساوى خمسة عشر مليونا .. فكيف يستطيع رجل كهذا أن يسدد مائة وأربعين مليونا

ـ هذا غير الفوائد .. إن فوائد هذه القروض بتعمل سنويا أكثر من سبعة ملايين جنيه

ـ إذًا العملية خبصة ونحن نلعب فى الخبصة

ـ باختصار خدى نصيبك من اللعبة قبل أن يأتى الطوفان

ـ كلام كبير أوى ياشريف

ـ الطوفان بالنسبة ليّ... هو أن تتوقف عملية الإقتراض.. هو أن ينتهى واحد زى أسامة لأنه طالما أن هذه الشركة مازالت على وجه الحياة أنا عايش.. وأنت الأخرى مثلى..

ـ قبل أن آتى إلى هنا وعندما كنت أعمل موظفة محترمة فى الهيئة كنت أعرف معانى كثيرة للقيم والشرف.

ـ المشكلة الشريف سوف يأتى عليه يوم يموت من الجوع هو وأولاده

ـ هذا ماحدث لى.. ولكن المشكلة.. وسكتْ

ـ ماهى المشكلة؟

ـ المشكلة الآن.. أننى أشعر أنه لايوجد شريف واحد فى بلدنا

ـ لأ هناك شرفاء

ـ كيف تعرفهم ياعزيزى وأنت تعيش فى الخبصة؟

ـ بتاع الفجل.. وكل ست بتحط على راسها طشت وجايه من البلد تبيع جبنة وزبدة فى مصر

ـ ومين كمان ياشريف

ـ مافيش حد تانى

ـ أبوك كان راجل كبير فى البلد.. يعنى إنت متربى وشبعان المفروض ماكنتش تعمل كده

ـ وكيف أحافظ على طبقتى ياسيدتى.. إننى لم أجد غير هذا الطريق ..

.. هذا هو الطريق الوحيد فى البلد حتى أظل أحافظ على مستواى.. كل أولاد الناس الكبار اللى زى أبويا هبشوا عن آبائهم، أبويا كان شريف كان لازم أهبش علشان أظل زيّهم.. كويس إنى لقيت واحد زى أسامة عايز نصاب فلوس

ـ إنت كده جبتها من الآخر

ـ مافيش حد سامعنا وإنت إستفزتيني ياسهير.. لي رجاء ياريت ماتجيبيش سيرة الشرف تاني.. يعني إنت لو..

ـ لو إيه؟!

ـ لواشتغلت موظفة بس في شركتنا «كنت هاتوصلي»

ـ اللّي بيته من زجاج.. عايز تقول كده ..

ـ ماتزعليش هيّ دي الحقيقة.. كلنا في مركب واحد وكل واحد له دور

ـ تفتكر المركب دي هاتنها عايمة

ـ أبدا لازم تغرق

ـ كويس إنك عارف

ـ عارف والله

ـ بلاش يمين.. إتفقنا بلاش ربّنا

ـ اللي زينا مالوش يمين يعني خلاص.. بس العادة إن الإنسان لمايكون ضعيف يقول يارب

ـ إنت مش ضعيف.. معاك فلوس وعايش ملك.. الضعيف الغلبان اللي مش لاقي شغل.. وكل الموظفين في البلد.. أغلب من الغلب.. دول اللّي يقولوا يارب على حق

ـ حيرتيني.. أمّال نحلف بمين

ـ إحنا بعدنا عن الناس وانشقينا عن المجتمع.. أنا لمّا أروح معاك البنك ونبتدي نسحب ونقول زي الناس ماقالت إفتح ياأبو الفتح.. هاأكون حرامية حقيقية زيّكم.. أو بمعنى أصح من نصابين البلد

ـ لوكان عندك هذا الشعور مش هاتعرفي تشتغلي.. إعتبري إن دا عادي

ـ لو كان عادي هاروح أقول لكل الموظفين والموظفات في الهيئة تعالوا إعملوا زي ماعملت

ـ هوّ دا العدل

ـ إزّاي

ـ العدل إن كل الناس تاخد نصيبها من ثروة البلد.. قلت لك قبل كده الناس الواصلة أوي بتاخد ملايين بالتليفونات.. يعني اللّي زينا بيعمل الأصول.. كمبيالات وشيكات ومستندات ندوخ على مانعمل قرض.. يعني إحنا شرفاء عن غيرنا

ـ هي دي المصيبة اللي بيسرقوا من البنوك حتى ولو بشكل قانوني يبقوا شرفاء.. فجوة

كبيرة ومصيبة لمّا السفاح يقول أنا أشرف من الشرف

- إنت دوختينى.. على فكرة الناس كلها بتسرق.. حتى الناس اللى تحت اللى بيطول حاجة بيسرقها

- يعنى لو واحد جعان وسرق رغيف يبقه حرامى

- أهو ده الحرامى الحقيقى وبيدخل السجن.. لأنه خايب... اللى يسرق مايكشفش نفسه.. الحرامى بالقانون هو الذكى والشاطر.. إنت عارفة كل الناس اللى إغتنوا فى البلد دى حرامية.. بس حرامية قانون

- أنا خلاص دماغى ورمت

- لو عايزه تنجحى سيبى الكلام الفارغ ده.. مفيش حاجة إسمها شرف أو عدل.. كل كلامك مالوش مجال دلوقتى خالص.. ماتقوليش المعانى دية أمام أسامة فوقى ياسهير.. ياريت.. تكون آخر مرة تقولى فيها الكلام ده.. لأنى هابتدى أخاف منك... يعنى المفروض تبقى دماغك مغسولة ونضيفة زى تحت.. فيك تناقض غريب.. إنت شغالة كويس من تحت ومن فوق عندك شوية خبل..

- يانهار إسود يخرب بيتك ياشريف يعنى إنت بتلغى عقلى وضميرى ومشاعرى

- الشغل عايز كده.. قلت لك تلات سنين بعدها البلد هاتقفل وتضرب ومش هايكون فيها حاجة لحد... خلاص إتفقنا

- يعنى أتحرك معاك بالريموت

- وتقومى بدورك بالضبط علشان نحقق العدل لأنفسنا، والعدل ليك قبل أى حد.. لو كنت عايزه تعيشى فى البلد.. وهو ده العدل اللى لقيناه..

- العدل بتاعك غريب.. العدل فى بلدنا كده ..

- العدل اللى كل الناس ماشية عليه.. إن كل واحد يهف اللى أدامه.. لأن إحنا فى طوفان.. وعشان كده حتى الستات عرفوا الحكاية وكلهم نزلوا الشوارع كل واحدة على أد مستواها.. عيبك إنك عاملة زى النعامة بتحط راسها فى الرمل وفاكرة إن مافيش حد شايفها... هانكدب على بعض.. إذا كان جوزك حاسس إنت بتشتغلى إيه

- قول ياشريف.. قول

- وماتزعليش؟!

- علشان خاطرى قول علشان تخجنى من اللى أنا فيه.. علشان أنسى كل حاجة وأحقق العدل لنفسى قول أرجوك

- إنت شرمو.. على مستوى.. ولما تشتغلى معانا فى البنوك هاتبقى نصابة..

.. وانفجرتُ فى البكاء.. ليس بكاءًا من مصارحته وقوله ولكن لأن هذه هى الحقيقة.. وتركنى أبكى وقام محاولا أن يسقينى بلعة ماء.. ووضع رأسى المنهارة بين كفيه وراح يتأملنى ويعتذر وتركته يفعل حتى يحقق توازنا نفسيا فى داخلى ولما مضى وقت وهو مازال يعتذر ويقبل جبينى حتى أقول له شيئا فأرحته قائلة:

- لو كانت أختك فى ظروفى هاتسيبها

- على فكرة أختى جميلة جدا وبتشتغل فى بنك خاص كبير أوى وشايفة شغلها حلو أوى مع العملاء الكبار.. إنت عبيطة ياسهير... مانى سايب مراتى على طول فى بيت اسامة أمّال أخلّص نفسى إزاى.. هو دا العدل.. أقول لك أيه تانى ياسهير.. دى مؤسسة..

.....

.. كنت قد عرفت كل شئ عن أحوال الشركة وحالة صاحبها ووضع شريف الخطير فيها، وشعرت بأننى أضع قدمى فى ثبات فوق رؤوس هذه المؤسسة الصغيرة.. وكان علىّ باختصار أن أعيش فى دورى وأن أنسى ماتبقى لدى فى رأسى من أفكار ومشاعر ومعان فهذه الأشياء التى كنا نعيش فيها أيام الحاجة ليس موضعها هذا المكان.

.. إرتديت الثياب الفاخرة والتى تظهر مفاتن إمرأة جميلة مثلى وذهبت مع شريف فى العربة الشيروكى إلى البنك.. صعدنا إلى الطابق الثانى للمبنى وموظف صغير يتقدمنا مرحبا حتى أوصلنا إلى مكتب المدير، قابلنا الرجل بالترحاب واسترسلا فى حديث طيب ومجاملات رقيقة حيث استحسن كل منهما الآخر.. وكان يقطع الحديث من وقت لآخر.. موظف يدخل يوقع أوراقا.. سكرتيرة تهمس فى أذن مديرها ثم تخرج.. ساعى يقدم عصير الليمون «بعده شاى» ثم قهوة، وكنت أبتسم لهذا المدير الذى لايتجاوز الخمسين عاما، وكان ينظر إلىّ فى أدب مبالغ فيه ويهز رأسه كأنه يحيينى بشكل متواصل، كانت عيناه تموران ببريق زكى لطيف.. يرتدى ملابس أنيقة ورباط عنق كذلك وجهه أبيضا مخروطا بلون مثل نور أشعة الشمس عند الغسق ومدهونا بكريم كساه لمعة ساحرة ولن أطيل إذ أقول أننى لم أر فم رجل أجمل من هذا الفم الذى يضمه شفتان قرمزيتان تجذب، أى إمرأة.. ياإلهى اشتهيت هذا الرجل.. من الذى أتاه هذا المجال؟ الله أكبر.. هل هذا من مصر؟ أى أم ولدته وأى رجل أنجبه من ظهره، لقد تجمع الرجال والنساء فى وجه هذا الرجل، وتحركت فى صدق نحوه.. كنت أجلس على كرسى فوتيه مما ساعدنى على أن

أضع ساقا فوق الأخرى فكشفت الجيبة عن جزء كبير فوق ركبتي وتململ الرجل فوق مقعده وابتسم شريف مما جعلني أمتلئ ثقة في نفسي وزادني فخرا أن قام الرجل وخرج من مكتبه وأتاني منحنيا ليحييني بسيجارة فأخذتها منه ممتنة وفي لحظة كان شريف ينحني هو الآخر ليشعل سيجارتي بولاعته الذهبية وهمس خاطفا بصوت خفيض.. برافو برافو.. وفي لحظتها كان الرجل الرقيق يدخل إلى مكتبه حيث كان.. وتأملني قليلا وانشغلت بدخان سيجارتي ودارت بخلدي أفكار أخرى غير تلك التي كنت أركن إليها أيام زمان وعدلت من ساقي حيث جلست جلسة عادية ورحت أسمع حديثهما بعد أن وضع شريف ملفا أمامه:

- سعادتك هذه أوراقنا

.. واستغرق الرجل في قراءتها بعض الوقت ثم قال:

- بضمان أوراق تجارية

- نعم ياسيدي.. كن مطمئنا من عملاء ممتازين

- كل ما نطلبه ألا ترفض ورقة.. وجميعها يتم تحصيلها

- استعلم عنها ياباشا

- دون الإستعلام.. شركتكم معروفة.. موضوع الإستعلام هذا مجرد إجراءات.. إجراءات في قسم الإئتمان ،إذا كانوا يريدون مستندات أخرى.. يعني شوية إجراءات

- كم من الوقت ياسيدي يستغرق هذا

- اسبوعان على الأكثر.. وابتسم الرجل نحوي في سخاء وتابع قائلا:

- شرفيني الخميس القادم.. ممكن نستعجل في الإجراءات من أجل خاطرك خاصة أنك تشرفينا لأول مرة

- يشرفني هذا يافندم

- بيننا هاتف.. معاك موبايل

.. وقمت إليه بجسدي مستعرضة لأناوله كارت به كافة أرقامي فقام نصف قومة وهو يمد يده:

- وهذا كارت.. كلميني في أي وقت

- يشرفني

بعدها راح شريف يضحك دون إنقطاع حتى قاطعه المدير قائلا:

- طبعا إذا حضر الماء .. لاأريد كارتا منك... لا أعرفك من الآن ياشريف

وضحكنا جميعا وكان شريف فى منتهى سعادته وقال وهو يقوم نحوه مصافحا :

ـ ياباشا بكفاية مقابلتك.. أنا تحت أمرك أطلب أى خدمة

ـ متشكر أوى.. المكتب مكتبكم شرفونا فى أى وقت

.. لكن شريف قال ممتنا :

ـ ياباشا إذا حضر الماء ..

.. ورحنا نضحك جميعا ثانية وصافحته بعد شريف وأمسك بكف يدى بين كفيه وراح يقول مهزرا وهو يتقدم نحو الباب ومازال يمسك بيدى لكن بيد واحدة والأخرى فتح بها الباب وخرج خطوة واحدة فى الرواق معنا.. لحظات كان نفس الموظف الذى دخل بنا تقدّم نحونا وسار أمامنا فى أدب كما تعود فى أداء مهام وظيفته.. ورافقنا حتى الباب الخارجى للبنك.

.. ومضت أيام فيها كنت مستغرقة فى التفكير عندما أقابل رجل البنك هذا.. كيف أنجح فى الحصول على القرض.. مالذى أستطيع أن أقدمه له حتى يتحقق ذلك.. وكم ستكون سعادتى عندما أصرف للشركة نصف مليون وآخذ عمولتى.. كيف سيكون وكم سأكون ناجحة.. هل سيعطينى عندما ألقاه إذا أراد؟

.. هل سيعطينى مثل شريف أو عبدالسميع أو الباشا.. أم أنه سيعتبرها علاقة تساهيل.. علاقة شغل.. آه ياإلهى تفتحت الأبواب.. لايهم أن يعطينى.. المهم أن ألقى هذا الرجل

.. ولاأستطيع أن أحكى كل التفاصيل كيف كانت حياتى تنساب فى يسر واحتراف بين الرجال.. وحدث حدث مفاجئ فى الأيام التى كنت فيها أنتظر لقاء رجل البنك.. هو ليس حدث بالمعنى لكن معلومة كانت مفاجأة من السكرتيرة أحلام.. حيث أنها فى يوم اقتحمت باب مكتبى كعادتها وراحت تهمس فى أذنى رغم أننا كنا وحدنا بالمكتب :

ـ عارفه العميل عبدالسميع

ـ أيوه شفته

ـ ماشى معايه

ـ العلاقة وصلت لأيه.. مش إنت بنت زى ماأنت

ـ من سنة كنت بنت

ـ ومين اللى خلاكى...

ـ أسامة

- هو مش مخلى حد .. المهم جبتى عبدالسميع إزاى

- فى يوم بعتنى الباشا معاه المخزن .. المخزن اللى هنا فى الشارع .. فى يومها مالقيناش أمين المخزن وكان معايه مفتاحه وفتحت ودخلت يومها غازلنى زى مابيكون بيغازل جاموسة .. راجل عُبيط أوى .. حطيت إيدى فى سيالته/إيدى مسكت بتاعه والفلوس مع بعض .. قلت له على طول إقفل المخزن .. فرح وجرى يقفل الباب .. فرشت بطانية ونمت عليها بهدومى وارتمى فوقى كالجحش.

.. تدللت عليه وأمسكته من صدره وقلت كأنى أرجوه وكأنى أريده معا .. إذا كنت عايزنى ساعدنى .. فقال تحت أمرك أأمرى اللى انت عايزاه .. قلت له هات فلوس إدينى اللى فى السيالة بس ويبقه ده عربون وهاأكون تحت أمرك على طول اللى تقدر عليه على ماتقدر .. بس أنا هاموت النهاردة وآخذ اللى فى سيالتك .. فقام كالهلف ووقف وخلع جلبابه ورمى به فوقى وقال خدى كل اللى فى السيالة .. ييجوا تلاتة .. تلاتة جنيه ياعبده .. فقال ياباشا تلاث بكاوى .. فقلت ياحبيبى ..

- خدت التلاتة

- خدت التلاتة وإيه كمان .. وأمين المخزن مارجعش ..

- عرفت بعد كده إنه كان مزوَّغ ومروح بيته

- وقلعت هدومك معاه

- قلعت كل حاجة علشان أجننه

- وبعدين

- كل خمستاشر يوم باشوفه

- فى المخزن

- لأ

- فين

- فى شقة خادها هنا فى مصر

- سحبتى منه أد إيه

- دلوقتى ييجى خمستاشر فى أربعة شهور

- هاتبقى غنية ياأحلام

- أبدا .. إنت عارفة إنى مخطوبة .. بساعد خطيبى ونقدر نتجوز بسرعة

- بتحبى خطيبك .. وبعد ماتتجوزى هاتحبيه بالشكل ده

- مش عارفة أنا باحبه دلوقتى وباعمل كده علشان يكون لنا بيت
- وبعد كده
- مش عارفه.. هى الواحدة لما تعمل كده غلط.. حاجة غريبة أوى أنا لغاية دلوقتى مش عارفة أى حاجة فى الدنيا.. باعمل حاجات زى لما باعطش باشرب.. باشرب ميه لأنى عايزه أشرب.. أشرب منين وإزاى ده اللى مش عارفاه ..

وانتهى الحدث وكانت تريد أن تحكى لى حكايات زميلاتها هايدى ونادين إلا أننى أثنيتها عن الإسترسال فى الحديث عن غيرها بقولى لها.. كله منيل بنيلة بكفاية ياأحلام فى يوم تانى.. وقبلتنى بقوة كعادتها وانصرفت إلى حيث تقعد فى الرواق..

وفى صباح أحد الأيام هاتفنى رجل البنك فى بيتى عندما أتانى عبدالحميد بالهاتف قائلا:

- واحد اسمه درغام
- درغام.. هات.. ألو
- مدام سهير
- أيوه ياباشا إزيك ياباشا
- كلمتك فى الشركة
- أذهب إليها بعد الظهر.. أهلا بيك
- الموضوع خلص تعال بكرة
- الساعة كام يادرغام باشا
- على حداشر كويس
- كويس تحت أمرك أجيب معايا أى أوراق
- تعالِ الأول حاجات بسيطة بعدين
- مرسى أوى أوى
- على إيه باى باى
- باى

بعدها هاتفت شريف قائلة:

- موضوع البنك خلص
- ياعينى عليك مين قال لك
- المدير بنفسه كلمنى ياشريف

- مايجيبها إلا نسوانها

.. وراح يقهقه كعادته.. وبادلته سعادته.. وكنت فرحه وأمتلئ ثقة حيث اعتبرت هذه الخطوة أول خطوات النجاح ومرحلة أخرى لى قد أحقق فيها مكاسب كثيرة.. غير أنه بعد أن إنتهى قال:

- هاكلم أسامة وأقوله

- يعنى

- علشان تاخدى حاجة معاك

- إيه هيّ

- تعالِ الشركة الأول.. وهانرتب مع أسامة

ولما ذهبت الشركة فى الثالثة عصرا زاولت عملى فى مكتبى كالعادة وأيضا جاءتنى أحلام لتقبلنى وتهمس فى أذنى قائلة:

- هايدى عايزه تكلمك

- دى بالذات متنشنه ومش قابلاها

- دى بتحبك أوى ظروفها صعبة

- باين عليها بنت ناس أوى

- أبدا ناس عاديين جدا.. بس هى جاية فلته شكل بنات الذوات.. لكن هى عادية جدا وساكنة فى شارع أقل من العادى.. هى بس حظها ضارب ومخطوبة لضابط شرطة

- مش عارفة عايزانى فى إيه !

- أبدا تحكيلك حكايتها

- مع مين ياأحلام ؟

- مع أسامة

- خلصّ عليها

- زينا كلنا

- الخلاصة.. وأنا هاعملها إيه

- أجيبها ليك دلوقتى حالا قبل البهوات ماييجوا وتنشغلى معاهم

- هاتيها

وجاءتنى أحلام ومعها هايدى التى قبلتنى لأول مرة وجلست بجانبى كالقطة الوديعة وكانت الدموع تنحبس فى مقلتيها غير أننى بادرتها قائلة وأنا أربت فى حنان على ذراعها ..

ـ قولى ياهايدى ياحبيبتى قولى من الآخر

ـ أنا باشتغل من سنتين تقريبا هنا .. يعنى مافيش واحدة عمّرت زيى

ـ ليه

ـ حضرتك عارفة لما بيفرقع أى بنت بيرميها ويعاملها وحش ويخفض مرتبها وعاجبك أو مش عاجبك.. وتقريبا أى بنت بعد مايحصل ليها كده بتمشى وتاخد سكة تانية فى حياتها

ـ بتروح فين

ـ أى شركة تانية والشوارع مليانة حكايات.. المهم ياستى حكايتى

ـ قولى ياهايدى

ـ كان خطيبى أول ماجيت هنا عايز فلوس لمقدم شقة هناخدها .. وكنا حيرانيين نجيب الفلوس منين، ولقيت أسامة الله مايكسبه فاتح لى السكة.. وعرض علىّ فى أول مقابلة معه أنه مستعد لأن يعطينى مرتب ألف جنيه لو صادقته.. فوافقته على الفور.. كان فيه إغراءات تانية فى الحياة حواليه قلت لنفسى أشوفها وأعيش زى البنات، وكان فى دماغى الشقة

ـ وبعدين

ـ خلص علىّ وخدت خمس تلاف جنيه.. كل ما يطلبنى أديله.. وطبعا كل شهر بوفر نص مرتبى.. فى سنة واحدة عملت فلوس كتير واديتهم لخطيبى..

ـ بعد كده استحليتى الحكاية

ـ لأ أبدا الفلوس حلوة وحققت حاجات كتيرة كنت محرومة منها

ـ وخطيبك وأهلك ماسألوش.. جبت الفلوس منين

ـ ماحدش سأل

ـ وخطيبك

ـ كان مبسوط وحبنى أكتر لما جبت له الفلوس.. وكان بيوصلنى للشركة وفى يوم طلب منى إن يتعّرف على صاحب الشركة واتعرف عليه وبعد كده بقه يخلص له مصالح مقابل فلوس طبعا

ـ وبعدين

ـ خطيبى مش عايزنى أسيب الشركة دى أبدا

- وطبعا مش عارف حاجة من دى
- طبعا مش عارف.. واحنا خلاص بعد شهر هانتجوز.. أقول لك عارف ولامش عارف أكيد حاسس
- خلاص إتجوزى مافيش مشاكل
- لأ فيه مشكلة
- إيه
- عايزه طبيب يعمل لى عملية
- خلاص روحى أعملى
- مش عارفة حد
- وعايزه منى إيه
- طبيب يكون معرفتك
- عارفه واحد فى شارع الترعة البولاقية بس وسخ أوى
- لازم يسلّك.. معروف بكده
- موافقة
- يانهار إسود
- يعنى أعمل إيه.. ماهى كلها سودة.. تقريبا بعد كل بنت مابتخلص دراستها وتشتغل فى بلدنا بتتساب فى الدنيا دى لوحدها تلاقى أى مصير.. ودلوقتى بقت العادة مافيش حد بيسأل عن حاجة ولاحد بيدور على الحقيقة كله عايز فلوس وبس.. والمشكلة إن مافيش حد بيسأل الفلوس جت منين
- آه ياهايدى إنتم كلكم زى بعض.. ونادين كده برضه
- نادين أسخم وأذل.. عايزاك ياأبلة
- نفس الحكاية
- نفس الحكاية مع أسامة.. لكن ليها حكاية تانية مع أسرتها
- بكرة ياهايدى بالليل... أنا فى مأمورية الصبح لما أرجع هاتيها

ولما كنت أتأمل وجهها الحزين الذى أغرقته الدموع.. دخل علينا شريف فانصرفت هايدى وكنت مندهشة.. لاياسادة كنت منزعجة مما يحدث للبنات، وهل فى كل شركات البلد بنات مثل هؤلاء اللائى فى شركتنا؟.. وهل كل أصحاب الشركات مثل أسامة.. لا أعرف..

******

الجزء ٦

ولما كنا فى بداية شهر إبريل كان الطقس قد بدأ يلقى بالزعابيب والبرودة جانبا ويحل الدفء .. فتخليت عن ملابسى الثقيلة وارتديت قمصانا خريفية وجيبات شفافة تظهر فتنة ساقى البض..

ذهبت إلى البنك وحدى.. وصلته فى الحادية عشرة، وكان نفس الموظف الذى استقبلنا من قبل ينتظرنى فى المدخل كما أمره سيده، ولما كانت عادته الإنحناء كان على أن أناوله عشر جنيهات وكاد ينحنى حتى ركبتيه سمعا وطاعة وكان يهرول أمامى مما استرعى إنتباه بعض موظفى وموظفات المصرف الذين كانوا يتجولون فى الردهة فشعرت بأننى أهم إمرأة فى المبنى، وفتح لى الباب الكبير لمكتب المدير الذى كان صاحبه يتقدم إلى منتصف الغرفة ليقابلنى بترحاب ويصافحنى بحرارة حتى أنه أخذ يدى فى رقة إلى فمه وقبَّلها ، وشعرت بأننى فى حفظ وصون مع هذا الرجل خاصة أنه أخذنى فى دفء إلى أضخم كرسى فوتيه وأقعدنى وهو يربت على فشعرت هنا بأنه مثل أبى أو عمى.. ولكن أبى ليس فى هذا العمر لقد مات أبى منذ سنين طويلة وكان عمره يقترب من السبعين عاما وعندما مات أبى أخذ معه الخوف الذى كان يحيطنى عندما كنت أسمع صوته.. ولم يكن أبى طيلة حياته إلا قاسيا على أمى التى كانت دائما سمعا وطاعة ولما مات قالت لنا نحن البنات.. من هذا اليوم يابناتى سأتنفس الحياة دون خوف.. وكانت دائمة الدعاء له بالرحمة.. ولم يمر عام واحد على وفاته حتى تزوجت من رجل كانت تحبه أثناء حياة أبى.. كانت تحبه فى صمت وكان هو كذلك فلما مات أبى صارحها الرجل بحبه وأنه يريد الزواج منها فتزوجته بعد أن أخذت قبولنا بهذا الأمر.. لكن أخوتى الرجال قاطعوها بعد ذلك.. كل ذلك دار بخلدى فى لحظات عندما شعرت بحنان الأبوة الشديد والدفء الذى لم أشعر به طيلة حياتى.. وكان لدى إحساس عميق فى هذه اللحظات أن أسلّم نفسى لهذا الرجل طالما قد صدر منه هذا الإحساس فى لحظة واحدة.. وتفجرت كثير من طاقتى وشعرت بأن روحا عالية تصعد من صدرى إلى أعلى حتى إصطدمت بسقف الغرفة العالى لحظتها شعرت أننى فى مصرف وأن هذا رجل بنك ورحت أجهز نفسى لما أتيت من أجله بعد أن وضعت ساقا على الأخرى. وصرت أمامه ملكة إغراء

وراح يمطرنى بوابل من كلمات الإطراء والثناء حتى دخل الساعى وقدم الشاى بعدها كان يريد أن يحترمنى بكلمات تحسبا أن أخاف منه فأخذ يقول:

- ونعم بنت الناس.. إنت ست محترمة يتمناك أى راجل محترم

فابتسمت لأنه يكذب فقلت كأننى أهزر معه:

- ياسيدى.. هو فيه راجل يقدر على واحدة ست بتحط رجل على رجل بالشكل ده.. برضه أنا متحررة شوية يادرغام بيه

- إنت ست أد الدنيا.. أنا أسعد الرجاله إنى عرفتك.. بس فيه مشكلة فى الشغل

- تقصد شغلنا

- أيوه.. أنا هاكلمك بصراحة

- اتفضل أنا عايزه الصراحة

- عائلة الهويدى معروفة بهذه الصناعة فى البلد كلها.. لكن فى الحقيقة مش كلهم.. فى أول ماأخذت الورق منكم كنت باعتقد أن أسامة زى أعمامه، لكن بالتحرى والإستعلام عرفنا أنه أبوظ واحد فى هذا العيلة وأن أبوه مش قادر عليه والمصيبة إنه واخد قروض كبيرة أوى من بنوك كتيرة وهو مدارى تحت الإسم.. إسم عيلته

- أفهم أنكم مش هاتمنحونا الإئتمان

- والله مش عارف.. أنا كل اللى يهمنى دلوقتى الشيكات.. هىَ مضروبة ولاَّ هاتتحصل

- طيب ياباشا إيه الحل.. إنت عارف دى مأموريتى أنا.. عايزه أنجح

- أنا لما أمنح القرض هاتبقه دى مشكلتى.. صدقينى أنا عايزك تنجحى.. ياريتك كنت فى شركة نظيفة.. دا مافيش بنك يرضى يديه قرش صاغ..إنت عارفه إنه بيتعامل مع حداشر بنك.. أنا عرفت كل حاجة.. صدقينى لو مش إنت أنا كنت هارفض الطلب ده دون تردد

- طيب ياباشا عشان خاطرى

- بس لازم يبقه فيه شوية واقع

- فى إيه

- فى الشيكات.. تضمنى الشيكات دى تتحصل

- رقبتى لو شيك ماتحصلش

- دا كلام علشان العلاقة الطيبة بينا.. لكن الواقع ساعتها مسئولية.. مسئوليتى أنا

- على العموم ياباشا إدينى فرصة أرجع لشريف وأسامة للتحرى أكثر عن جدية تحصيل هذه الشيكات.. وسعادتك بلاش تاخد قرار قاطع فى الموضوع خللى بينا كلام.. الله يكرمك فى حياتك أصبر على شوية.. وأنا ماحبش أنك تكون فى ورطة أبدا

- خلاص أنا منتظر تردى عليه.. علشان خاطرك إنت والله علشان خاطرك، بس أنا عايز أطمئن لهذه الشيكات وجديتها

ودار بخلدى أن يكون بينى وبين هذا الرجل ود وعلاقة تسبق تلك المأمورية بس وتلف كل هذا الواقع الذى قيل بغض النظر هناخد القرض ولا مش هناخده.. فقلت له كأننى أبادره بشئ قد يحبه:

- طيب ياباشا أنا عايزه أقابلك

- ياريت دى أمنية

- إتفقنا فين أنا عايزه اتعرف بيك بغض النظر عن الشغل

- قلت لك دى أمنية خللى الشغل على جنب

- الوقت اللى تحدده ياباشا.. على فكره هاقولك سر جوايه.. إنت تتمناك أى ست

.. وتململ الرجل فى جلسته كأننى فاجأته وقال وقد إحمرت وجنتاه:

- دى شهادة أعتز بها ياست الكل

.. وطرق الباب وعدلت شاقى ودخل موظف كبير يوقع أوراقا ولما انتهى خرج الرجل بأوراقه.. وراح المدير يفرك كفيه ثم قال:

- كنا بنتكلم فى إيه

- منتظراك ياباشا تقولى..

وضحك الرجل وهو يبتسم:

- مكسوف شويه

.. ورحت اضحك بصوت خفيض إحتراما للمكان.. ولكننى كنت أريد أن أجلجل برغباتى أرجاء هذا الرجل.. وكان صدرى يهتز بهجة وفرحة كأنه يعزف لأن تولد هذه العلاقة وقلت فى دلال:

- قول يادرغام بيه بلاش كسوف

- نقعد فى ماريوت

- نعمل إيه فى ماريوت

- نقعد

- مابحبش أقعد

- طيب نروح فين

- ماعندكش مكان هادى

- عندى بس وافقى

- فين.. أروح معاك أى حته

وسكت ثم أردف:

- شقة مدينة نصر

- دى غير شقتك طبعا

- طبعا مافيهاش حد

- فيها سرير

- طبعا فيها سراير.. فيها كل حاجة.. وراح يقهقه
- طيب إمتى يابيه
- في أى وقت يعجبك
- ينفع النهاردة بالليل
- الساعة كام؟
- على عشرة كويس
- كويس أوى.. إدينى العنوان

وأخذت العنوان وصافحته فى حرارة وعند الباب قبَّلنى من جبينى وهو يبتسم بتسامة عريضة..

.. عدت إلى الشركة فى الواحدة والنصف ظهرا، وكالعادة تأبطت أحلام ذراعى من أول الردهة حتى دخلت غرفة المالية ومن هذه الغرفة الكبيرة دخلت مكتبى بعد أن حييت مديرها صلاح زكى، وعلى غير العادة وجدت شريف ينتظرنى وقام من مقعده وقابلنى مهللا ثم قبلنى قبلة رقيقة وقال بعد أن جلس فى مقابلتى:

- خير عملت إيه

.. تنهدت فى محاولة رسم أن الموضوع ليس سهلا وأنه لابد من أن أقوم بمجهود كبير مع هذا الرجل حتى تحصل الموافقة.. ثم قلت بعد أن عملت أنى أتعدل فى جلستى:

- الموضوع مش بالسهولة.. عايز مجهود عال أوى
- دماغه فيها إيه
- المشكلة عنده الشيكات.. هل هى ممتازة.. هل ستحصَّل فى موعدها.. كل المشكلة إن الشيكات دى تتحصل
- الموضوع ده فى إيدك إنت
- إزاى
- الشيكات المقدمة من عملاء تلاتة.. عبدالسميع وعبدالعظيم وجرجس.. والحمدلله كلهم بجلاليب
- يعنى إيه كل الشعب بجلاليب
- ماليش دعوة بالشعب.. لينا دعوه باللى يخصنا
- طيب نعمل إيه
- بتوع الجلاليب دول سذج من السهل واحدة زيك تضحك عليهم
- برضه مش فاهمة
- من الآخر.. قبل الشيك ماييجى تاريخ استحقاقه بيومين تروحى للعميل وتلبدى عنده...

وسكت قليلا، ثم كظم على أسنانه وأردف:

- وتصاحبيه وتعملى اللى عايزه.. يعنى تخلصى عليه بعدها تجيبى الفلوس منه نقدا ونخلّص إحنا مع البنك.. تروحى بنفسك البنك وتجيبى الشيك وتودعى قيمته.. الموضوع مش هايبجى غير كده

- يانهار إسود.. وسكتْ مذهولة

- يانهار إسود ليه.. العملية عايزه مجهود مضاعف وكله بتمنه.. أنا عايز مصلحتك، أنا وانت عايزين الشركة تستمر وكل مايطول عمرها إحنا دخلنا مستمر.. وسكت كعادته ثم قال وكأنه تدبر شيئا:

- هاقول لأسامة كل حاجة وإنك هاتقومى بدور خطير علشان يعرف مقامك ويقدّره.

- طيب روح لدرغام بيه أكد له إن الشيكات هاتتحصل.. بصفتك مسئول الشركة الأول حتى يطمئن

- هاروح له الصبح

- بس ماتقولش على دورى مع العملاء

- دا كلام.. دورك يعرفه أنا وأسامه بس

- يعنى العملية كلها هاتبقه بتاعتى

- أيوه

- هاينفع عشرة على نص مليون

- مش فاهم

- يعنى كل ماجيب نص مليون آخد عشرين يدوبك.. أنا هاعمل كل حاجة

- موافق

- قول لأسامة

- مالكيش دعوة هاخلّص الموضوع معاه

- طيب أنا عارفه عبدالسميع

- كويس.. إعرفى عبدالعظيم وجرحس طيبين أوى.. ويتدنوا

- أنا ماشية دلوقت

- لسه بدرى الساعة تلاتة زمان أسامة جاى

- عندى وردية بالليل

- مع مين

- مع درغام بيه

- يانهار إسود

- شفت بقه أديك سودت النهار زي
- برافو عليكى
- هاتروحى فين.. فندق
- بيته
- يعنى هاتخلّصى
- مش إنت عايز الشركة تستمر.. أنا من ناحية وإنت مِن ناحية
- ياه ياه عليكِ
- اللعبة بتاعتنا تلاتة مليون..... والكورة تدخل الجون بدرغام بيه وعبدالسميع وعبد العظيم وجرجس
- بصراحة إنت المدرب ياسهير
- وإنت تبقه إيه
- خليني الجمهور فى اللعبة دى.. كنت طول حياتى فى الشركة دى أكبر مدرب فى البلد يلاعب البنوك... كفايه عليه لاعبت حداشر بنك وجبت أكتر من ميت مليون
- بس فيه مشكلة.. إزاى العميل يدينى فلوس الشيك والشيك فى البنك
- نعطيه مخالصة مختومة من الشركة ولما نودع قيمة الشيك فى البنك نسحبه.. دى محلولة

وتكلمنا فى مواضيع عدة وكان يريدنى فى المكتب كالعادة، لكننى أفهمته أن ذلك ليس ممكنا فمازالت المالية تعمل بكل محاسبيها ولايفصل بيننا وبينهم إلا الزجاج وأننى لابد أن أدخر مجهودى إلى الليل حيث أنه يجب على أن أسعد درغام بيه وأن ذلك يحتاج إلى راحة.. وافق شريف وقمت منصرفة إلى بيتى ونمت نوما عميقا حتى السابعة، أخذت حماما باردا وقفلت الغرفة ورحت أجرِّب ملابسى الداخلية واتفرج على جسدى فى المرآه.. وانتهيت من تمشيط شعرى وتجفيفه ثم مددت جسدى فى سريرى مستغرقة أفكر فى مهمتى وفجأة دق جرس محمولى وكان المتحدث شريف:

- أيوه ياسهير
- آلو يابيه.. أيوه ياشريف
- أسامة باشا عايز يكلمك
- أوكيه

وجاءنى صوت صاحب الشركة رائقا وسعيدا:

- سهير باشا برافو.. مش هاقول غير برافو.. عرفت من شريف كل حاجة وزى ماانت عايزه عشرين ولا مشكلة إنت بقيتِ عمود من الشركة.. هاتِ عالآخر معاه.. على فكرة إنت بالنسبة له حاجة كبيرة أوى.. مراته فلاحة وحاجة نيلة واسمها سعدية.. ثقى بنفسك

ولاعبيه... مش عايزه تانى يسأل عن الشيكات.. يوقّع بعد ليلتك معاه على أى حاجة نطلبها.. وسكت.. قال هذه الكلمات فى نفس واحد كأنه قد حفظها ورتبها ليطلقها فى أذنى كأنها جملة واحدة.. كان يشجعنى ويبعث الثقة فى نفسى.. كان يريد أن يقول فى النهاية أنه فلاح متزوج من فلاحة وإنت بالنسبة له فاكهة فى جنة.. شعرت بثقة كبيرة ولم يكن لدى إلا أن أقول له:

- إدعى لى.. ماتشيلش هم ياباشا

- باى.. الله معاك

.. فى التاسعة والنصف ركبت سيارتى من أمام عمارتى فى شيراتون متجهة إلى مدينة نصر وأنا فى أبهى زينة، سرت فى طريق العروبة وتزاحمت مركبتى مع عربات بهوات هذا الطريق ولأول مرة أشعر أننى من هذه المدينة ومن حقى أن أنال هذا المال، وأيقنت أيضا أن العدالة فى هذا البلد لاتصل للناس الطيبين أو الذين ينتظرونها حتى تأتيهم.. لابد أن أدخل فى المعمعة، على الناس جميعا أن يكونوا جماعة.. لا.. جماعة لها أظافر وأنياب حتى تستطيع أن تنال جزءا من الثروة، حتى لو كانت هذه الثروة أموال المودعين فى بنوك الحكومة.. وأيقنت أن الجماعات الكثيرة من رجال الأعمال فى بلدنا تحالفوا جميعا لنهب أموال البنوك لأنها أسهل أموال يمكن الوصول إليها وكان الطريق إليها الرشوة والنساء ومستندات تم فبركتها بذكاء.. وصلت إلى شارع كبير وسط مدينة نصر هو أكبر شارع فيها وفى رقم عشرة يقطن درغام بيه أحد كبار رجال هذا البنك.. يقطن درغام بيه وحده بدون سعدية.. وصلت فى العاشرة وخمس دقائق وكالعادة البواب كان يرتدى بدلة وكرافته فهو رجل من أفراد الأمن الذين يديرون البرج.. رجل الأمن المودرن ينتظرنى ليوصلنى إلى شقة أحد أباطرة البنوك.. الفلوس تعمل كل حاجة... هى التى أتت به إلى هذا البرج.. هى التى جعلت هذا البواب النظيف ينحنى فى أدب تعود عليه، وفى أدب توظف عليه.. إنه يريد أن يعيش وهو غلبان ولابد من أن يكون رجل مؤدب دماغه كبيرة.. من هذا عشرة ومن هذه عشرين.. إنه فى اليوم الواحد يحقق دخلا لايقل عن خمسين جنيها.. هذا غير المزايا العينية.. لقد سبق حديثى معكم أيها السادة أحداثى.. لأنه من خلال عرضى لجسدى وكافة إمكانيات أنوثتى مع هذا الرجل تمكنت من الحصول على كثير من المعلومات والأخبار التى لم أكن أعرفها من قبل... عن البرج وأبراج مدينة نصر وعن رجال الأمن، ودعونى لا أحكى لكم كيف كان لقائى الجسدى مع هذا المدير فهو حديث مكرر ومعاد ولكن ربما سأحكى لكم فيما بعد عن بعض لحظاته المثيرة ولكن كان أهم حديث هو حديثه السياسى معى بعد عبورنا لقاء الجسد وبين جولة وأخرى من هذا اللقاء.

.. واسمحوا لى إذا وجدتم أن حديثى غير مرتب واسمعوا معى ياسادة عندما نكشت هذا المسئول لما إسترسل فى حديثه قائلا:

- على فكرة ياسيدتى لايوجد رجل أعمال حقيقى فى هذه المدينة
- كيف وكان فى بلادنا رجال مثل طلعت حرب
- كان شئ والآن شئ آخر.. رجال الأعمال فى أوربا وآسيا حاجة تانية
- أنتم الذين تعطوهم القروض
- إننا لانجد غيرهم.. والمشكلة أن كل ابن مسئول يريد أن يكون رجل أعمال، ونمنحهم تسهيلات كبيرة بضمانات مفبركة وكثير منها بالتليفون على أن يقوموا فيما بعد باستكمال مستنداتهم، ويصبح بعد أن نمنح كثيرا من التسهيلات لهذه الطبقة كل شئ مفتوح ومعلق وهذا يمثل إحراجا لكافة رجال البنك خاصة المسئولين منهم، ودورنا أننا نبلغ من هم أعلى منا..
- ماالذى يفعله هؤلاء المسئولين الكبار
- الصمت ويبلغون من هم أكبر.. حتى تصل إلى القمة
- وماذا تفعل القمة
- إكفى عليها ماجور.. الجميع يسكتون
- يعنى رجال البنوك المفروض تطبق القواعد الأصولية لمنح التسهيلات
- نحن بالنسبة للطبقة الحاكمة نسير فى عملنا بالأوامر... والأوامر معناها تنفذ وإلا يطاح بك من منصبك.. عند هذه الحالة كل واحد يلهث من أجل الإحتفاظ بوظيفته.. بالبلدى الناس كلها بتلف لفتها وفى الآخر كل واحد يدّور على نفسه.. نحن جميعا كمسئولين نف الحزام حول وسطنا والمفروض أننا جئنا إلى هذه الوظائف لإدارة مال عام حسب أصول وقواعد.. لكن بعد ذلك نجد أنفسنا نتصرف كما تأمرنا الأوامر..

وماذا يفعل أبناء المسئولين

- جزء من هذا المال يذهب إلى تجارة تحقق له أكبر منفعة شخصية، وتجدين شركاتهم مقامة على أقل عدد من العاملين وطبعا مافيش حاجة إسمها صناعة.. وجزء آخر من هذه القروض يصرف على تحقيق المظاهر الشخصية كشراء السيارة وبناء فيللا فى المدن الجديدة.. والعبث مع النساء..

- أنا أعرف رجل أعمال استولى على قطع كبيرة من الأراضى الصحراوية فى أول طريق مصر الإسكندرية الصحروای لكى يستصلحها ويزرعها.. وبعد أن قام بتخضيرها بشكل مظهرى وعمل أمام الناس والجهات الحكومية أنه يستصلح لكى يزرع.. توقف بعد ذلك عن كل هذه الإجراءات وقام برشوة مسئولى الحى والجهات المختلفة التى لها صلة بهذه الأرض وبالصدفة كان لى صلة قرابة بمدير مالى إحدى الشركات الذى أخبرنى أنه كان يعد كشفا شهريا بأسماء المسئولين فى هذه الجهات ليصرف لهم مرتب شهرى كبير وكان معظم هؤلاء لواءات جيش

وشرطة سابقون..

- ومات الرئيس وبدأ يموت قانون من يزرع أرض يمتلكها... وراح كل واحد من هؤلاء يعدل أرضه ويبيعها كأراضى إسكان ولازرع ولاقلع كما يقولون، أقسم بالله أنه باع فى أوائل التسعينات قطعة كبيرة منها لأحد المشهورين الذى بنى عليها قصر وحمام سباحة فيما بعد..

- أكملى.. بكم باعها.. بتلاتة مليون

- أنا أعرف هذا الرجل

- آه ياسيدى أرض صحراء أخذها ببلاش

- ماهذا الذى يحدث؟.. تريدين أن تقولى هذا

- العجب العجاب.. هل تعرف هذا الرجل اللهيف ماذا يفعل مع موظفى شركاته

- حلوة أوى اللهيف.. لماذا لانطلق على هذا الزمان زمان اللهيفة

- اسمعنى ياسيدى.. أين قانون العمل؟ أين مكاتب العمل فى هذه المدينة؟

- لا أعرف هل ستكلمينى عن مكاتب العمل أم عن هذا اللهيف

- هل هناك فى العالم موظف يعمل من التاسعة صباحا حتى الحادية عشر مساءا

- طبعا لأ.. بس موجود فى بلدنا.. وليس هذا الرجل وحده.. إنهم جميعا يفعلون مثل هذا الرجل.. وقليل جدا منهم يحترم نفسه

- وسألت قريبى هذا كم منحته البنوك من قروض فأخبرنى أنه يلعب فى حدود تلاتين مليون فقط وأن ميزته الوحيدة أنه يسدد.. هل تعرف لماذا؟

- لا أعرف.. قولى

- الخميرة التى لهفها فى الأول.. الأرض الصحراوية التى باضت له الذهب بعد ذلك

- كل واحد من هؤلاء له مشكلة نفسية.. ولكن.. وسكت

- ولكن ماذا؟!

- بعد ذلك نستطيع أن نقول هؤلاء الأغنياء الذين اغتنوا من اللهف والرشوة واستغلال القوانين.. المفروض هذه أموال البلد أموال الشعب الغلبان.. كيف نستطيع أن نأخذ من هؤلاء ماأخذوه بدون وجه حق.. سواء كانت هذه أموال بنوك أو أموال أرض تم نهبها.. بأى قوة نستطيع بعد ذلك كأمة إعادة الحقوق لأصحابها أو تحقيق العدالة.. بأى قوة

- تقصد أنه يجب علينا أن نقوم بما قام به التأميم زمان.

- المشكلة هايتولد حرامية من جديد..

هوّ فى شكل تأميم وخدوا همّ كل حاجة ومافيش حاجة راحت للشعب، وماينفعش الجعان يعطى حق لحد لأنه جعان من الأول، إستولوا على الأراضى والشركات وسرقوا القصور وتقلّدوا المناصب فى القطاع العام وسرقوه.. وفى الآخر خربت.

- على فكرة إحنا خرّمنا أوى ورحنا بعيد.
- الناس كلها بتقول الكلام ده.. ودى أكتر حاجه بيعملها الناس الغلابة.
- طيب هاتجيلى إمتى تانى؟
- عايزنى تانى يابيه البهوات
- طبعا.. هو حد يدوق الجاتوه وينساه
- ومراتك
- نيله أوى
- من البلد
- أيوه
- حلوه
- حلاوة شلبية وستيتة
- آهى ست
- أبدا زى مايكون باركب جاموسة فى البلد
- هو إنت ركبت الجاموسة يابيه
- زمان وأنا صغير كان أبويا بيركبنى الجاموسة وأروح اسقيها من الترعة
- واتجوزتها ليه ياباشا
- ماكنتش أعرف إن فيه ستات حلوه زيك
- وبعدين يابيه
- يعنى عايزك كل يوم
- كل يوم كتير.. خليها كل أسبوع.. أنا لسه ماخدتش حاجة ياباشا
- عايزه إيه
- عايزه الفلوس.. إحنا أحسن من غيرنا فيه شيكات وكمبيالات ومستندات.. أحسن من غيرنا كتير مابناخدش القروض بأوامر.. ولا خدنا أرض..
- إنتم الطبقة التانية فى البلد اللى بتسرق بقوانين وبأصول..
- خلاص ياباشا آجى إمتى آخد أول دفعة
- بالكتير أسبوع
- لكن إنت حلو إزاى كنت بتركب الجاموسة، ماحدش يصدق إنك فلاح..
- حلو زى أمى.. وجيت لأبويا بعد شوق.. كان راجل عنده أرض كتير... وزمان كان دلع ولاد الفلاحين أكتر حاجة يركب الجاموسة
- أقوم ألبس ياباشا الناس

- خليكى للصبح
- ماعنديش مانع.. بس على شرط آجى البنك على الضهر بكرة نخلّص كل حاجة
- خلاص مش مشكلة

ونمت فى أحضان درغام حتى الصباح وكان الرجل أثناء الليل وفى هزيعه الأخير يسألنى عن من أحب؟ فلم أجب عليه لأنه كان يريد أن أقول أحبك إنت، كان عطشانا لمن تقول له أحبك، ولكننى برهنت له بشوقى إليه أنه لايوجد رجل مثله وكان يردد هل وجدت رجلا مثلى؟ فأقول له: أبدا أبدا.. إنت رهيب.. وكنت أنطوى فى جسده حتى أشبعه لأننى كنت دائما أخاف من الصباح لأننا نعيش فى زمان لاآمان فيه، ورغم أننى إنتقلت من الفقر إلى الغنى وأن الله خلق الصبح وفيه أرزاق لكل الناس إلا أن الناس فى مدينتى تعوّدوا أن يسرقوا الأرزاق، وكنت أقول لليل لا تسألنى عن الحب طالما أنه فى الصباح تُسرق الأرزاق، إن هناك ملايين النساء مثلى فى كل الأحياء الشعبية ينادون كما كنت أنادى عن الأيام الممزقة عندما يسألهم الليل عن الحب والغريب فى هذه الليلة عندما التقيت مع رجل البنك هذا..أننى رأيت صمتا يلف الناس جميعا ويكاد يخترق جدار كل بيت، وأن الصبايا مازلن فى العشرينات يحلمن بأحلام وردية لكنهن فى واقعنا سيقفن فى طابور طويل حتى يتزوجن وقد ينتظرن فى هذا الطابور حتى يبلغ العمر فوق الأربعين ولايتزوجن.. لكن هؤلاء الصبايا يعشن فى الدروب القديمة يبحثن عن معنى للحب فى مدينتى وفى كل القواميس ولايصلن إلى شئ ولايسمعن كلمة واحدة توقف أحزانهن إلا كلمات من الأمهات بالصبر..

إنه زمان عاد فيه الداعرات عرائس والمرأة الشريفة إن وجدت عملا فإنها تبيع العرقسوس فى ميدان رمسيس.. إننا جميعا ننتظر ونصبر وفى أوقات نتأهب رغم أننا لا نمتلك أية قوة.. لكن هل يمنع الصبر الإنفجار؟

.. ودعونى ألا أحكى لكم تفاصيل كم كان فطور هذا الباشا فاخرا..كما كان بيته.. فإن الحديث عن الفخامة والأبهة والغنى للفقراء شئ مهين.. دعونى فقط أقول.. إننا فى الصباح فى تمام العاشرة نزلنا من برجه العال معا، وطلب منى قبل أن أركب سيارتى أن أذهب إلى الشركة كى آتى بتفويض يفيد إستلامى مبلغ نص مليون من البنك لتوصيله لإدارة الشركة موقع من صاحبها ومختوم.. وأننى يجب أن أذهب إليه فى حدود الواحدة ويفضّل أن يكون معى شريف، لكننى أخبرته أننى أريد أن أكون وحدى حتى يتأكدوا أن هذا مجهودى ونتيجة أعمالى وحتى أحصل على عمولتى معهم بشكل مشرف فوافق بعد أن قال: على العموم سوف أكلم شريف قبل الصرف لك.. فوافقته ممتنة وشاكرة وشد على يدى وانصرف بمركبته فى زحام شارع عباس العقاد وأنا خلفه أتبعه حتى اختفى عن ناظرى.. كنت سعيدة بما حدث وكنت أسعد لأننى اليوم سأصرف نص مليون للشركة..

.. ياسادتى الكرام لقد حدثت إجراءات أخرى مع شريف وأسامة من توقيع مستندات أخرى واستلام دفتر شيكات، وعلى ماتمت هذه التفاصيل كان اليوم قد انتهى.. لكننى فى الفترة المسائية لعمل الشركة جلست مع شريف وأسامة تبادلنا فيها التهانى وعبارات الإشادة بالمجهود الذى بذلته، وكان أسامة يريد أن يلقانى فى الفندق لكننى رجوته أن يتركنى الليلة حتى أستريح وأكون الغد فى أتم صحة وعافية وأيدنى شريف فى ذلك، وانصرفت فى التاسعة بعد استلامى شيك بصرف مبلغ نص مليون جنيه ..

وفى تمام الحادية عشرة صباحا وصلت البنك وقابلنى الدرغام فى حرارة وكان يريد أن يقبلنى ولكننى أثنيته وجلست قبالته متهدجة الأنفاس ولما هدأت قليلا قلت وأنا أسوب عينى نحوه فى كثير من الرقة والدلال:

- الشيك معى

- أوكيه.. أطلبى شريف

وهاتفت البيه فى المحمول:

- أيوه ياشريف.. درغام بيه عايزك

- وناولته الموبايل فقال:

- إزيك ياأصيل.. تحت أمرك.. فين الورود

- ياباشا إصرف بس.. هانتقابل بالليل

- فين

- فى أى حته تعجبك

- ماريوت الزمالك

- حلو أوى.. الساعة كام

- بعد المغرب.. معايا محمولك فيه تليفون قبل العشاء .. عيونى ليك تعبت معانا كتير

- لا أبدا.. دا الواجب.. باى ياحبيبى

ولم يستغرق صرف الشيك وعد النقدية بالماكينة نصف ساعة، وحمل أحد السعاة النقود فى حقيبة بلاستيك سوداء وتبعته حتى خرجنا من كل الأبواب، وفتحت باب السيارة الأمامى للرجل الذى وضعها بجانبى فوق المقعد، وانحنى وهو ينصرف فناولته عشرة جنيهات كعادتى وانحنى ثانية كأنه يركع.. وتلاعب برأسى الشيطان فى أن آخذ المبلغ وأذهب إلى بيتى.. أليس هذا المبلغ يغنينى وأخلص من كل المواضيع وبكفاية وجع قلب.. لكننى سرعان ماأيقنت أن ذلك سيوقعنى فى مشاكل كثيرة خاصة أننى وقعت على ظهر الشيك باستلامى المبلغ ودونت عنوانى ورقم البطاقة.. لا.. إن هذا ليس فى مصلحتى إن ثلاث سنوات أخرى بالشركة سأحصل فيها على أضعاف هذا المبلغ كونى أمينة ياسهير وعيشى مع الرجالة الحلوة دى.. خمس رجالة كلهم

فلوس.. أسامة.. شريف، درغام، عبدالسميع، باقى عبدالعظيم، وجرجس.. آه ياسهير المستقبل كبير أوى.. إنت لسه فى الأول.. الصبر والتخطيط بالهداوة

.. كان البودى چارد ينتظرنى أمام باب الشركة ولما رآنى أركن السيارة هرول نحوى ووقف بجانب المركبة، وفتحت الباب وأشرت إليه بحمل الشنطة السوداء قائلة:

- استنى ماتمشيش هاتمشى ورايا

- حاضر ياافندم تحت أمرك، أسامة باشا بيقولك هو مستنيكى فى قوضته

- خلاص وشريف معاه

- كله ياست الكل.. حتى اللواء قاعد معاهم

- وقلت فى سريرة نفسى.. واللواء كمان مابقبلش الراجل ده

-- وطلعنا درج الشركة وقبل باب قوضة الإدارة قبّلتنى أحلام بحرارة وبعدها هايدى ثم نادين.. حتى محمد الساعى إنحنى لى وأنا أدخل غرفة البهوات.. كان الجميع يعرفون أننى أحمل معى الخير.. وكان أول مشاعر الإمتنان أن قابلنى أسامة فى منتصف الغرفة واحتضننى وقبلنى من ثغرى فى رقة وقال:

- مايجيبها إلا نسوانها

.. وكدت أهوى بين ذراعيه.. كنت مغتبطة فرحة من شدة سعادتى بالنجاح ومن المقابلة الجميلة التى قوبلت بها حتى هويت على المقعد الذى كان يجلس عليه اللواء.. حيث قام الرجل ليجلس على مقعد آخر مشفقا علىّ من المجهود الذى قمت به.. وكان يقول بين الفينة والآخرى.. برافو.. برافو ونعم الستات

.. مش قلت لك ياشريف بيه.. إن الست دى كده..

ورحت أتفرج عليهم.. كان فيه هيصه.. وفى هذه الشركة مافيش أسرار.. كان الكل يعلم بأن سهير راحت البنك تجيب فلوس.. وكان الموظفون أشد الناس فرحا لأنهم سيحصلون على مرتبهم اليوم دون تأجيل كما حدث مرات قبل ذلك وانصرف اللواء بناءا على طلب أسامة والذى قال له وهو يخرج من الباب:

- ياسيادة اللواء

رجع الرجل خطوة ثم استدار نحونا بعد أن قفل الباب وقال:

- أيوه ياباشا

- بابا مش عايزه يعرف إن فيه فلوس جت من البنك

- ياباشا أمرك... طبعا زى ماانت عايز.. أوامرك سمعا وطاعة..

ثم خرج بعد أن انحنى لصاحب الشركة الشاب الذى لم يبلغ بعد الأربعين عاما.. ولم أكن أرى هذه الإنحناءات وأنا أعمل فى الهيئة.. وطبعا أدركت أن هذه الإنحناءات تتم فقط فى

شركات القطاع الخاص والبنوك.. حيث توجد الفلوس الكل ينحنى وهذا اللواء الذى كان يعمل مدير أمن إحدى المحافظات ينحنى من أجل الحفاظ على مرتبه لأنه كما علمت يريد أن يجهز ابنته العروس فى أقرب وقت ممكن، المهم انصرف الرجل الذى أبغضه وبقى الحبايب.. وقال اسامة مبتهجا لشريف:

- عايزين نوزع الفلوس
- اتفضل ياباشا.. نوزعها
- المرتبات كام
- أربعين ألف
- وعهدتك
- عشرين
- وسهير
- عشرين
- تستاهل
- وعهدة المصنع
- عشرة
- الباقى عايزه
- كتير ياباشا
- كتير علىَّ وأنا صاحب العز ده كله
- مش المقصود خد اللى إنت عايزه، نحط فى الخزنه حاجة.. إنت عارف دلوقتى مافيش بنوك هاتدينا غير البنك ده.. مش فيه ماكينات جايه بعد شهر.. مصاريف التخليص وحق المكن هانجيبه منين.. مش مضمون نجيب تانى بالسرعة دى
- بنت القحبة عايزه ميت ألف تحولهم بلدها
- معلش ياباشا.. هى بنت القحبة دى مش كفاية عليها إنك مستتها وعايشة مستوى عال أوى إنت جبتها من شارع الهرم وعملتها شريفة.. عايزه كمان تقاسمنا فى فلوس الشركة
- خلاص ياشريف كفاية.. إتفقت معاها وادتها كلمة
- يعنى كل سنة بتاخد كام ميه.. هو إحنا لاقيين الفلوس.. اتجوز ياباشا أرخص بكتير من كده
- شوف الرقاصة خدت كام.. والممثلة كام.. ودى كانت فى بلادها مش لاقيه تاكل.. جت مصر شارع الهرم لمها، وبعدين إنت لمتها ده كتير أوى..
- يعنى بكفاية اللقمة.. دا أنا عايش ياشريف

- الستات كتير أوى فى البلد من غير فلوس.. دّور ياباشا على واحدة شريفة تتجوزها وتخلف ليك عّيل يورثك.. أنا بحبك ياباشا.. بالكتير تديها تلاتة فى الشهر تبقه ليك بيت وأبناء وكيان.. إنت كده ضايع.. ملايين صرفتها على النسوان دولت.. مش صعبان عليك.. لو مش خايف عليك خايف على نفسى أنا بوقّع معاك فى الشيك يعنى أنا ضامن متضامن.. إنت عارف ياباشا إن كل سنة لا يقل عن سبعة مليون فوايد بس.. المشكلة دلوقتى هانسدد منين

.. وقام أسامة من مكتبه وهو يضرب بقبضتى يديه حتى كسر الزجاج وسال الدم من أصابعه وزعق بصوت عال:

- إنت خربتها معايا.. مش إنت اللى جبت الفلوس دى كلها.. يانصاب يانصاب..

ورحت أحتضنه من ذراعيه وأجفف دمه بمناديل ورقيه.. وراح شريف يحتضنه هو الآخر ويقبل رأسه محاولا إحتواءه وهو يقول معلهش أنا آسف.. والله ماقصد.. هدّى نفسك.. انت حر فلوسك إنت حر... أنا بس خايف عليك.. علشان خاطر ربنا هدى.. خلاص.. وكان قد وضع يده فوق جراب مسدسه عند وسطه.. كأنه يشاور نفسه فى إخراج المسدس واستعماله يانهار إسود دا العمليه لعب عيال.. يعنى فى لحظة يمكن يعملها فى شريف أو فى أى حد.. أو فىّ.. ياخرابك ياسهير بتشتغلى مع مجنون... ونجح شريف فى تهدئته وأقعده على كرسيه وراح يحتضنه ويقبل رأسه معتذرا وهو يقول:

- إعمل اللى إنت عايزه.. إعمل اللى تحبه.. إحنا كلنا ملكك.. إنت الباشا واحنا العبيد

وابتسم أسامة أخيرا وقال لشريف:

- هات سيجارة ياوسخ

... وجلست فوق المكتب عند رسغه وأخذت يده أقبلها وكانت ركبتى تلامس جبينه وشعره لما كان يرد علينا منفعلا وتنحنى رأسه.. وظللت قريبة منه هكذا حتى أمسكت بكف يده ووضعتها على حجرى كأننى أدفئها.. رأيته ضعيفا طفلا.. رأيته شابا متهورا يلعب بالنار.. وهل يوجد فى اليابان أو فى الصين رجل أعمال ينهار من أجل إمرأة.. أيوجد حتى رجل عادى يستلف من جيب غيره ويغدق على إمرأة بهذا السفه.. ولما اندمج فى تدخين أول سيجارة ملفوفة غمزه شريف بثانية وثالثة حتى أصبح فى دنيا أخرى.. وكان يبدو كأنه نسى كل شئ من حوله.. ورحت أتكلم مع شريف حديثا هامسا لما بادرنى قائلا:

- شفت الباشا حنين إزاى

.. ولما كنت متأكدة أنه يسمعنا لكنه لايستطيع الحديث معنا لأنه مبسوط ومنشكح قلت:

- آدى الرجولة.. آدى نموذج الراجل اللى يحب

- هو يعتبر رجل التائبات فى ملاهى القاهرة.. إن هذه هى الرابعة

- التائبة الرابعة

- لكن بالفلوس.. يعنى أى واحدة منهم مش هاتوب لفقير
- زمان كانت الست تتوب لراجل بتحبه.. تتوب عن كل شئ علشان راجل بتحبه.. حتى ولو كان فقير دُقّه
.. وفجأة قام الباشا ليدخل حمام الغرفة فقال شريف بجرأة:
- دا خايب كل واحدة من الستات دولت خدت ملايين على إيدى
- يانهار إسود.. الأربعة من مصر
- اتنين من المغرب.. أنا اللى كنت بحول على عناوين أهلهم، واللى من مصر خدوا أكتر.. واحده رقاصة وواحدة ممثلة، قلت لك قبل كده
- والنسوان دى كانت عارفاك
- لما كان يسافر قبرص أو الصين أو أى بلد.. كنت بخلى مراتى تروح تستريح منه.. وأروح أنا للست من دولت ألتقى بيها لما أقول يابس.. وكانت كل واحدة تحكى لى حكايات فيها البدع عنه
- يعنى ماكانش عاجبهم
- أهم حاجة كل واحدة فيهم حاسباها من الأول للآخر.. يعنى هو صفقة وبس... أبسط دليل.. ليه كل واحدة منهم كانت بتقلع لى فى منتهى السهولة.. وكانت بتعتبر ده فسحة من الحبسة اللى عايشاها معاه.. أرزاق ..
- ياخرابى مضحوك عليه فى الأول والآخر.. لكن مراتك.. وسكت
فقال:
- هو عايز مراتى على طول مع اللى بيعاشرها
- ليه
- كان ساعات الست بتاعته تكون تعبانه، فكان يذهب إلى زوجتى.. وكانت مراتى ماسكة مصروف البيت وبتدير الطباخات والشغالات وكل يوم عاملة برنامج فسحة لرفيقته
- وإنت راضى بالدور ده لمراتك
- لو مارضيتشى غيرى هيرضى.. وبعدين بتاخد مرتب كبير أوى.. دا غير الخنصرة.. ومراتى فى الأصل بتحب كده
- سبتها بحريتها
- بصراحة إحنا بقينا كلنا زفت وقطران.. كل الناس اللى معاهم فلوس كده.. والناس اللى حواليهم زيى وزى غيرى مابقاش فيه حد نضيف
استغرق أسامة وقتا طويلا فى حمامه.. فقلت لشريف:
- شوفه بيعمل إيه

وطرق شريف بابه الصغير فإذا به يقول:

- ناولنى الفوطة.. باخد دش

- دش حاف ياباشا

- هات ياو.. .. حضّر لى سيجارة

- العلبة تحت أمرك

.. ولما خرج من الحمام جلسنا ثلاثتنا فى ركن الصالون المذهب بعيدا عن مكتبه.. ودخلت علينا سكرتيرة بعد الأخرى لتبليغ رئيس مجلس الإدارة بقدوم عميل أو زائر أو.. ولكنه كان دائما يقول.. مش فاضى.. خليه يقابل اللواء .. يقابل المدير المالى، ومرت الساعات سراعا وأقبل المغرب فمازحه شريف قائلا:

- صلى ياباشا العصر المغرب خلاص

- أصلى ليه.. ماهى مستورة ومعدن

- طيب وزّع ياباشا

- هات الشنطة.. تعالِ فى حضنى ياسهير

- إقفل الباب.. عيونى ياباشا .. ياأحلى باشا فى مصر

.. قفلت الباب الكبير بالترباس الغليظ وانقلبت أرتمى فى أحضانه.. وراح يقبلنى فى عنف.. وشعرت بأننى أندمج معه رغم وجود شريف وخلع عنى قميصى فقال شريف كأنه يثنيه:

- هدّى ياحبيبى هاقوم أمشى

- لأ ماتقومشى حلاوتها وإنت قاعد

- طيب إدينى العهدة

- كام

- عشرين

- خد عشرين ألف

.. وفى سرعة البرق عكم شريف العشرين ثم قال:

- وسهير

- واحد وعشرين

- وليه الواحد

- علشان أجرتها دلوقتى

- روح المعادى ياباشا

- لذتها وحلاوتها وإنت معانا

- دا صعب أوى عليا

- عايز أذلّك ياشريف

وابتسم شريف نحوى.. كان يريد أن يقول.. وإيه يعنى.. وهز رأسه وشوح لى بيده كأنه يكرر.. إخلعى كله.. فقلت له:

- عد الواحد وعشرين

.. ولفها فى شنطة سوداء صغيرة ووضع فيها حقيبتى وقال:

- واحد وعشرين.. حلال عليك يابتاع البنوك

... ومرت دقائق بعدها تهالكت على سجادة بالأرض.. ولم أشعر ببرودة الطقس وكنت أرى المطر ينقر زجاج النوافذ العديدة بالغرفة الفسيحة.. وفى هذا الموقف الغريب الذى يرانى فيه رجل يكشف كل شئ أمامه.. لم أشعر بالحزن ولا بالألم.. كنت أشعر بمعان أخرى فيها أن لكل شئ صدى وأن هذا بعض من الجنون، أى معان حولى.. أهى الخطايا التى تقترف كل يوم فى شركات اللصوص.. لاوقت اليوم للهموم.. كرهت الحاجة وكرهت الفقر.. وكرهت أن يطلب إبنى بنطالا وأقول له مافيش.. لكننى لم أكره أن أبيع نفسى لأى رجل يملأ جيوبى بالفلوس... فكيف أكره أن أتعرى لرجل يفترسنى وآخر يتفرج علىّ كأننى.. أذا أكثر من المومس.. إن المرأة العاهرة تخجل مما أنا فيه.. وقارى بردائى فوق رأسى مزيف.. حررنى ياأسامة من كل عقود القديمة لأننى كلما تذكرتها كرهت أبى وكرهت أمى لأنهم لم يصارحوننى بما حولى من ذنوب.. إن ظلام الليل يطوى أحزاننا لمّا ننام.. وإن ظلام حياتى بات يطوينى فلا أفرق بين ليلى ونهارى.. إنها كلها أوقات نسرق فيه أقوات الغلابة.. وأصبح الحراس يتقاضون فى كل وقت وحين من هؤلاء مثل أسامة مرتبات ومناسبات وهدايا ليغضوا أطرافهم عنهم.. بل ويحمونهم من المجرمين.. أصبح حاميها حراميها.. لا.. أصبح حاميها يحمى حراميها.. أنا بقعة من ظلام لهذا الكون الحزين.. فكيف لى لا أندمج ومازت بين ليل ونهار أصحو.. ليس لمثلى أن يفيق.. أصبح الليل والنهار وقتا واحدا فيه ألوك الكلمات تطوى رؤوس الرجال الماجنة، كما تلوك الرياح بألفاظ صفراء تصفع وجه المارة.. كأنه عالم يرصده الفناء من كل جانب.. الضائعون سلاسل من حديد لا تنتهى.. لايفك الحديد إلا الحديد، ولا يوجد فى مدينتى رجل من حديد.. كان فى الزمان القديم رجل قوى يحكم حارتى بالعدل والقول الحسن بين الناس.. فمابالكم ف مدينة مثل القاهرة.. عاد الرجال الأقوياء خرافة يحكونها.. أتمنى أن يكون فى كل حى رجل واحد أذهب إليه وأحكى مذلّتى..

... خرجنا من الشركة فى جماعة.. وذهب كل منا إلى عربته وانصرف إلى حيث بيته. ولما كنت أمر من شارع جريدة الجمهورية حتى أصل إلى شارع رمسيس كانت نفس مجموعات الكومبارس رجال ونساء ينتظرون أى ريجيسير يأتى ليأخذهم فى تصوير لقطة من فيلم، كنت أشعر أن وراء كل واحد من هؤلاء قصة.. ولكن لا أحد يعنى بهم لأنهم فقراء.. كانوا على

شاكلة واحدة كأنهم وقعوا جميعا من قعر القفة.. غريبة أوى الناس مصدِّية جاءوا من حارة واحدة.. حارة من جوه حارة فى كل حى شعبى يرقد الفقر دفين.. شغلنى هؤلاء الناس وكنت أكلم نفسى حتى انطوت سيارتى فى أرتال المركبات المسرعة فى شارع رمسيس قرب غمرة، بعدها رحت فى حديث آخر.. من هذا الأسامة.. مالوش حل.. عمرى ماشفت كده.. يلقانى كأنه آخر يوم فى حياته.. يلتهمنى فى عنف ويلعق كل ما عون فى جسدى كالكلب الذى يلعق من ماء البركة العكر.. كان يجب أن أتحمله مهما كان فظا حتى أحتفظ بوظيفتى فى الشركة.. هو فيه واحدة فى مصر بتاخد من وظيفتها عشرين ألف جنيه، رجال يشترون الخمر والحشيش والفياجرا كى يكونوا رجالا.. يشترون كل شئ كى يستمتعوا ويوقظوا رجولتهم من أموال سحبوها من بنوك هى أموال الشعب.. أموال ليست أموالهم يستعملون بها بنات ونساء هذا الشعب.. فأنا إبنة المدرس الذى تخرج من كليته الدينيه.. واحد من أبناء الطبقة المتوسطة وبنته أنا من هذه الطبقة.. فما بال بنات غيرى من آباء لم يتدينوا وأسر منفكة.. أكيد دول بنات آخر بوظان عنى بكتير.. هكذا بلغت بتفكيرى وكنت أكلم نفسى حتى وصلت إلى مسجد ناصر بكوبرى القبة.. فقلت وأنا أدخل أول شارع الخليفة المأمون.. نحن جميعا نسرق أموال هذا الشعب.. فمن الناس من يقول الأخذ من المال العام حلال طالما أن الجميع يأخذون وأن هذه هى الطريقة الوحيدة لكى تعيش فى هذه البلد.. ولابد لكل الناس من كل الطبقات أن يقوموا ليأخذوا من هذا المال فهذه هى الطريقة الوحيدة للعدالة.. لكى يعود مال الشعب للشعب.. وفى ميدان الكوربة بكيت.. إنفجرت فى البكاء لأننى لم أعد أعرف إلى أين؟ لكم الله أيها الفقراء ليتنى من الفقراء حتى يكون الله معى.. لا أقبل أن أعود للفقر مرة ثانية إن الحاجة مؤلمة على النفس.. لكن أعرف وأدرك أن الله ليس معى أبدا طالما سرت فى طريق لا رجعة فيه.. كانت دموعى تنزل بغزارة حتى وصلت إلى بيتى فى مساكن شيراتون.. إن الدموع لن تغفر خطايا إمرأة باعت نفسها.. ورحت أردد هذه العبارة فى نفسى حتى دخلت بيتى.. ومرت أيام فيها تابعت مع العملاء عبدالسميع وعبدالعظيم وجرجس موعد وفاء الشيكات، واتفقت مع كل واحد منهم أننى سوف أذهب إليه قبلها بيومين لتحصيل الشيك نقدا ، تابل مخالصة، وأننى على استعداد لأن أذهب مع كل واحد منهم إلى أى مكان يريده نستمتع ونلهو.. وكانوا ثلاثتهم فى منتهى السعادة لهذا الإتفاق، وأخبرت كل من أسامة وشريف بذلك جهرا فباركا هذا وأثنى على كل منهما على مجهوداتى.. شعرت بأننى أملك زمام الأمور.. أو أننى ألعب دورا بالغا فى الشركة.. وفى يوم قبل أن ينقضى أسبوع عن لقائى الأول برجل البنك هاتفنى الرجل وطلب قضاء ليلة أخرى.. ولما أبلغت شريف وأسامة برغبته فى لقائى كان رأيهما أنه وقع لأسنانه وأنه يجب على أن أطلب منه تسهيلات إئتمانية أخرى وأن يكون هذا المطلب بناءا على طلبى أنا شخصيا، وأنه يجب على أن ألعب معه بمفردى.

وأننى إذا نجحت فى هذه اللعبة الجديدة فإن العمولة ستكون ثمانين ألف جنيه عن كل مليون، وفى هذا الحديث أخذ أسامة يروح ويجئ فى الغرفة وهو يضحك من فرط سعادته وذهول هو إحنا هنرد حاجة.. خدى من الطيب نصيب.. أصل هى خلصت خلاص.. ونظر نحوى بقوة وكأنه يحثنى بالتخليص على الرجل ليقدم لنا أجمل تسهيل إئتمانى وأخذ يردد :

- هات على الآخر ياسهير.. إنت واحنا بنستفيد.. علشان تاكلى جاتوه معانا

- حاضر ياباشا تحت أمرك..

.. وتواعدت مع رجل البنك وذهبت إليه فى ليلة من الليالى بعد منتصف إبريل وقضيت معه ليلة حتى الصباح.. وفى هذه الليلة جعلت هذا الرجل المحروم من إمرأة تلاعبه كما كان يتمنى جعلت هذا الرجل يقول لى :

- ماذا تريدين من البنك

- أريد مزيدا من التسهيلات

- عليكم أن تقيموا مخزنا جديدا هنا فى القاهرة

- البضائع فى كل المخازن مرهونة

- عليكم أن تسحبوا من كل مخزن جزءا منها

- كيف؟

- إرسلى شريف.. هذا رجل نصّاب وسيفهمنى

- اعطنى فكرة ياحبيبى.. بعض من خبرتك

- سأعرض عليك عرضا آخر حتى يأتينى شريف

- ماهو؟

- هناك سيدة مسنة لديها قطعة أرض كانت لزوجها المتوفى.. وهناك بعض النزاعات عليها من بلطجية الحى.. هذه الأرض فى حاجة إلى واحد قوى يشتريها

- فى أى حى.. ولماذا لا أشتريها أنا

- أتمنى.. فى جسر السويس بعد سوق القنال

- إعطنى فولتها ياباشا

- ألف متر مسورة... ممكن أخلصها لك بمائة ألف

- وكم تساوى فى الحقيقة

- مليونين على الأقل

- وكيف ذلك؟

- هى سيدة هبلة.. تخاف من القطة

- والخطة ياحبيبى

- أبو ذقن
- ماذا تعنى؟!
- الشيخ
- كما يقولون تحت القبة شيخ
- مثل هذا

.. وقمت أرتدى ملابسى بعد أن أسبغت عليه كثيرا من قبلاتى حتى بلغ مزيدا من السعادة، ونزلت من بيته على أن يخابرنى خلال يومين لنذهب إلى الشيخ الذى سيخلص هذه الصفقة

.. وفى مساء أحد الأيام ذهبنا أنا والباشا إلى حى المطرية قرب شارع المترو.. دخلنا بيتا من طابق واحد حيث كان الشيخ ينتظرنا وقد أتى بصاحبة البيت العجوز.. جلسنا فى غرفة صغيرة بها كنبة بلدى وسرير.. جلست عليها أنا وصاحبى رجل البنك الكبير.. وكان درغام بيه يبتسم.. وصاحب البيت يدخل علينا مرحبا ثم يخرج.. جاءنا بدورق مياه.. بعدها شاى فى براد .. بعدها سمعنا صوته بالصالة يتحدث مع صاحبة الأرض بصوت خفيض.. بعدها أتى لنا بالكولا .. وكلما دخل وخرج يرحب ويقول.. مرحبة.. لمؤاخذه البيت مش أد المقام.. كان الرجل فى الخمسين من عمره.. ومن خلال الحديث الذى دار بينه وبين درغام عندما كان يجلس قليلا.. بادره درغام بيه قائلا حتى يزيل حرج الشيخ:

- ياراجل عيب.. إحنا ولاد بلد واحدة.. فاكر عمك حسن تنك وعبده أبوحته كوز والدحدوح.. ياسلام.. فاكر لما كنا بنقعد على حرف الترعة بالليل فى القمراية ونلعب فى التراب.. فاكر لما كانت أمى وأمك تخلينا نروح نجيب خميرة من بيت خالتى لبيبة النوبية.. كانت أشهر واحده فى البلد بتعمل خميرة

ويضحك الشيخ ويقول:

- الحمدلله إنك فاكر ومش ناسى أصلنا.. دى فعلا كانت أيام حلوة ياريتها دامت.. كويس يابيه إنك مش متكبر.. دى أحلى حاجة فيك.. صحيح إنت ابن أصول الله يرحم أبوك.. الله يرحمك يابه حداد .. على فكرة كل الناس فى البلد بتحب أبوك الله يرحمه، إنت فعلا أصيل زى أبوك.. وأمك الله يرحمك ياحاجة حميدة كانت ست عاملة زى الناظر.. البلد دى كان مليانة ستات عظيمة الله يرحمهم جميعا.. فاكر خالتى أم نجاح وخالتى ستيته الصاوى وخالتى مجيدة القطان والحاجة أم إبراهيم البكلية وخالتى مامعه وطمرهان قنديل والست خضرة أبوزيد .. ستات أد الدنيا خلفت رجالة..

وراح درغام بيه يضحك من أعماقه وبعد أن إنتهى قال:

- إنت عديت البلد كلها.. الله يرحم الستات دى كلها.. المهم إحنا فى دلوقتى.. اتفاهمت

مع الست الصعيدية.. لكن إنت ياشيخ سعيد عارف نسوان كتير أوى.. سمعت كده إنك تعلب حريم المناطق الشعبية فى الناحية دى.. ياخسارة يابودقن ..

- أبدا يابيه دا علشان المصالح.. وأمسك بلحيته

- المهم خلّصت الموضوع معاها

- طبعا ياباشا

وكان الشيخ ينظر نحوى كما يقولون من تحت لتحت.. وكنت أبتسم..

- هاتها

- ياخاله فهيمة

ودخلت علينا السيدة.. إنها ليست بالعجوز.. وكما يقولون فيها الرمق.. لها جسد قوى وأرداف بلدى لكنها مغربية.. متوسطة الطول بيضاء كأنها من بحرى وتقاطيع وجهها مغربية بلامبالغة

- شوف يابيه.. وإنت مين ياست

- أنا أخته

- شوف يابيه أنا عايزه حاجتين إتنين وخدوا الأرض والأوراق اللى معايا

وقال درغام بيه:

- قولى ياستى تحت أمرك

- عايزه ميت ألف دول لوحدهم حطهم ليه فى البوستة غير عشر تلاف فى إيدى أصرف منهم.. الحاجة التانية أعيش فى الخص بتاعى طول عمرى

- وإذا بنينا ياحاجة

- إبنى لى قوضة تحت السلم

- خلاص ياحاجة.. نخلّص إمتى

- فيه حاجة عايزه أقولها.. الأرض دى وضع يد من تلاتين سنة بس فيه عقد ابتدائى بيع وشراء من عيد معتق

- مين عيد ده

- دا راجل كان أكبر تاجر حشيش فى سينا.. ولما وقعت حرب سبعة وستين جه جسر السويس بكل مايملك.. جه مهاجر وقعد هنا فى جسرالسويس كوش على أرض كتير برجالته وبفلوسه وعلى فكرة كان ليه معارف ماسكه مناصب كبيرة أوى فى البلد.. وكان كل يوم دابح عجلين علشان العزومات اللى كان بيعملها علشان يتمكن من وضع يده

- عارفه وشفته.. بانى جامع كبير أوى ياشيخ

- على فكرة هو متبرع بالأرض بس.. وعمره ماركع ركعه واحدة.. وكان شرط تبرعه أن

يسمى الجامع باسم جامع عيد معتق

- الدنيا فيها حاجات غريبة المهم خلص ياشيخ

- إنتم موافقين على الفلوس والخص

ونظر نحوى درغام وقد كست وجهه ابتسامة عريضة وقال:

- خلاص ياست الكل فيه أى مانع

- أبدا إنت ياست فهيمة فوق راسى.. الخص وشقة زى ماانت عايزه

- لأ.. الخص بس وياريت لما تبنوا تسيبونى فى الخص على جنب

- اللى إنت عايزاه

وقال الشيخ وهو يحضن صدره بيديه:

- ناخد الأوراق ونروح بكرة الحى.. برضه نطمئن

وقالت العجوز الجميلة فى إنفعال:

- هانروح الحى علشان نريح الست.. لكن الناس اللى حواليه بنت البيوت إزاى.. كله وضع يد.. وقال درغام بيه وهو يبتسم إلى صاحبة الأرض:

- ياستى إنت أختنا.. خللى الشيخ سعيد يروح بكره مع الست سهير إلى الحى.. آهى إجراءات..

- خلاص ياباشا زى ماانتم عايزين.. والفلوس

ورد الشيخ قائلا ليطمئنها:

- الصبح هانروح الحى.. وبالليل هانخلّص كل حاجة وفلوسك والخص زى ماانت عايزه

- خلاص الله يبارك لهم

وصافحنا السيدة العجوز وغادرنا بيت الشيخ سعيد الذى ودعنا حتى ركب كل منا سيارته

ولما كنت أنعدل بمركبتى منطلقة نحو شارع جسر السويس أوقفنى الشيخ ومال نحوى هامسا.. طبعا عمولتى معاك ياست الكل.. فقلت له تحت أمرك... وأكدت عليه بأننى سأكون فى الحادية عشرة صباحا أمام باب الحى.

******

كان الشيخ سعيد يعرف الموظف المختص الذى تقع الأرض فى دائرة إختصاصه.. وقابلنا الرجل بترحاب وقبّل الشيخ من وجنتيه وكان يدعى عيد لويس ورحب بى.. وراح الرجل قليلا يقلّب فى دفتره حتى أخذ يقرأ.. أرض عبدالعال فرج قناوى.. ألف متر مسورة... عقد إبتدائى من البدرى خلف طنش فى سنة سبعة وستين حدودها الأربع بحرى.. والغربى.. والجنوب.. والشمال.. حتى أوقفه الشيخ قائلا:

- ياعيد أفندى.. المالك الجديد يشترى إزاى

- دا تخصصى.. هاكتب أنا العقد حسب الأصول وبكفاية الشيخ وأنا وواحد من الحتة يشهد .. والست تختم بختم جوزها وختمها برضه ونكتبه بتاريخ قديم قبل مامات عمى عبدالعال وبعد كده خدوا عليه صحة ونفاذ .. بس وخلاص وأنا عليَّ الباقى.. وسكت قليلا ثم ضحك بصوت عال والباقى ماانت عارفه ياشيخ :

- عمولتك فى عنينا

- لأمش باخد عمولة.. حلاوة.. باخد حلاوة وألف مبروك ياستى ..

- طيب إمتى

وقال الشيخ :

- النهاردة بالليل مش عارف بيتي ياعيد افندى

- جيت لك مرة من مدة برضه ملّيتنى العنوان والتليفون

- حارة سامى لوقة.. رقم عشرة والتليفون إكتب

- الساعة كام آجى

- إدينى تليفونك ياعيد افندى هاكلمك فى البيت.. موجود فى البيت

- أنا فى البيت على طول هاستنى تليفونك

- بعد المغرب وإنت طالع

- خلاص ياشيخ

.. وذهبت بعد ذلك إلى البنك الأهلى فى جسر السويس أمام فندق السلام ورافقنى الشيخ حرصا منه فى أن يحمينى إن تعرضت للص.. وبعد أن خرجنا من البنك كنت أحملهم فى حقيبة سوداء من البلاستيك مائة وعشرون ألف جنيه وعاد فى رصيدى ألفان من الجنيهات، وركبنا السيارة على أنى متجهة إلى بيتى فى شيراتون فأصر الشيخ على الذهاب معى كنوع من الشهامة ويطمئن عليَّ وفى الطريق قال الشيخ :

- ربنا يتم ليك بخير.. بعد كده ياست الكل عمولتى

- تحت أمرك كام

- درغام بيه ماقليكيش

- لأ قول أنت ياشيخ

- عشرة

- مش كتير

- ياستى الأرض تسوى مليون.. إنت خدتيها فى لعبة.. وأنا السبب.. خليت الست صاحبتها توافق وتخلّص إن شاء الله بدون حضور حد من قرايبها أو معارفها.. الأمور كلها طبختها.

- حاضر تحت أمرك ياشيخ
- بعد كده هاتعملى إيه فى الأرض
- مش عارفه.. يعنى علشان تتبنى عايزه فلوس سوخة
- أنا ممكن أبنى ليك من غير ولا مليم
- معقولة.. إزاى ياشيخ
- على فكرة ياست سهير أنا باشتغل مقاول بنيت بيوت كتير أوى
- بس دى هاتبقه عمارة
- ماتفرقش
- إزاى
- قولى ياسعيد إبنى وأنا أبنى
- يانهار إسود
- حرام ياستى تسوّدى النهار
- مش مصدقة
- إنت وراك حاجة
- مش فاهمة
- بعد ماتوصلى البيت هاتعملى إيه
- هانام
- تعالى معايا البيت شوفى الرسم بتاع الأرض.. رسم هندسى كنت عامله للعجوز علشان تبنى.. وهاكلمك على التفاصيل بتاع الشغلة كلها
- مستعدة آجى معاك على شرط إنك تبنى من بكرة
- من بكرة.. ياستى إحنا ناس لينا إتصالات بالسوق.. كل سوق العمارة بتاعى

.وصلنا إلى البيت.. أقصد جرّجت العربة أمام البيت وتركت الشيخ بها لأعود إليه بعد دقائق.. وفى الشقة كان الولد والبنت اللذان قابلانى فى لهفة وقبلتهما فى حرارة حتى أنى من فرط سعادتى قبلت عبدالحميد من وجنتيه فاندهش قائلا:

- إيه اللى حصل فيه إيه ياست الكل

وأخذته من ذراعيه وقفلت الباب وأفرغت الحقيبة السوداء فى رف بالدولاب ثم قفلت الضلفة بالمفتاح واستدرت نحوه قائلة فى عجل:

- ماتمشيش النهاردة من هنا.. أقعد حارس للفلوس
- طيب قولى فيه إيه
- اسعد جالنا

- يعنى إيه قولى
- أنا اشتريت أرض. أقصد هاخلص فى أرض الليلة والفلوس بتاع الأرض.. هارجع تانى جهز الغدا بالكتير قبل المغرب هاكون هنا.. إتغدى وآخد الفلوس وأنزل
- طيب فهمينى إزاى وفين
- مش وقته ياعبدالحميد .. بالليل هافهمك كل حاجة.. هانزل دلوقتى إوعة تنزل دى فلوس شقا حياتى.. المقاول منتظرنى تحت .. وتوقفت لحظة وطفقت قائلة:
- علشان تعرف أنا مش بالعب فى البلد دى
- يارب يغنيك ونعم الزوجة والأم... إذا كان دا حصل فى سنة واحدة
- صلى ياعبدالحميد .. سمى
- الله يحميك العين باردة عليك.. مش هاتحرك من هنا فعلا ده شقا عمرنا
- خلاص إنت كده ميه ميه
- باى
.. انطلقت بالسيارة ومعى الشيخ اللقطة.. هكذا إعتبرته.. انطلقنا إلى حى المطرية.. شوارع أهدأ وأنظف من المطرية جوه.. وفى بيته الصغير جلست بجانبه على نفس الكنبة التى جلست عليها أمس.. وشعرت بدفء الرجل فى كلامه وحكاياته ولما جاءنى بالخريطة وجدت رسما جميلا للأرض وكأننى آراها برجا شاهقا.. ولما قلت له كيف تبنى قال:
- بتاع الحديد والأسمنت صاحبى والطوب إبن خالتى والرمل مافيش مشكلة وأنا عندى الخشب والعدة كلها.. بس إحنا نخلص النهاردة
- يعنى فى أسبوع كمان ممكن تبتدى تشتغل
- بالكتير .. بس أنا ليه طلب.. نكتب ورقة اتفاق عند المحامى بأن أنا مقاول البناء ولايصح أن تأتى بمقاول آخر وتفيد بأننى أسلمك العمارة من حداشر دور وكذا وكذا.. كما هو الإتفاق فى مثل هذه الأمور.. علشان أشتغل فى أمان وبعدين ده إلتزام هايكون معايا وفلوس ومعاملات مع الموردين بتوع العمارة.. يعنى أشتغل باتفاق وأمان.. موافقة
- موافقة مافيش مشكلة.. إمتى نروح للمحامى
- بعد مانخلص مع الست على طول
- طيب مش هاتكون هناك رخصة بناء
- عيد أفندى هايخلص كل المواضيع دى فى أيام.. بس فتحى مخك معاه وهايحمينا من ذئاب الحى.. هايبعد عنا الشياطين..
- طيب أدى له كام
- الموضوع كله من الأول للآخر خمسة.. اتنين الأول وتلاتة لما يخلّص كل حاجة

- خلاص.. ورحت أحسب وهو يسمعنى.. ميه تمن الأرض وعشرة ليك ياشيخ.. يتبقى عشرة .. قول خمسة لعيد .. طيب الحمد لله:

ابتسم الشيخ وقال فى ود:

- المفروض تدينى عشرة بداية شغل... لكن أنا شايف إحنا متفقين.. أنا سدَّاد ياستى.. قالها الشيخ وفى لحظة إنحنى على كف يدى بعد أن أمسكه فى لحظة البرق.. وراح يقبِّل كف يدى كأنه يشكرنى.. إندهشت ولكننى تركت له يدى فطمع وقال:

- أنا عمرى ماشفت ست فى جمالك

- ياشيخ مش حرام كلامك ده.. عيب على دقنك

- إنت نعمة.. أنا كأنى باشكر.. ياسلام يارب على خلقك.. ياستى من النهاردة إعتبرينى أخ ليكى ..

.. ولا أعرف كيف داخلنى شعور بالراحة نحو هذا الرجل.. خاصة أنه يقبلنى.. يقبل يدى فى حرارة بالغة فيها دفء وتبتل غريب.. تذكرت ثانية إبن الجيران.. وأنا فى الثانوى عندما كنت أقابله ويمسك بيدى.. كنت أطير من الفرحة وأشعر بأننى أسعد بنت فى الدنيا.. بسرعة وأحداث خطتى تقبل نحوى بقوة أشعر بقبلات هذا الشيخ الدافئة.. وفى شئ من التلقائية خلعت حذائى وأحضر لى شبشب الحمام وبادرنى قائلا وهو ينحنى ليضع الشبشب فى قدمى:

- اتفضلى ياستى روحى الحمام.. إستريحى البيت بيتك

... وفعلا طاوعته ودخلت حمامه المتواضع واسترحت فعلا وتشطفت وغسلت وجهى وتخلصت من مكياجى ورحت أمشط شعرى فى مرآة بالحائط.. وكان الشيخ سعيدا بتصرفاتى وأخذ يمطرنى بكلمات المديح والغزل المهذب.. ياسلام تصدقى إنت كده أحلى من الماكياج.. إنت منين ياستى إنت من مصر كلها.. ووقع فى كلامه لما قال.. الست صاحبة الأرض بتحب تسرَّح شعرها فى المراية دى برضه... فقلت له:

- هى بتيجى هنا

- ساعات بتيجى تطبخ لى

- على فكرة الست دى حلوة

- زى القشطة ياست الكل.. بس إنت حاجة تانية

- قول ياشيخ سعيد بصراحة.. بينك وبينها حاجة

- دا زى أختى ووحدانية.. على فكرة علاقتى الطيبة معاها هى اللى خلَّتها توافق على بيع الأرض

- باين عليك مكار ياشيخ سعيد .. بصراحة قوللى.. ليه مربى دقنك

- عشان الشغل.. فى المقاولات ناس كتيرة وحشة فقلت أربى دقنى علشان الناس تعاملنى

معاملة طيبة ومايخدونيش بالباطل زى الناس التانية

- إنت بتصلى

- أيوه الوقت بوقته

- لكن إنت شقى

- بحب الستات أوى ولما سبت البلد فجرت.. لكن بهدوء .. وأحسن حاجة عملتها إنى بنيت البيت ده

- ماتجوزتش ليه

- نفسيا ماقدرش أطيق ست تعيش معايا على طول.. الست عندى شوية وتروح لحالها مابحبش الحمل والولادة والآلام الشهرية بتاع الستات.. أحب الست جاهزة وبس

- يعنى الحاجات دى بتاع ربنا ... طيب إنت حر

- جبت نسوان هنا

- ماكدبش عليكى.. بس أنا غاوى الستات الكبار فوق الخمسين

- برضه خايف من الصغيرين يحملوا منك

- دى حاجة.. والستات الكبار عاقلين شوية

- علشان كده الست صاحبة الأرض تحت سيطرتك

- على فكرة الست دى كانت عايزه ميتين ألف.. وعلشان خاطرى رضيت بمية والخمس

- تشكر ياشيخ ... يعنى عايز إيه.. العشرة حلوة

- ياستى ومن غير حاجة.. ماتقومى تريحى على السرير شوية

- بس أنا مش كبيرة

- ياستى إنت كل الستات

.. ولاأعرف كيف شعرت بارتياح شديد نحو هذا الشيخ.. إنه نوع جديد من الرجال.. طاوعته وقمت أضطجع على فراشه وغطانى ببطانية ناعمة.. وتذكرت عندما كنت أشم رائحة المعيز والخراف لما كانت تندس فى أنفى آتيه من فوق أسطح الجيران عندما كنت أسكن فى عين شمس وشعرت بأن هذا الرجل من الشعب وأنا أحب الشعب من تحت، وقلت لنفسى وأنا أتأمله لماذا لا أعقد معه صفقة الآن وأتركه يفعل مايتمناه.. كان يجلس أمامى على الكنبة وهو يفترسنى بعينين تمتلآن شوقا ويلعب بأصابعه فى شعر ذقنه فقلت له فى دلال:

- يعنى إنت هاتاخد العشرة عمولة.. ماتخليها بعدين أديهالك

- تحت أمرك وماله

- هات عمال للحفر وجهز الأرض للحديد وارمى المسلح هى العشرة تمشّى الحال.. بالله مامعايا حاجة دلوقتى.. عمولتك محفوظة بعدين خدها عشرين

- ولا عشرين ولا عشرة.. وقام نحوى والتصق جسده بخشب السرير وأخذ يدى وراح يقبل فى يدى مرة أخرى، ولكن فى هذه المرة بحرارة شديدة وانفعال.. وسالت الدموع من عينيه فقلت له وأنا أشده ليطلع فى فراشى:

- يعنى إتفقنا

- إلا إتفقنا.. أنا تحت أمرك.. أشّرى بس وأنا رهن صابعك

- آه من الشيوخ.. عيب على دقنك

- يلعن أبو دقنى كمان

.. وأزحت الغطاء عن جسدى لأفصح عن مفاتنى، وجأر الشيخ سعيد.. كان كالذئ وقعت عيناه على جنة..

فقلت له:

- بوس رجلى.. بوس رجلى من تحت

فقال وهو يلهث:

- أبوس الأرض من تحتك

- بوس جزمتى

- هابوسها لما أنزل

.. وكان يدخل أصابع قدمى فى فمه ويمصها.. ويقول أبوس أيه تانى آأمرينى

- خلاص أنا كده ضمنت إنك تحت أمرى

- تحت أمر جزمتك

- خلاص طالما إنت قلتها بنفسك خلاص..، قول تانى

- تحت أمر الجزم بتاعتك كلها

- خلاص إعمل اللى عايزه

.. وقمت إلى حمامه المتواضع عدة مرات لأغتسل وكنت أبصق فى الحوض الصغير وأقول لنفسى.. وآدى عبد تانى...مقاول هايبنى العمارة ومش هاشيل هم فى أى حاجة وتحت أمر جزمتى.. الحظ جاى بالعرض والطول.. وبعد أن ارتديت ملابسى وجلست على الكنبة راح هو كعادته يأتينى بالشبشب مرة ويضعه تحت قدمى ويعدل مسند الكنبة أخرى ويحضر لى المراية ثالثة، وكان رجل مثل الحرفيين أحلى كلمة عنده أبوس الجزم بس تكونى راضية.. كان عبدا حقيقيا فقلت فى نفسى ولماذا لا أتبع معه أسلوب السيد للعبد.. إنها فرص تأتينى بالفزلكة والأنتكة.. الصحيح أن استغلها تماما، وبعد أن أتانى بصينية عليها الشاى وبعض الفاكهة قلت له:

- كلّم درغام بيه علشان يحضرنا الليلة

- حاضر.. وهاتفه فى البنك فلم يجده
- فقلت له:
- ياسعيد خد الموبايل كلمه خلص
وهاتفه فوجده مقفلا.. وكان على أن أذهب للبيت لإحضار ثمن الأرض فقلت له فى عشم:
- ياسعيد امسح العربية
- حاضر ياست الكل .. وانحنى وخرج.. وانشغلت قليلا فى قضم حبه من حبات التفاح المحلى ودخل على ليقول:
- العربية بقت فل.. هاتشوفى مسح سعيد
- بصراحة.. إنت راجل زى الفل
- عجبتك.. عجبتك ياست الستات
- إنت جامد أوى من غير فياجرا
- أصلى أنا متأسس.. كنت باسرق وز عم عبدالعزيز الصاوى من الترعة
- يعنى كنت حرامى
- كنت فقير وكانت أمى بتبيع بيض فى السوق وكانت بخيلة أوى.. حتى يوم الخميس ماتدبحش فرخة.. وكان أكلنا على طول يوم الخميس اللى كان موسم فى البلد كلها.. كانت أمى على طول تطبخ كرشة وخبيزة وماكنتش تغسل الكرشة كويس.. وكنت باتمنى تموت فى أى وقت
- ولما ماتت
- بعت ربع فدان بتاعها وبعت الدار وجيت مصر أول حاجة عملتها بنيت البيت ده.. ولأول مرة فى حياتى أشعر أن لى كيان.. إشتغلت فى كل حاجة حتى تدحريج الستات المنيلة بنيلة - يعنى إيه تدحريج
- يعنى كل ست وحشة كان ليها إحتياجات وعيال عايزه تربيهم وكانت مالهاش حيلة.. تروح للرجالة إزاى وهى وحشة.. لكن أنا كان عندى برضه رجالة وحشة وفقيرة وكانوا عايزين ستات على أدهم.. فكنت بوفق دى مع ده.. لدرجة إن أنا جيت فى يوم كانت كل الستات الفقيرة الوحشة فى كذا حى شعبى حوالينا يعرفونى وكنت بسرحهم واحدة ورا واحدة
- برضه نفس السؤال.. وربيت دقنك ليه
- علشان أتدارى، والنسوان الغلابة دولت واحدة ورا واحدة تقول لبعضها.. روحى للشيخ سعيد يشوف لك شغل.هى مشيت كده معايا
- يعنى إنت راجل بتحب الناس اللى تحت
- أهى دى تجيب حتة لحمة.. دى تجيب حتة كرشة.. دى تغسل لى هدومى.. أرزاق بتوصل

بعضها .. لكن هَو فيه راجل كل سوقه ستات وحشه .. وسكت برهة ثم أردف:

- برضه كنت بحب أمى لأنها ربتنى وماتجوزتش بعد أبويا، أبويا مات وأنا سنى سنتين، ومافيش حد فى البلد رضى يتجوزها علشان فقيرة ووحشة.. لكن على فكرة أمى كان بيجلها راجل جارنا ينام معاها بعد ما نام ..

- إزاى

- بيته لازق فى بيتنا .. كان بيخطى عندنا لما كل الناس تنام، وكانت هى فى الصيف تطلع تنام فوق السطح علشان الحر.. لكن فى الحقيقة علشان لما ينط السطح فى أى وقت يلاقيها

- وسمعتهم بقه

- كتير

- ليه ماضربتوش.. وماحشتش أمك

- ماكنتش أقدر أحط عينى فى وش أمى.. وكنت متعاطف معاها .. يعنى مالهاش نفس كنت بقول غلبانه خليها تبل ريقها

- علشان كده إنت ساعدت كل النسوان اللى زى أمك

- حاجة زى كده.. يعنى الفقراء يعيشوا إزاى

- طيب كويس هاروح أجيب الفلوس

- على ماتيجى.. يكون عيد أفندى والست صاحبة الأرض وصلوا.

ولما عدت بالمبلغ الكبير وجدتهم جميعا ينتظرونى وقام عيد افندى بكتابة العقد حسب الأصول.. وحرره بتاريخ قديم قبل وفاة زوجها .. وختمت السيدة فهيمة عبدالرازق بختمها وبختم زوجها عبد العال.. وشهد الشيخ سعيد وأتانا بشيخ آخر يسكن قبالته هو الشيخ محسوب ليشهد على العقد مقابل خمسة جنيهات ونقدت عيد أفندى ألفا جنيه كى يقوم بعمل إجراءات نقل الملكية على أن نقوم نحن بعمل بعض الإجراءات على العقد كالصحة والنفاذ .. ونقدت السيدة فهيمة خمسون ألفا على أن أسلمها باقى المبلغ فى وقت لاحق بعد الإنتهاء من كافة الإجراءات.. وتفاهم كل من الشيخ سعيد وعيد افندى على كيفية الحصول على تصريح البناء ومتى سيبدأ الحفر.. ولما انتهينا ذهب كل منا فى طريقه.. غير أن الشيخ سعيد أمسك فى ذراع السيدة العجوز كى تبات عنده الليلة بحجة أنه يخاف عليها من سرقة هذا المبلغ.. وأنها يجب أن تمكث عنده حتى الصباح..وأخذت السيدة رأيى فأيدته وشددت على يدها قائلة.. ياستى ماتضمنيش باتى مع الشيخ والصبح روحى البوستة أو البنك حطى فلوسك.. وقبلتها وصافحت الشيخ سعيد بحرارة وأعطيته تليفوناتى..

..كانت الساعة العاشرة مساءا حين وصلت إلى بيتى.. وهناك أقمت حفلا صغيرا ورقصت مع أبنائى لأول مرة.. ورقص معنا عبدالحميد على موسيقى محطة إف إم..

******

(٧)

ومرت أيام أخرى فيها توطدت علاقتى بالشيخ سعيد ، وأيقنت أنه على علاقة بالسيدة العجوز مما جعلنى أتضايق بعض الشئ، لكننى لم أترك لنفسى مساحة فى ذلك الموضوع حتى أتضايق زيادة، وكان كل مايهمنى الإنتهاء من إجراءات رخصة البناء وتجهيز مواد البناء اللازمة، وكنت أذهب إلى بيته كثيرا وألتقى به، وكثيرا ماكنت أجد العجوز عنده فتتركنا وحدنا وتذهب بعد أن تبتسم فى خبث وتقول.. طيب ياست الناس لازم تيجى تزورينى.. هاتها ياسعيد والنبى.. فأصافحها وأبتسم وأقول لها.. ضرورى ضرورى هاجيلك.

وفى يوم ذهبت إلى الشركة فى الواحدة ظهرا قبل موعدى بساعتين.. كنت أشعر بضيق شديد يخنقنى.. فقلت أذهب لأسمع حكايات أحلام.. لكننى فى هذا اليوم لم أجدها.. وقابلتنى هايدى قبل أن أتجه إلى الطرقة المؤدية إلى غرفتى قائلة:

- ياست سهير شايفة بيتخانقوا ويزعقوا أوى

- مين

- أسامة بيه وشريف

وقفت مكانى أنظر إلى وجهها فى دهشة كأننى أفتش عن السبب:

- ليه.. فيه حاجة وحشة حصلت

- وحياتك ماعرف.. بس الموضوع باين عليه كبير أوى.. أدخلى ياستى شوفى إيه

.. وتجاسرت وانقلبت نحو باب غرفة صاحب الشركة قرب الدرج ودخلت بعد أن طرقت الباب مرتين.. وتفحصت وجهيهما على عجل ولما كنت أقترب منهما قال أسامة:

- تعالى إسمعى ياسهير

وجلست وأنا أحضن ذراعى فوق صدرى وقلت فى تعاطف وأنا أنظر لكلاهما:

- فيه إيه يابهوات ؟

وكان أسامة يضرب المكتب بقبضتى يديه بين الفينة والأخرى وينظر شذرا إلى شريف الذى يحاول أن يتمالك هدوئه المعهود .. وقال شريف بعد أن سحب نفسا طويلا من صدره:

- الموضوع مع صلاح زكى المدير المالى.. دخل على البنوك

- إزاى مش فاهمة

فقال أسامة:

- ماهو مدير مالى من حقه.. لقى البنك المصرى الخليجى واخد عمولة تجاوز بتلاتين ألف جنيه

- مش فاهمة

فقال شريف:

- عمولة تجاوز بضائع.. المفروض نقدم تقرير عن حركة البضائع فى المخازن كل شهر.. سحب وتخزين والمفروض إن البضائع عندما يتم تخزينها لها مدة يجب سحبها فيها.. المهم أشياء تجارية فى التعامل مع البنوك.. حاجات فنية وتقرير لازم نسد الموضوع ده

- يعنى دا شغل صلاح زكى.. هو أهمل يعنى

ويزعق أسامة:

- هو أصلا إحنا مخبيين عنه كشوف الحسابات لما تيجى من البنوك.. ودى سياسة شريف

- أمال عرف دا إزاى

- بالصدفة

- طيب ماهو الراجل حاش بلوة عن الشركة

وقال شريف:

- إحنا متفقين من الأول عدم إطلاع صلاح على الكشوف علشان فيها أسرار عن حركة الإستيراد بالذات

ويرد أسامة بصوت عال:

- طيب مابتعملش ليه تقرير البضائع علشان تحوش البلاوى دى

- مش فاضى.. أنا باعمل كل حاجة مع البنوك ودى سهو منى

- خلاص كل المبالغ اللى اتخصمت علينا فى عمولة التجاوز عليك

- دا خراب بيوت

... وسكت الجميع وبات على وجه شريف كثير من الوجوم والحزن فقلت موجهة له سؤالى:

- هل ممكن أقوم بالتفاوض مع البنك وأخلص الموضوع ده

- الأول يوقف المبالغ ديه ونعمل ليك تفويض لمناقشة المسئول عن قسم البضائع وأفهمك

إزاى تتكلمى معاه

- طيب آخد له هدية وأروح أتكلم فى الموضوع

وبتدخل أسامة بعصبية:

- مافيش مانع خدى له خمسة وبعدين إتكلمى معاه

ويقول شريف وهو أكثر هدوءا عنه منذ دخولى:

- تقصد خمس تلاف

- أيوه.. روح معاها ياشريف بكفاية علىّ الفوايد

وابتسم شريف قليلا وقال بثقة:

- شوف ياباشا إنت تعصبت علىّ وجرحتنى وفى الآخر هاخلص الموضوع ده

- الموضوع اللى زعلان عليه إنك بتسيب حاجات تموتنى أكتر ماأنا ميت

- بس فيه حاجة.. صلاح زكى بيسألنى كل يوم عن الرسائل الإستيرادية

- عايز منها إيه

- عايز يعمل حسابات مالية كاملة زى مابيقول.. وإحنا متفقين مع بعض إن دى أسرار ماحدش يعرفها غيرنا... وإنت عارف إنه صاحب أبوك.. وأبوك عايز يعرف منه أسرارنا

- يانهار إسود.. لأ إبعده... إبعده خالص

- أمشيه ياباشا

- طيب هىّ الرسائل الإستيرادية فين

- فى العربية الشيروكى.. فى الشنطة

- وكشوف الحسابات

- برضه معاها

- المشاكل التانية فى المالية خلصت

- الحقيقة صلاح زكى خبرة كبيرة.. عمل حسابات عملاء وحسابات موردين وخطابات ضمان وتنظيم للمبيعات وتحليلها وعمل إدارة لأوراق القبض زى الفل.. والحسابات دى كلها كانت عندنا بايظة

- والمحاسبين عارفين دلوقتى يسيطروا عليها.. يعنى خدوا الخبرة من صلاح

- صلاح دلوقتى مالوش لازمة.. عايز يدخل علينا ومصاحب أبوك.. يعنى بعد كده هايعمل معانا مشاكل

وكان قلبى يخفق فقلت فى هدوء:

- بس دا راجل خبرة وجوده فى كل وقت يسقى بخبرته المحاسبين والشركة كلها.

- وامتعض شريف وقال.. فى هدوء وغير مبال بالأمر:

- إحنا خدنا منه كل حاجة عايزنها .. حتى اللواء مش طايقه
وقال أسامة:
- إزاى
- بيقول عليه راجل دِقّى أوى وبيقتش على كل كبيرة وصغيرة وإن المحاسبين بدأت تحبه.. وعامل صلاة جماعة فى كل وقت صلاة.. يجمع المحاسبين وأى موظف فى الحسابات والمبيعات ويصلى بيهم.. تحس إنه راجل دماغه فيها حاجة
ويقول أسامة:
- هو من الجماعات
- لألأ .. دا راجل جرودى.. لادقن ولاجلابية قصيرة أو بنطلون .. هو راجل عادى بس إحنا مش عايزين النوعية دى
- خلاص ياشريف مشّيه.. إديله صابونة
وقهقه كل منهما .. وحاولت أن أبتسم مداراة لما يكنه داخلى وقلت:
- طيب نِدّيله فرصة ونحدد صلاحياته.. أكيد عنده ولاد .. دا ياجماعة مافيش شغل دلوقتى .. ومش عايزين حد يحقد على الشركة وعايزين اللى يمشى يكون مرتضى.. بلاش نظلم
.. وهز أسامة رأسه وامتعض شريف من كلامى، وفى لحظة وقف أسامة وشخر وقال فى سفالة:
- ياك..أمك.. إنت هاتعملى فيها فاضلة.. هاتدينا درس فى الأخلاق.. وعملها مرة تانية..
وقام إليه شريف يربت علي ظهره وينظر نحوى محاولا تلطيف الجو، وكأن حجرا سقط فوق رأسى وكنت أريد أن أقوم وأرد عليه وأترك عملى بشئ من الكرامة، ولكننى فكرت وتمالكت نفسى قليلا ثم إنفجرت فى بكاء شديد .. وراح شريف يربت برِفق على ظهرى وذراعى ويعتذر كأنه هو الذى شتمنى وأخذ يقول.. هو حد يزعل من أسامة بيه، دا أطيب راجل فى البلد .. ما يقصدش ياسهير وقال أسامة بعد أن جلس فى مقعده:
- ياه إنت كده رقيقة كنت تعال شوفى قبل ماتيجى عملت إيه فى شريف..
فقال شريف:
- والبنت نادين كانت واقفة ياستى خدى من دا كتير
.. وهدأت قليلا وشعرت بأن مافى نفسى كثير ولكن النجاح فى أن أبلع وأحتوى أى جديد مهما كان ذلك مؤلما وكان شريف يغمز لى بعينه
.. وساعدنى شريف على تجفيف دموعى ونظرت فى عتاب إلى أسامة قائلة:
- كده ياباشا تشتم أمى
- لأول مرة ألاقى واحدة خايبة

.. هوّ أنا قلت حاجة يبقه إنت كده ماعرفتيش السوق

وقال شريف:

- إنت عارفة عبدالعظيم وعبدالسميع وجرجس.. أكبر عملاء عندنا إنت عارفة الباشا بيعمل معاهم إيه

- إيه

- بيمرمط بكرامة أمهم الأرض

- يعنى مش لوحدى

- لأ.. دا إنت أغلى واحدة عند البيه مش أنا مدير أعماله.. أقولك قال لى إيه بعدين أقول لك

- خلاص طالما دا بيريّحه خلاص.

وضحك أسامة كأنه يتباهى بقلة أدبه وقال:

- ك.. أمك ياسهير ألف مرة

- ألف مليون مرة اللى يريحك يابيه

وقال أسامة لشريف

- هاتصرفوا الرواتب النهاردة

- أيوة

- خللى صلاح يقبض مرتبه من اللواء بعد كل الموظفين سايمشوا

- ليه

- علشان النهاردة تدبحوه يعنى لو إنفعل أو زعّق ماحدش يسمعه

- دا شغل اللواء ياباشا بالدرجة الأولى.. أنا هاكون حاضر بس أساعد اللواء

فجأة وجدتنى أقول:

- ممكن ياباشا أحضر معاهم وهم بيدبحوه

- ومالو.. خدها معاك ياشريف

.. وراح صاحب الشركة يدخن سيجارة حشيش وانغمس يفكر قليلا ثم ضرب جرس السكرتارية وقال:

- هايدى

- مش هنا ياباشا عند اللواء

- تعال يانادين

- حاضر

- فين النيلة أحلام

- فى المالية عند صلاح

- هيه غاوية ابن الوس..

- لأ ياباشا مش إنت قلت أحلام تجيب مراسلات المالية.. ومش عايز تشوف صلاح

- تعالى ياغلباوية

.. وكان شريف يدخن سيجارة الحشيش ويبتسم وغمزلى وكأنه يقول شوفى هايعمل إيه مع البت.. ودخلت علينا نادين ترتدى بنطالا محزّقا يكاد يتفتق فوق جسدها الصارخ وبلوزة من الساتان تظهر جسدها وصدرها الذى يهتز من تحتها.. ولما كانت نادين تمشى فى تمخطر واستعراض وطراوة وتتمايل يمنة ويسرة.. كانت بلوزتها القصيرة تكشف عن صرتها فوق حزام البنطال مما أثار أسامة الذى كاد لسانه يخرج من بين شفتيه وهو مشدوه إلى بطن الفتاة العارية وقال وهو فى قمة نشوته وانفعاله:

- طيب إقفلى الباب

... وانقلبت لتقفل الباب بالترباس وعادت إليه، بل انقلبت إلينا فى طراوة وميوعة أشد فقال وهو منشكح أوى كما تقول اللهجة الدارجة:

- إقلعى البلوزة

.. ضحكت بصوت عال ضحكة مثيرة كالتى تضحكها نساء الليل فى المخدع وقالت وهى تنحنى نحو رأسه:

- مكسوفة ياباشا

- من مين ياك.. أمك

- شريف بيه والست سهير

- اللى مش عاجبه يخرج

- طيب هاروح الحمام

- روحى

... ولاأستطيع أن أصف لكم كيف عادت إلينا نادين وقد خلعت بلوزتها وكم كنت عصبية كأنثى عندما أرى فتاة أصغر منى وهى أشد منى إثارة وفتنة.. كنت لو تركت لأعصابى العنان أن أخبط هذا العابث بخرامة أوراق كانت أمامى على المنضدة.. ولكننى ذهلت وكيف يكون ذهولى؟ وأنا أتعرى مثلها.. نادين مثلى وأنا مثلها نتعرى ونبيع جسدنا من أجل الحفاظ على أكل العيش أو الدخل.. ويبدو أن هذه عادة النساء.. تكون الواحدة مننا عاملة البدع

وتتكلم عن هذه وهذه وهى أبعد ماتكون عن الشرف أوهى أسخم منها إعفونى عن حكى تفاصيل ماذا فعل أسامة بالفتاة ونحن معهما وقبل أن تخلع الفتاة ملابسها وتصبح عارية تماما قلت لشريف أظن كفاية علينا كده.. علينا أن نخرج فقام شريف وهمس فى أذنه كى نخرج..

فوافقه وسار خلفنا حتى الباب ليقفله بالترباس مرة أخرى.. وكنا قد تركنا الفتاة مستلقيه على سجادة ركن الصالون الذهبى، وقد خلعت كل ثيابها عدا الكارت الذى من المؤكد قد تخلصت منه الآن.. مشيت بجانب شريف فى الردهة الموصلة إلى المالية والتى نصل فيها إلى غرفتنا كنت أريد أن أصرخ لكن لماذا أصرخ؟ ألست مثل نادين.. ألم يعاشرنى أمام شريف على نفس السجادة ولما جلست على مقعدى محاولة أن أزاول عملى كنت أريد أن أبكى ولكن لماذا أبكى؟ وعلى من أبكى.. على حالى أم على حال غيرى من الفتيات فهؤلاء نادين وأحلام وهايدى أمام الناس جميعا فتيات،وكان كل شئ له علاج وكما أخبرتنى واحدة بعد الأخرى منهن أن هناك أحد الأطباء فى شبرا يعيد عذرية الفتاة بشرط أن يسلّك مرة واحدة هو هكذا مشهور بين أطباء الحى وبين النساء.. وأكيد مثل هذا الطبيب فى كل شارع وكل حى.. كنت وأنا صغيرة أشعر أن فى داخلى زهورا متفائلة فى الغد.. ولما جاء الغد كان رحلة عذاب فى عملى بالهيئة ومع زوجى المستسلم لضغوط الحياة، ليس هناك غد ولكن هناك واقع أيتها المرأة أتريدين الحياة.. هل أنت طموحة مثلى ومثل نادين وهايدى وأحلام خلاص ياسيدتى إذا كنت طموحة وجميلة أو حتى جذابة فلا تعيلى أى هم.. فقط تعرى وارتدى الثياب التى يطلبها أصحاب الشركات واخلعى بلوزتك فى الحمام واستلقى على السجادة فى غرفة مجلس الإدارة وأبذلى ذلك المجهود الذى يجعل صاحب الشركة ينبسط وخلاص.. ستنالى ماتريدين فى هذه الحياة لن تتسولى ولن تجوعى وسترتدين أفخر الملابس وتسكنين على النيل أو حتى فى شيراتون مثلى، سوف تنتقلين من أى حى شعبى إلى حى آخر معقول ياحلاوة .

.. دار ذلك فى رأسى دقائق بعدها قام شريف ووقف بجانبى وراح يداعبنى ويمسك بخصلات شعرى كنت مثارة بعد أحداث نادين والباشا.. لكننى رجوته أننى لا أستطيع الآن.. إن محاسبى المالية لايفصل بيننا وبينهم إلا زجاج، فكيف لنا أن نفعل.. هل تريد لى أن أفضح، أرجوك ياشريف طيب خلينا بالليل... بالليل بعد الدبيحة هكذا قلت له ورجوته فوافق وهو تعبان.. أنا تعبان أوى.. معلهش ياشريف أصبر.. بعد مايمشوا ونمشّى صلاح.. وجلس إلى مكتبه وراح يقلّب فى أوراقه.. وحاولت أن أنشغل فى تجهيز أو راق الإئتمان الجديد وبعد أن إنتهيت.. أخذت أكتب بعض الكلمات التى كاد ينفجر صداها فى داخلى.

.. شركة لها نشاط تجارى فى سجل تجارى وبطاقة ضريبية واستيرادية ولافته ومبنى وموظفين وموظفات هيكل كامل وشكل ومنظر وحضور وانصراف لكن فى الحقيقة دى شركة كرخانة،يعنى زى بيت الدعارة ولكن فى شكل شركة هل كل شركات البلد كده،أكيد مش كلها كده،الله أعلم إحنا عايزين واحدة ست من كل شركة فى البلد علشان تحكى حكاية شركتها ..

.. وفجأة طرق علينا الباب رجل المالية الأول ودخل فى أدب قائلا :

- إزيك ياسى شريف.. إزيك ياست سهير

وبعد أن جلس أخرج جورنالا من حقيبته وقال:

- عايزك ياشريف بيه تفسر الخبر ده

- تم بيع ٢٠٣ شركة ومصنع وباق ١٧٨ مصنع وشركة هانبيعهم لأن فيهم ٥٩ شركة خاسرة، ٥٣ شركة تربح أرباح هامشية، ٦٦ شركة ربحت أرباح جيدة.. الكلام ده من وزير قطاع الأعمال يعنى ده وزير شغله بيع الشركات وسكت ..

وقال شريف وهو ينعدل على مقعده:

- قوللى ياأستاذ صلاح منين عملوا مصانع وشركات وليه بيبعوها هو فيه فايدة فى الكلام حالة من الفوضى والضياع فى كل مكان

- وبعدين وآخرتها ياأستاذ شريف

- آخرتها زى أولتها نرجع صفر من جديد

- مين المسئول عن كده

- كلنا

- طيب هانروح فين بعد كده

- أقول لك إيه كلنا هاننزل الشوارع

- إزاى

- يعنى هاقولك حاجة واحدة، القطاع الخاص بيشترى مصانع وشركات قطاع الأعمال بيعمل إيه القطاع الخاص أول حاجة يطرد العمالة ويحتكر ويرفع الأسعار وإيه كمان كل المساحات الإدارية اللى فى المدينة يبنيها هؤلاء أبراج علشان يبيعوها بالملايين والمشكلة دلوقتى إن قليل اللى بيشترى مافيش حد سكن الأبراج دى.. بيعت الشركات بأبخس الأثمان معناها فيه عمولات للمسئولين، البطالة كله أصبح بدون عمل مرة واحدة، وبعدين القطاع الخاص طرد كل العمالة القديمة يعنى البلد فقدت كل خبراتها الفنية والإدارية وبقت فى الشارع والقهاوى والبيوت واللى بيشتغل دلوقتى الإنتهازين والبايظين والمجموعات اللى بتنفذ أهداف القطاع الخاص.. كان المفروض واحدة واحدة

- يالهوتنا

- ياخيبتنا

.. وقلت وأنا أنظر فى وجه الرجل الذى يضع علامات استفهام عن أحوالنا الإقتصادية

- ياستاذ صلاح هى الفوضى اللى إحنا عايشينها شوية.. خلينا فى نفسنا.. بص من الشباك شوف الشباب والرجالة من كل الأعمار حتى البنات قعدت على القهاوى

- وبعدين، وقام صلاح زكى وفتح الشباك ليتفرج ..

فبادره شريف قائلا :

- إنت منين ياأستاذ صلاح

- من بلد جنب القناطر الخيرية

- عندك أرض عندك بهايم فى البلد

- كان عندى نص فدان وبعته من زمان

- ماعندكش حاجة خالص

- مرتبى ومهنتى بس

- مراتك بتشتغل

- لأ

- أولادك فين

- اتنين فى الجامعة وواحد فى الثانوية

- تصدق أنا زعلان علشانك

- ليه

- لأنك راجل محاسب على مستوى عال وخبرتك عاليه جدا وعايز تعمل مالية فى شركتنا حسب الأصول بس.. رسكت ..

- بس إيه

- بس الكلام ده فى الشركات المحترمة عندنا ماينفعش ويمكن تكون عرفت ليه.. على العموم لو مش عارف تبقه إسأل الست سهير

- والله أنا بدوّر على مكان تانى أشتغل فيه.. مكان محترم ولكن مش لاقى أى مكان محترم ولو حتى مش محترم البلد ماعدش فيها حاجة

- خدت مرتبك

- لسه اللواء بيقبض الموظفين الأول

ودخل علينا محاسب ليهمس فى أذن المدير المالى ويستأذن منا صلاح زكى ويخرج فقلت لشريف :

- حاجة تبكى يعنى تطردوا الراجل علشان ياكل طوب هو وولاده

- لو بخاطرى ماعملش كده دا طلب المفترى أسامة

- أدخل وعرّفه ظروف الراجل

- ياريت دخولى يعمل حاجة إنت عارفه هايقوللى إيه

- إيه

- ك.. أمك

- تلاقيه خلص مع نادين
- مش عارف إسألى السكرتارية
وطلبت الرقم الداخلى للسكرتارية فردت علّى أحلام قائلة:
- أيوه ياحبيبتى
- باب أسامة فيه لسه مقفول
- أيوه
- نادين طلعت
لسه موجودة
- يانهار إسود
- لسه بدرى
- والناس اللى عايزينه ومصالح الشركة
- لغينا كل المواعيد
- يانهار إسود علنى كده
- هو حد يقدر يتنفس.. وبعدين هو ماضربش حد على إيده
- يعنى إيه
- اللى مش عاجبه يمشى ياحبيبتى دى دولته
- واحنا مالناش دولة
- لأ احنا مواطنين فى دولته
- لكن يابت دى فلوس الشعب
- طيب ماانحنا بنتهنّا بيها
- بس مش بالطريقة دى
- ليه ياستى ماتشوفى مرتباتنا.. دا غير المزايا العينيه.. يعنى الواحدة مننا فى السكرتارية بتتحصل على ألفين جنيه فى الشهر.. شوفى اللى بيشتغل فى الحكومة من دفعتى بتاخد كام
- كام
- ميتين جنيه بالكتير
- يعنى إنت مبسوطة
- إسألى خطيبى ساعدته فى الشقة والعفش وباعطيه فلوس لو إتزنق فى أى وقت
- مابيسألكيش الفلوس منين
- باقول شركتنا على مستوى وبتكسب كتير أوى.. وصاحبها مافيش زيه
- بيقول لك إيه

- بيدعى للبيه إنت عارفه بيقول إيه
- بيقول إيه
- بيقول لوفيه ميه زى أسامة فى البلد كانت عمار يابلد
.. وانفجرت أحلام فى ضحكاتها الطويلة الماجنة التى تجلجل الشركة كلها وجاملتها قائلة:
- ياخرابى ياأحلام كلامك عسل.. وقفلت السماعة
وكان شريف يسمعنى، ويبتسم لحظات دق هاتف شريف فقال لمحدثه ثوانى هانيجى فقلت:
- مين
- اللواء وصلاح عنده
.. ولما دخلنا على اللواء .. قام وصافحنا بحرارة كعادته وقدم لنا من ثلاجته الصغيرة زجاجتين سفن ويبدو أنه كان مشغولا مع صلاح فى حديث تمهيدى فأكمل حديثه:
- يعنى بكرة ممكن يكون الدور علىّ.. أسامة بيه عايز يخفض العمالة هو من حقه هايبتدى بالمرتبات الكبيرة
فيقول صلاح:
- حقه كل واحد حر فى شركته
- أول دفعة مدير المشتريات والمدير الفنى و... سكت
فقال صلاح:
- ومين كمان
- قول ياسعادة اللواء
- والله مش عارف أقول
- قول.. قول.. وأنا مش كده
- أنا آسف أوى ياأستاذ .. أنا عبد المأمور
- لأ ولا يهمك ولكن كان الواجب أن تخبرونى من شهر فات.. يعنى كنت أدبر نفسى شويه لكن إنتم كده بتقولوا إنزل الشارع ماهو مفيش غير الشارع فى البلد دلوقتى
فتدخل شريف قائلا:
- معاك ياأستاذ .. ونظر إلى اللواء .. ضرورى من شهر على الأقل
- أنا ماكنتش أعرف.. تحب تقابل أسامة بيه
- لكن صلاح زكى سكت... ورفع اللواء سماعة الهانف ليسأل السكرتارية:
- أسامة بيه فاضى
- لأ
- هايفضى إمتى؟

- لسه بدرى
- هو لسه قافل الباب
- أيوه
- خلاص.. ووضع السماعة وأطلق نفسا عميقا من صدره يعمل كأنه زهقان.. وقال وهو ينظر إلى صلاح قائلا فى قليل من اللطف..
- هو مشغول

ويرد صلاح قائلا وهو ينظر إلى فى أندهاش ثم ينظر إلى شريف فى غرابة أكثر ثم يرمى اللواء بنظرة كأنه يحتقره فيها:

- ماتتعبش نفسك كفاية تمثيل.. إنتم كلكم مش عايزنى

كان كمن رمى بطوبة فوق رأسنا جميعا ولاحقه شريف قائلا:

- لأ والله.. إنت أحسن واحد هنا.. ولكن أنت عارف مالناش حيلة.. هو حد يقدر عليه

.. فيقول صلاح وهو يحف حذاءه فى أرضية الغرفة وقد إحتضن صدره بذراعيه كمن يمسك بتلابيب نفسه:

- يقدر عليه ربنا... الله هو الأول والآخر ربنا فوق «ونفس النظرة ألقاها فوق وجوهنا الثلاثة وكأنه يقول كلكم سفلة

وقال شريف وكأنه يلملم غضب صلاح ويندهش لقوة إيمانه وتماسكه

- إحنا آسفين ياأستاذ صلاح لكن والله ماباليد حيله

وهز صلاح رأسه وقال:

- طيب خلاص مافيش مشكلة الحمد لله على كل شئ أنا عايز أوراقى دلوقتى

فقال اللواء

- أوراق إيه
- الشيك وورقة على بياض موقع عليها.. أظن دى حقى.. إنت ناسى يا..

.. وشعرت بأنه كان يريد أن يشتم اللواء لأن هناك إشاعة فى الشركة بأن التوقيع على الشيك والورقة هو نظام ابتكره اللواء فى الشركة.. يعنى كان ذلك من تدبير هذا الرجل حتى يكون أصحاب الشركة فى أمان من موظفيها.. ولكى يحلل راتبه لأنه يقوم بعمل حقيقى

وراح اللواء يقلب فى ملفات أمامه حتى وجد الأوراق خاصته فقال وهو يبتسم فى خبث:

- خلاص ياسيدى.. لقيتها.. اتفضل

وناولها لصلاح الذى راح يقرأها ليتأكد منها ومن توقيعه ودسها فى جيبه.. لحظات وانتهى اللواء من لم الأوراق فوق مكتبه.. ومد يده فى الخزينة ليخرج ظرفا به مرتب صلاح وناوله له قائلا:

- تحت أمرك ياسيدى.. واحنا آسفين.. وأى خدمة والله هانكون تحت أمرك

وأخذ صلاح مرتبه ووضعه فى حقيبته وهو يبتسم فى إيمان قلَّ أن تجده فى وجه رجل وبعد أن قفل حقيبته قال فى هدوء :

- ربنا فوق.. هو الأول والآخر.. حسبى الله ونعم الوكيل.. وراح يكررها حتى قام من قعدته، مد يده إلينا وصافحنا وهو يرفع رأسه لأعلى.. كان ممتعضا، وودعنا يقول:

- أسعد يوم فى حياتى إنى أسيب الكرخانة دى.. دا شرف ليَّ إنى أكون مظلوم أمام الله.. كلكم ناس تعبانه.. الحمدلله سايبها وأنا بخير.. إن شاء الله تجيلكم مصيبة من اللى بتعملوه

.. وظهر الإرتباك على شريف واللواء من جملته الأخيرة فقال اللواء وشريف وهما يتبعانه حتى الباب فى صوت واحد :

- إحنا مالناش دعوة ياأستاذ هو حد له حاجة هنا

.. كان يوجد عدد كبير من المحاسبين يقف عند الدرج لتوديع مديرهم.. كانت عيونهم تمتلئ بمشاعر الحزن والحسرة على الرجل الخبرة الذى تعلموا منه كثيرا، أى ذنب اقترفه.. ماذا فعل حتى يعبثوا بلقمة عيشه.. أى جهة فى بلدنا يذهب إليها مثل هذا الرجل ليشتكى حاله، وقال واحد منهم وهو يرتمى على كتفه باكيا ومودعا.منه لله اللواء.. وقال آخر دى ذُنَبْ اللواء، وقال ثالث ربنا ينتقم منك يا أسامة.. وكانت أحلام السكرتيرة تبكى ونادين تلعن يوم مااشتغلت فى الشركة.. وهايدى السكرتيرة ابنة فوزى جريس تقول وهى تمسح بمنديلها دموعها.. ربنا مش هايسيب الظالم.. كان موقف أمة صغيرة فى وطن تلعن الظلم والإفتراء الذى بدأ يمخر عظام الوطن من قلة فاسدة.. ولما كان صلاح زكى ينزل الدرج أمسكته من ذراعه وهمست فى فى أذنه راجيه.. أرجوك إنتظرنى.. أرجوك عند الكومبارس على الناصية بتاع غلابة السينما.. وهز رأسه موافقا، وعيناه تكاد تنفجر باكية.. وانقلبت إلى غرفتى وكانت أحلام هذه المرة تهرول خلفى ومعها نادين وهايدى والمحاسبين قد انتشروا فى الردهة فرادى وجماعات مندهشين عما حدث لمديرهم.. كان كثير من الهرج والألم قد اعترى كل من فى الشركة حتى موظفى المبيعات ومديرهم العقيد محمد المشهور بنفاقه لإدراة الشركة، كان الرجل يلعن هذا التصرف.. يلعن الفصل التعسفى لمدير على مستوى عال.. وسب زميله اللواء أمام كل الموظفين الذين يعملون فى إدارة المبيعات.. دخلت غرفتى وجمعت أوراقا فى أدراجى وأخذت حقيبتى.. وانقلبت أجرى فى الردهة خارجة من الشركة كنت أحاول السيطرة على مشاعرى فى داخلى.. وكانت الفتيات مرة أخرى يهرولن خلفى وكل واحدة منهن تلعن اليوم الذى عملت فيه هنا... كان الجميع فى أسى وسخط على إدارة الشركة رغم أن هذه المشاعر العلنية قد تعرضهم للرفت والطرد فقد ينقلها خباص.. خاصة هؤلاء البودى جارد حرس الباشا الحقير.

.. كان صلاح زكى ينتظرنى فى شموخ رغم أحزانه ويقف قريبا من غلابة السينما

«الكومبارس» صافحته وقلت له ونحن نسير قرب مبنى جريدة حكومية كبرى:

- ياسيدى الفاضل لا تحمل هم

- أولا أشكرك على مشاعرك

- لم أكن وحدى أحمل تلك المشاعر لك كان الجميع

- يكفينى هذا أمام الله والوطن

- دعنى أدخل معك مباشرة فى خصوصياتك

- تفضلى

- ماذا تفعل ياسيدى.. نحن جميعا على باب الله.. لانملك أى شئ نعيش منه

- أنا مثل كل وغالبية الناس فى هذا البلد

- ماذا تفعل ياسيدى والحال ...

- أنا منذ أكثر من عام وأنا أبحث عن مكان آخر.البلد مقفولة.. لم يعد فيها مكان لمن كانوا مثلى

- والحال كذلك ياسيدى هل ممكن تعتبرنى أختك

- طبعا

- هل ممكن تعمل معى؟

- ماذا أعمل ياسيدتى عندك هل قمت بتأسيس شركة

- دعك من هذا ياصلاح المهم أنا أحتاج لمجهودك معى

- أولا سعدت بأنك أزلت التكلفة أتمنى أن تنادينى باسمى فقط

والتفت إلى مبنى الجريدة وقال:

- لوثتنا جميعا عناوين هذه الجريدة الزائفة

- إن هذا هو حال جرائدنا كلها

- أليست هذه جرائد الوطن

- لا إنها جرائد موظفين فى الحكومة

- دعنا ياصلاح من هذا ممكن أن نتناول فول وطعمية عند التابعى

- ليس لى شهية

- من أجل خاطرى.. حتى نكمل حديثنا

ودخلنا محل التابعى.. كنا نأكل وتتكلم حتى قال:

- إن مرتبك ياسيدتى ثلاثة آلاف.. فكيف تدفعين لى ثلاثة آلاف وهو جملة مرتبك فى الشركة

- ياسيدى الفاضل.. إن لى عمولات ومسائل مع البنوك أعملها لصالح الشركة وتدرلى دخلا

لابأس به.. ياسيدى أنت ستعمل فى إدارة أرض قيمتها أكثر من مليون جنيه
- وهل هناك مدير مالى يدير أرض فضاء .. هذا معناه أننى سأعمل حارس
- حتى يتم بناء الأرض.. أنت ستذهب هنا وهناك لتخليص أوراق وسوف تساعد الشيخ سعيد
- من هو هذا الشيخ
- يعتبر مقاول البناء .. وأنت محاسب هذا البناء ، سوف أصرف لك عهدة مستديمة للصرف منها على إنشاء هذا البرج.. إنه عمل حقيقى.. أنا ياسيدى لاأعطف عليك.. قلتها لك من الآخر إنك ستوفر لى آلاف من الجنيهات.. إن وجود واحد مثلك هناك سيوفر علىّ الكثير... هذا يعنى أنك لا تعمل معى مجاملة
- نزع عنّى الناس لقمة العيش وفى نفس اللحظة منحنى الله أفضل منها
- الله أكبر..
وسكت ونظر لى نظرة فيها قليل من الريبة وسرعان ما أخفاها ولكنى أمسكت بها وقلت له:
- هناك شئ خبيث فى نظرتك لى
- لا لا ياسيدتى ولكن كنت أريد أن أسألك سؤالا
- قل ياعزيزى صلاح
- أنت غنيه وستشيدين برجا وسيعمل عندك محاسب فى مثل خبرتى، فلماذا تعملين عند هذا الفاسق
- أسباب كثيرة
- مثل
- عملى عند هذا الفاسق كان سببا فى أن أمتلك هذه الأرض
- كيف ياسيدتى
- هذه حكاية خاصة بى.. وسكتّ
فامتعض وأبرز شفتيه أمام أنفه كأنه يعمل على تحرير فكرة لايريد أن ينطق بها.. فقلت له:
- لاتظن بى الظنون.. إن ربك لحليم ستار.. لو أنفقت وقتا طويلا فى الأمور والأحوال حولك فإنك لن تصل إلى شئ دع الدنيا تسير فأنا وأنت ترس صغير فى آلة كبيرة
- طيلة عمرى أضيع وقتا طويلا فى فلسفة الأمور حولى ولم أصل إلى شئ
- أتمنى أن تتخلص من هذه العادة
- سأحاول.إن هذه السفسطة التى تساورنى دائما جعلتنى أعود إلى الوراء والناس تتقدم نحو هدفها

- طيب ياعزيزى صلاح إنك اعترفت بتقصيرك نحو استغلال فرص الحياة
- دعينى أتحرر معك من هذه اللحظة
- حسن وهل ستكون معى مرنا حتى تعالج أمور حياتك بشكل عصرى
- سأحاول بكل ماأملك
- قلت لى فى يوم أن زوجتك غير مطيعة لك وأنكما شبه منفصلان... أما زال الوضع ساريا
- مازالت الأحوال السيئة هى السائدة
- ولم تبذل محاولات للزواج من أخرى
- ذهبت إلى نساء مطلقات وأرامل من مصر الجديدة فكانت مطالبهن جميعا عالية
- إذهب إلى أحياء الشعب
- ذهبت إلى نساء من المطرية وعين شمس وامبابة وشبرا الخيمة
- كويس وماذا وجدت
- كلهن عاهات
- ماذا تعنى بعاهات
- عقد نفسية وفزلكة فى غير موضعها من عائلات نزحت من الريف فى الستينات ولم يكن لديها قرش صاغ.. وبالعافية يأكلون ويشربون الآن ومع ذلك فإن بناتهم لهن مطالب مثل نساء الأحياء الراقية
- هذه عادة النساء أينما كن.. أفهم منك أنك تريد إمرأة بلا مطالب.. إمرأة تتزوجك بالمجهود..
- ولم لا.. إتفقنا منذ قليل على عدم التفلسف فى الأمور.. من الآخر ياسيدتى الفاضلة كل مرتبى أصرفه على أبنائى.. أبنائى كل شئ فى حياتى.. إننى أريد إمرأة من زمان.. محترمة مدبرة ليس لها أية تطلعات.. تطبخ وتنظف البيت وبس.. وتسعدنى فى الفراش

واندهشت كيف لرجل مثل هذا ويحمل أفكار زمان.. وهل توجد الآن إمرأة بلا مطالب.. إنهن جميعا موتورات بمطالبهن.. وسرعان ما خطر ببالى فهيمة.. تلك العجوز التى اشتريت منها الأرض فقلت له على سبيل الهزار

- عندى إمرأة فيها الرمق لكنها أكبر منك عمرا
- مطالبها.. وسكت
- ليس لها مطالب.. لكن تجاعيد الزمان مرسومة بوجهها
- وجسدها
- جسدها يرشحها أن تتزوج
- يعنى فيها ست

- فى رأيى فيها عشرة حريم
- أين تسكن
- فى عشة فيها مائة ألف جنيه
- لا أفهم
- هذه السيدة هى صاحبة الأرض
- ولماذا تسكن فى عشة
- هذا مزاجها.. لا تحب إلا العشش والكانون
- ماذا يعنى الكانون
- الكانون يعنى البوتاجاز ألست من قرية ياعزيزى
- ماذا تعنى المائة ألف
- تملك مائة ألف
- هذا يعنى أنها ستمهرنى
- إنت وشطارتك ياعزيزى
- لابد أن يكون لها مهر.. إن الجارى فى هذه الأيام ونتيجة للسقوط الإجتماعى الذى يرج المجتمع فإن العادة السارية.. دبلة ومهر لا يتجاوز مائتين من الجنيهات.. وهذه سيدة طيبة أعتقد أنها سوف ترضى بدبلة فضة ومهر جنيه واحد وأخبريها بذلك
- سوف أفعل ولكن معقول ألهذه الدرجة وصل الحال بمهور النساء
- ومع ذلك لا يوجد رجال لديهم الإستعداد لذلك
- أهى قلة رجال أم قلة فلوس
- الإثنان معا.. المشكلة تكمن فى دائرة فقر تضرب كل دائرة بالأخرى.. ولقد أصيب كثير من الرجال.. ولا أبالغ إذا قلت أن كل الرجال فى البلاد قد أصيبوا بأمراض خطيرة كالسكر وضغط الدم.. بالإضافة إلى أعمال تتقلص وأصحاب أعمال خاصة يطردون العمالة وأجور منخفضة وأبناء فى حاجة إلى مصاريف باهظة، أضيفى إلى ذلك الغلاء الذى جعل الأيام ثقيلة وتمر على الناس بصعوبة بالغة كأنها حياة تخنق الأنفاس كموت بطئ
- يالهوى.. إذا من الأكرم للناس أن لا يتزوجوا
- بالضبط الناس الآن رجالة وستات يقولون عبارة واحدة.. زواج إيه وسخام إيه
- الحالة الاجتماعية فى كل بيت جعلت الناس على وشك الطفشان إلى الشوارع
- ياريت الطفشان وبس.. حتى البنات الصغيرات يمارسن الجنس مقابل حفنة من النقود كى تعيش كل واحد وواحدة من الناس اللى تحت بيقول أعيش نفسى
- على فكرة كل الناس أصبحت تحت.. لا توجد غير طبقة واحدة عايشة والباقى يعيشون

بضرب الجزم

- ليس لدينا مانملكه حتي نعطى الآخرين.. عندما أقابل شحاذا فى الشارع يسألنى حسنة.. أقول له بالفم المليان.. أنا قرّبت أعمل زيك.. روح الله يسهلك

.. وكانت الساعة تقترب من منتصف الليل. واتفقنا على أن نلتقى ظهر الغد عند سور قطعة الأرض، وكتبت العنوان فى ورقة ووصفت له كيف يصل إليها عن طريق جسر السويس، وسارعنا فى الخروج من المطعم وأمسكته من ذراعه ونحن نعدى الشارع الجانبى فلامس ذراعه صدرى وشعرت بميل نحوه ويبدو أنه سَعِد بذلك فوضع يده على ظهرى فى حنان قائلا:

- والله ياسيدتى أنت عزيزة على ولكن.. وسكت

- ولكن ماذا؟

ولم أنتظر منه إجابة وأخذته معى فى تاكسى كى أوصله فى طريقى.. وفى العربة أمسكت بكف يدى ركبته وقلت:

- نكمل.. ولكن ماذا؟

- لولا أنى أخاف الله

- من ماذا تخاف الله.. وهل فعلت شيئا حتى تخاف

- إننى أخاف قبل أن أفعل حتى لا أفعل

أمسكته.. بالضبط وضعت كف يدى فى حجره فاستسلم فقلت له فى طراوة:

- هل مازلت تخاف

- لا تجعلينى أستسلم ياسيدتى.. الصحيح أن أنزل حتى لا أضعف إنت لست طريقى،

- هل يمكننى أن أنزل من العربة دون أن أسبب لك أى حرج.. أنت أكبر منى ياسيدتى.. مثلى لايقدر على إمرأة فى حجمك

- إذا نزلت وتركتنى فإننى لن أزوجك العجوز

- وهل ستدعينى أنزل عند بيتى

- أكيد إننى لن أخطفك ياصلاح

- أنت سيدة فاضلة تساعدينى على مواصلة الحياة.. إجعلى جميلك لوجه الله تعالى دعينى أقبّل يدك

ورفعت كف يدى إلى فمه فقبله بامتنان.. وابتسم سائق التاكسى فقال له:

- إنها مثل أختى يامعلم

فقال السائق:

- ياسيدى وأنا مالى

- ربنا يسهلك

وقالت سهير للرجل وكأنها تشفق عليه :
- كم أجرتك حتى أخر شارع جسر السويس
- عشرة
- لأ عشرين علشان خاطر ولادك
- ربنا يخليكى.. إنت ست الكل تحت أمرك.. إنت أختنا كلنا
ورفعت يدى عن حجره وأمسكت بكف يده وضغطت على أصابعه قائلة :
- المهم بكرة.. الساعة اتناشر.. هاتبدأ حياتك مع زوجة حقيقية
- ربنا يخليكى.. هاكون تحت أمرك طول عمرى.. متشكر أوى.. قربت أنزل
- فين
- عند شارع العزيز بالله ياسطة

..لم أجد زوجى فى البيت، وكان الطفلان يغرقان فى نوم عميق، وأخذت حماما ساخنا ونمت فى فراشى نوما فيه إمتلأ رأسى بالعافية، ولما قمت فى الصباح كان زوجى نائما فى سريره والطفلان قد ذهبا إلى المدرسة.. كنت أريد أن أصلى الصبح.. ولكن كيف لواحدة مثلى تعاشر الرجال بهذا الشكل أن تصلى.. ولا تندهشوا لما جلست أستغفر الله.. كنت فى حاجة إلى ذلك.. وأمسكت بكتاب الله كى أقرأ فيه قليلا.. لكن شيئا فى داخلى كان يعنينى.. كيف لامرأة مثلى أن تمسك بهذا الكتاب العظيم.. شعرت بحاجة كبيرة إلى التدين وكأن شيئا قويا يحاول انتزاعى مما أنا فيه، أعدت كتاب الله مكانه فوق الكوميدينو وتذكرت صديقة لى تسكن فى حى راق كانت تقول أنا لاأصلى ولكن أعرف الله وأحبه، وكنت وقتها أقول لها.. كيف تعرفى الله ولاتصلى أما الآن فأنا مثلها لا أصلى وآتى بالمنكر من أجل أن أعيش حياة باذخة،هى الآن أفضل منى إنها السيدة ماجدة التى تقطن عند نيل المنيل وحدها هى شقتها الصغيرة الأنيقة.. لم تقترف الزنا فى حياتها ولكنها تزوجت من خمسة رجال.. تعيش من معاش أبيها الرجل الشريف الذى كان يعمل مديرا عاما فى مصلحة الضرائب ولم يمد يده لأحد من عملائه ليأخذ قرشا واحدا.. مات هذا الرجل الطيب ولم يترك لبناته غير المعاش.. ولا أعرف كيف دار هذا بخلدى ولماذا تذكرت هذه الصديقة التى تفعل كل شئ خير ما استطاعت ولكنها لا تستطيع أن تصلى.. كنت أريد أن أتدارى بها لأقول أن هناك نساء أخريات لا تصلى.. ولكن أدركت هنا فرقا كبيرا بينى وبينها يكفى أنها لم تعاشر رجلا قط فى حياتها إلا بالزواج ورحت أتذكر هاتفها فلم تسعفنى ذاكرتى وأرجأت هذه الفكرة إلى وقت لاحق كى أعرف أين هى الآن وكم بلغ عدد الرجال الذين تزوجتهم.. ويبدو أننى تذكرت المعارف القديمة فى محاولة لاستعادة قواى أو أننى مازلت من المجتمع وقد تكون محاولة كى أتوقف عن طريقى.. ولكن يبدو أن المال والجنس يفقدان ذاكرة الإنسان عن مواصلة البحث

ولو لمرة واحدة للرجوع إلى أى ذكرى مع صديقة قديمة وكان علىَّ أن أقوم لأرتدى ملابسى لأذهب إلى صلاح زكى..

.. وفى الطريق دخلت صيدلية واشتريت أدوات مكياج كى أزين العروس،ولما وصلت إليها كانت شبه نائمة فأخبرتها بأن رجلا سيأتينا بعد قليل ليراها من أجل الزواج.. وكم إبتهجت السيدة وكيف ذهبت إلى الحمام وتشطفت وراحت تمشط شعرها وارتدت جلبابا نظيفا وعقصت شعرها وغطته بإيشارب جديد ولما انتهت أقعدتُها أمامى ورحت أعمل لها مكياجا يناسبها فعادت كعروس شابة، وكانت تضحك وتمزح وتقبلنى وهى غير مصدقة أنها ممكن أن تتزوج من رجل سوقى.. فما بالك وهى قد تتزوج من محاسب يعمل مديرا ماليا، وبعد أن إنتهيت أخرجت من حقيبتى فرشة أسنان ومعجون واندهشت السيدة كيف تفعل هذا وهى فى حياتها كلها لم تقم بذلك مرة واحدة.. وأقنعتها بأن ذلك عمل نظيف جدا لنظافة المرأة.. ودعكت أسنانها لأول مرة فى حياتها مرتين حتى تنجلى.. وكانت جد فرحة وتقول الله إيه الريحة الحلوة دى.. ياحبيبتى ربنا يخليكى دا انت خلتينى ألسطة.. إيه العز ده.. خدى فلوس وهاتى تانى كل الحاجات الله يكرمك فى أولادك.. ولاتندهشوا ياسادة بعد كل هذه الزينة الخارجية كشفت لى عن ساقيها كى أراها فوجدت ساقا بضة طرية ناصعة البياض وكانت ترتدى شورتا حريريا مغريا.. إشتقت إلى جمالها من تحت فاحتضنت ساقيها بيدى وفى لحظة قبلتها من صرتها فانتشت وصرخت قائلة:

- يالهوى ياست سهير عمرى ماانبست من هنا
- مش كنت متجوزة
- ماانت عارفة الصعايدة مالهمش فى الكلام ده
- يعنى عمرك ماانبست من هد
- ولا من هناك.. المرة عندهم حتة لحمة بيعضوها.. وحمارة بيركبوها
كان راجل صعيدى غلبان جه من بلدهم مش لابس لباس
- طيب قولى الصراحة إنت بينك وبين الشيخ سعيد إيه
- ولاحاجة وسكتت
- قولى ياحاجة
- والله هو راجل استغل ظروفى.. وحمانى كتير من الناس اللى كانوا عايزين ينهبوا الأرض ماعرفش حد تانى غيره فى مصر كلها
- وبعدين
- قال.. فى يوم قال اتجوزينى.. قلت هات المأذون قال من غير مأذون وراح يقرأ كلام فى الدين ولما خلص قال كده اتجوزتك ولما خلص قال كده اتجوزتك أمام الله.. مش هو شيخ

وعارف ربنا .. المهم اتجوزنى من ساعتها بالطريقة دى .. مش كده صح برضه

- والله أنا مش عارفة حكايات الشيوخ المنتشرة دى

- طيب الله يكرمك أنا عايزه أتجوز صح أدام الناس كلها .. ماتقوليش للراجل اللى جاى أى حاجة عن الموضوع .. وبعدين ياريتنى ماقلت

- أبدا إنت كده عرفتينى الناس حواليه .. إن شاء الله يكون فيه نصيب

- خللى بالك منه ياستى دا راجل وسخ ومش عاتق واحدة فى الشارع ونازل على الستات الكبيرة ..

.. ومر بعض الوقت حتى جاءنا فى الواحدة ودخل صلاح علينا فرحا وكأنه يعرف السيدة من قبل، ولما صافحنا جلس بجوارى على حافة السرير الخشبى وكان يدقق النظر فى وجة السيدة وجسدها، وكانت تشعر بأنه يفعل ذلك فكانت تستحى قليلا لكنها سرعان مامضت دقائق حتى وضعت قصعة تصطلى نارا حامية ووضعت فوقها قورى الشاى وجلست تقلب النار وهى تقول .. أهلا وسهلا .. أهلا ياباشا المكان مش أد المقام فيقول صلاح المكان زى الفل لأنك فيه .. دا أنت قمر ياستى وكنت أضحك وتركتهما يتبادلا المشاعر الطيبة حتى قل صلاح لها بعيدا عن المجاملات

- على فكرة أنا عارف جوزك

- إزاى دا إنت أفندى وهوَّ كان غلبان

- من ثلاثين سنة جيت هنا مع واحد كان عايز يشترى أرض وسلّمنا على جوزك فى نفس الخص ده .. يمكن كان الخص مش بالشكل ده .. ولكن والله أنا قعدت مع جوزك فى نفس المكان

- سبحان الله وبعدين اتصاحبت عليه

- لأ ماجيتش تانى هنا

وسكتت السيدة قليلا وقالت وهى تصب الشاى

- أهلا ياست الكل .. أنا متشكرة أوى علشان جبت البيه عندنا

.. فقلت لها فى مكر

- إيه رأيك فى الأستاذ صلاح

- مافيش بعده رجاله

- طيب وإيه رأيك ياصلاح فى الست

- أحلى ست .. بس هىَّ توافق

- أوافق وأنا أطول

فقلت :

- خلاص اتجوزوا
فقال صلاح للسيدة
- موافقة ياست الكل
- النهاردة ليلة القدر ولكن لى طلب واحد
فقلت
- إيه هو
- أتجوز هنا فى الخص
فهز صلاح رأسه وقال:
- مش مشكلة.. موافق وإيه تانى
- ولاحاجة
فقلت:
- المهر
- مهرى يعيش معايا ويعطف عليه.. معاك ربع جنيه
ومدت يدها إلى صلاح ~
.. وضع يده فى جيبه وناولها ربع جنيه.. فوضعته فى جيبها بعد أن قبلته قائلة:
- نعمة.. ربنا كرمنى بيت وفلوس وجوز إنت عندك ولاد
- عندى
- مصاريفهم كتير
- أوى
- أنا تحت أمرك عايز فلوس
- كتر خيرك ياستى
فقلت وأنا أضحك بصوت عال:
- دا أنت ياصلاح محظوظ أوى.. زوجة بفلوس
وشعر صلاح بالحرج وقال:
- أنا عايزك ياست بهدمتك أد كده الجواز سهل... الله يكرمك
فقلت وأنا مازلت أضحك بين الفينه والأخرى للغرائب التى أسمعها وأن هناك نساءا فاضلات من جيل سابق يتزوجن بربع جنيه.. صحيح أنها سيدة أكبر منه ولكنها إمرأة وحلوة وعندها مائة ألف جنيه.. ولما وجدنى صلاح وقد استغرقت فى تفكيرى وأننى كنت أعتزم الكلام فقال قولى:
- أيوه خلاص نكتب بكرة

فقال صلاح :
ـ وليه مايكونش النهاردة
فقالت السيدة :
ـ زى ماانت عايز
فقلت
ـ معاكم صور لازم تتصورى الجواز دلوقتى تلات صور شخصية

عضت السيدة إصبعها وقالت :
ـ خدينى أتصور ياحبيبتى
ـ معاك بطاقة
ـ معايه
ـ خلاص ياصلاح .. لما نخلّص موضوع التصوير
ـ أنا جاهز من النهاردة لكن نستنى الست
ـ كلها يومين .. عارف مأذون
ـ عارف مأذون فى الحلمية
ـ خلاص ياصلاح رايح فين بعد كده
ـ البيت
ـ تعال معايا أوصلك

وكانت السيده العروس جد سعيدة وودعناها بعد أن إتفقت معها بأن آتيها فى المساء لتصويرها ..

.. ومضت أيام فيها تزوج صلاح من فهيمة، والغريب أنه كان يبدو سعيدا، وكان يقضى حاجته معها فى أى وقت يشاء بلا ضابط أو حدود ، فهى زوجة مطيعة وصالحة، وكانت تطبخ له بعد أن قامت بشراء بوتاجاز وكانت تجيد طبخ الملوخية والبامية والفته وتحمير اللحم وعمل كل أنواع المخلل، لكن عندما تريد عمل الشاى فهى كعادتها تعمله على نار القصعة ويكون صلاح معها تحتضنه ويحتضنها حتى يغلى الشاى بالقورى ومع تناول الشاى تحكى له عن طفولتها وأيامها مع زوجها،حتى أنها أخبرته بزواجها من الشيخ وقد أنزعج صلاح من ذلك وقال لها إنه رجل ندل ودجال وكيف يتزوج ببدعة، وحذرها صلاح من التحدث معه وأنه سوف يقابله بخصوص هذا الأمر ويعنّفه..

.. وفى ليلة من الليالى ذهبت إلى أرضى كى أرى بنفسى مواد البناء التى جلبها الشيخ سعيد بعد قيامه بحفر الأرض تمهيدا لرمى الأساس وكنت أعرف أن صلاح موجود فى هذا

الوقت مع زوجته وكنت أقود العربة وأشعر أن حقدا فى داخلى على هذه العروس.. كيف لها بهذا الرجل.. أنا التى أتيتها به.. إمرأة فى هذه العمر وتتمتع برجل يملك هذه القوة البدنية وكما يشتهى الإنسان فاكهة فى أى وقت فيذهب إلى السوق ليشتريها.. فإننى الآن أشتهى صلاح فكيف أشتريه.. إنه أول رجل فى مرحلة حياتى الأخيرة أشتهيه طواعية من نفسى.. إننى أريده دون كل الرجال ببلاش.. لاأريده أن يدفع لى قرشا واحدا.. بل إننى على استعداد لأن أدفع له.. لكن كيف؟ولماذا وقد إحتدت رغبتى نحوه الآن... لماذا لم أشتهه من قبل وكان طريقى إليه سهلا ..

...دخلت من باب السور وتوقفت بالسيارة بعيدا عن الخص وسرت بهدوء حتى لا يسمعا صوت كعب حذائى.. إننى أريد أن أصل إليهما على غفلة.. حتى أسمع مايدور فى الداخل.. وكان هناك باب من صفيح يؤدى إلى مدخل صغير قبل أن تصل إلى باب العشة.. خلعت حذائى وكان هناك نور يشع من بين ألواح الخشب الرقيقة وأعواد جريد النخل التى جدل بها جزء كبير من أجناب الخص.. ولأن حائط البيت رقيق هش فكما ينفذ إليه الهواء بسهولة تسرى منه أصوات الذى بداخله كأنك تجلس معهم.. قعدت على مؤخرتى فوق القش وكنت مذهولة لأننى أسمع صوت ماكينة تخشخش.. وكأن صوتا آخر ينزلق كصوت المياة التى تسقط من دست سواقى زمان فى قناة مجراها إلى الحقل ترويه.. وكانت أنفاس الثور الذى يجر الساقية تتهدج والمرأة العجوز.. المرأة العروس.. المرأة التى لا تضاهيها إمرأة تغنى مرة وأخرى تصرخ وثالثة تقول.. تجهر.. تتنغم بكلمات يندى لها الجبين.. وقلت لنفسى أليست كل إمرأة هكذا وهى تحت الطنبور.. ماشأنك أنت أليس لها أن تعيش.. وهذا الغلبان صلاح الذى أذلته إمرأته طيلة حياته.. إننى أعيش كما يحلو لى فلماذا لاأترك هؤلاء المساكين يتمتعون ولو قليلا.. وأطلقت بصرى نحو الشرق ليطل على بنايات مصر الجديدة الشاهقة.. وكنت مازلت أسمع أنغام العروس وأنفاس الثور الذى عاد كأنه ينعر.. أطلت النظر وقلت أقسم بالله الآن لا يوجد رجل وإمرأة يتمتعان بالحياة مثل هذين الذين فى داخل هذه العشة الحقيرة .. كأننى أكلم تلك البنايات وأتحدى من فيها.. آه ياإلهى.. يامن تضع سرك فى أضعف خلقك.. ياسبحان موزع الأرزاق وأسرار السعادة.. كم من بيوت حقيرة فيها فقراء سعداء... وكم من بنايات عالية يحرسها الأمن ويسكنها البشوات.. وهى تعج بالضعف والتعاسة وكل أنواع الشذوذ.. قلت كم وليس كل ولكن صدقونى إنها ظاهرة للعيان الآن.. إمرأة مثلى مومس فى ثياب محترمة تحلف بالله.. وتتفلسف، وتتنصت على فقراء هذا الزمان وتحقد على الأرزاق الحلال.. أى إمرأة أنا.. كانت هناك ثورة تغلى فى جسدى وشئ من الجنون يمسُّ عقلى.. كنت أريد كل مافى الحياة فهل هذا معقول.. وعلى أى حال شعرت بأننى على حافة أن أسرق لحظات السعادة من الآخرين وكيف يحدث ذلك وهذان لا يملكان إلا هذه اللحظة.. وبعد أن هدأت قليلا كان

هناك همس حديث بين صلاح والعروس فأطرقت السمع ووضعت رأسى فوق الجدار الخشبى الرقيق لأسمع:

- مش عايزه حاجة تانى ياأجمل ست

- ياه.. دا إنت الدنيا اللى ماشفتهاش

- سترتينى ياستى ربنا يديك

- إنت راجل ماكنتش أحلم بيه.. أنا كنت متجوزة راجل غلبان أوى.. مايعرفش أى حاجة فى الدنيا.. يعبد القرش وكل شغله مين هناك.. ويعمل شاى وكانت الجوزة قاطعة نفسه وعمره ماعمل سنانه بالمعجون وكانت ريحته وحشة بيستحمى كل شهر.. ما عرفتش إن فيه رجاله حلوة زيك إلا لما شفتك

- أنا سعيد بيك.. على فكرة الناس دى مش وحشة.. اللى زى جوزك دى سلالة متجرجرة طول حياتها فى النيلة.. وراثة الناس دى هى طبقة العبيد بتاع مصر.. سواء كانت فى عهد الملك أو فى عهود الأباطرة وعلى فكرة الناس دى بتزيد.. غصب عنهم وسخين وغصب عنهم مابيعرفوش وغصب عنهم بيشربوا جوزة وغصب عنهم كل شئ.. دول عبيد طبيعى.. دى الناس اللى مغلوبة على أمرها نتيجة تراكم الظلم منذ قرون.. هى جاية من إن فيه ناس بتورث الغنى وآخرين بيورثوا الفقر.. كل واحد بيعمل لنفسه ولأبنائه فقط.. مافيش حد بيحاول ياخد بإيد الناس بجد وعلشان كده البلد فيها حاجات كتيرة.. القصور والفلل والأبراج بتزيد بشكل مثير ومستفز.. وبنفس الزيادة بتزيد العشش والعشوائيات وسكان المقابر.. وفيه ناس بتعيش ليل ونهار على الرصيف وفى الأماكن المهجورة وعلشان كده بتكتر الحوادث.. نوعين من الحوادث حوادث الفقراء كلها سببها الجوع والبطالة والحاجة.. وحوادث الأغنياء سببها فلوس كتير وافتراء على الناس والنصب على البنوك والإستيلاء على الأراضى بالقانون.. يعنى فيه فى البلد نصابين وحرامية وزنادقة بالآلاف زى أسامة وشريف..

- مش فاهمة حاجة ماتخلينا فى نفسنا ياسى صلاح

- للاسف أنا فاكر إنك فاهمانى عشان ساكته

- لأياسى صلاح أنا ساكته من غلبى.. ياسيدى خلينا فى حالنا كل حى منه لله.. ياالله كمان مرة.. ولما كانت للمشهد الجسدى نهاية وحديث من صلاح عن بعض السياسة الذى لم تفهمه هذه المرأة الجاهلة ولم تجاريه فيه، ولم تكن تعرف أى شئ آخر سوى أنها تريد مرة أخرى، وذهب معها الندل صلاح فى مشهد آخر.. وكانت السيدة الفاجرة تقول له بلهجة صعيدية كمن تهتف ياكباس ياكباس.. فوافقتها وقلت لنفسى فعلا هذا رجل كباس.. وشعرت بتوهان وحاولت أن أتذكر لماذا أتيت.. وانتابنى شعور بأننى حاقدة وماذا أريد بعد أن نلت هذه النعم.. خرجت من العشة بخطى ثقيلة وكأننى أجر أزيال الخيبة... وانتابنى شئ غريب فى

رأسى يدقها بقوة ينم عن حزم فى أن أترك عربتى وأسير فى شارع جسر السويس متجهة ناحية حى العرب.. كانت ثورة فى جسدى وقلبى يدق كالمراهقة التى لم يلمسها رجل بعد .. إننى الآن أريد أن أصبح هذه المراهقة التائهة، وقبل أن أصل إلى العرب توقفت أمامى عربه بيجو سوداء لامعة ونزل منها رجل يرتدى ملابس نظيفة.. إقترب منى وإبتسم ابتسامة عريضة وقال وهو يشير بذراعه نحو مركبته:

- حرام ياست الكل تمشى فى شارع مليان بهايم

وضحكت له فى دعه وقلت وأنا أدنو من باب العربة:

- مافيش بهايم خالص

- الحمد لله إن ما طلعش ليك واحد من إياهم.. تعالى ياست الكل نبعد عن هنا

.. لحظات واعتلى مقعده وفتح لى بابه وقال:

- أنا حظى أحلى حظ علشان لقيتك.. إنت منين ياستى.. ياست الناس

- أنا من هنا

- مش ممكن

- كنت من هنا

- وبعدين

- عديت جسر السويس ورحت مصر الجديدة

- كنت بتعملى إيه هنا

- باشوف الرمل والظلط والحديد

- هاتشترى

- لأ بابنى عمارة

- باين عليك ياست الكل

- متجوزة

- لأ

- عندك ولاد

- آى

- ممكن تشرفينى شوية

- ماعنديش مانع

- تحبى نروح مطعم على النيل

- أنا زهقانة ياريت

- تحبى السمك

- فيه جمبرى
- فيه كل حاجة
- إنت مين
- أنا عادل
- بتشتغل إيه
- كفاية شغل
- يعنى عايش إزاى
- أنا فى عام ٦٧ إتأسرت فى إسرائيل.. كنت أيامها ملازم أول، قعدت فى الجيش حتى وصلت لعميد مدرعات
- وبعدين
- طلعت معاش.. بعدها سافرت أمريكا اشتغلت هناك عشر سنين مع عمى
- عملت فلوس كويسة
- عملت قيلا فى المهندسين وجوزت بناتى
- عندك ولاد
- اتنين مهاجرين واحد فى أمريكا والتانى فى كندا
- اتجوزت من أمريكا
- اتجوزت اتنين
- ومن مصر كام
- أربعة

- تاريخك الاجتماعى كبير أوى
- المهم أكون عاجبك
- عاجبنى أوى المهم العشرة ياكابتن عادل
- كنت بطل كمال أجسام، وإتأسرت فى إسرائيل.. كنت باعمل تمرين الضغط ميتين مرة.. وجه التليفزيون الإسرائيلى وصوّرنى على أنى رياضى كبير فى مصر..
- إتأسرت كتير..
- سنة

على العموم إحنا وصلنا.. كان المطعم الذى يقع على النيل يكتظ بزبائنه رجال ونساء من كافة الأعمار، ويبدو من وجوههم جميعا أنهم ولاد ناس كما يقولون.. هؤلاء جميعا قادرون على أن يدفعوا وأن يغنوا ويرقصوا فوق بست المطعم مشاركين المغنى والمغنيه وضربات

الديجيه القوية المثيرة.. ولم يكن إهتمامى بالمكان أو رواده أكثر من إهتمامى بعادل.. ذلك الوجه الوسيم الرياضى..عميد الجيش المتقاعد حيث كنا نجلس على منضدة دائرية صغيرة قرب بست الكازينو.. ويبدو أنه كان ملهوفا على معجبا ولعا.. من نظراته وحرارة صوته وسيل كلماته الرقيقة وبعد أن انتهى من مجاملاته كنت قد ألقيت نظرة هنا وهناك مجموعات من فتيات صغيرات لا يتجاوزن الخامسة والعشرين.. وسيدات فى العقد الرابع وأخريات فى الخمسين والستين وقليل فى السبعين وكان الشئ الظاهر المفتوح للجميع هو الرقص.. الجميع يشاركون فيه من رجال ونساء وكان أبرز الرجال هذا مصمم الرقصات.. إنه يرقص بالصاجات مثل راقصة وتتابعه إمرأة جميلة بيضاء بضة الجسد بعينيها الساحرتين وكانت تصفق له حين يتفوق فى حركاته المثيرة.. كنت أتابع جيدا ماحولى لأنه لأول مرة فى حياتى أدخل مكانا كهذا حتى شدنى عادل قائلا:

- إذا كنت خالية أنا مستعد أتجوزك
- ياه على طول كده.. إنت عايزنى إيه
- مش قلت إنك مش متجوزة
- يعنى
- مش باهزر يا
- سهير
- تشربى إيه ياسهير.. أقصد تاكلى إيه الأول
- جمبرى لو فيه
- سندوشات
- أيوه
- إنت خالية
- يعنى
- إنت تستفزينى
- أبدا.. مش هانروح البيت
- بيتك
- بيتك إنت مش بتقول فى المهندسين
- خلاص ناكل ونروح البيت

وسكتنا قليلا.. كان هو يتأملنى وأنا أتأمل الناس حولى.. وجاء الجرسون بالطعام.... والبيرة والماء وحمص الشام.. وكم كان الجمبرى لذيذا والبيرة ألذ ..

.. ولم يكن كما يتهيأ لى أجمل ولاأمتع من راقصة جميلة وجهها كالعسل قد شرفت فوق

البست حيث إنفض الجميع إلى مقاعدهم وراحوا يتابعون الراقصة الطائرة التى هبطت فوق مطار المطعم ببدلتها الخضراء الشفافة.. أى خصربان يرتعشان يمنة ويسرة أعلى ساق لإمرأة مثل حور العين.. جمال سيقان يانعة من فرع شجرة البان.. طرية ممشوقة مرتعشة صاخبة مثيرة تحملها فى رشاقة فائقة كأنها تطير من شجرة لأخرى تتمايل بوجهها الملائكى كأنه أنشودة جميلة وكان السيجار والكأس والمائدة المستديرة وكضم الناس طعامهم وتصفيقهم الحار فى أرجاء الملهى شئ والراقصة شئ آخر، وشعرها الطويل المنساب فى كثافة فوق كتفيها وأخرى ينساب حين تندمج فوق ظهرها يكاد يلامس خصريها كأنه ضفائر إنتثرت مثل جدائل شجر ظليل تدلى من أعلى تبه خضراء زرعت فوق جرف منحدر نحو موج مياه لأجمل نهر فى هذه الدنيا..

من هذه الراقصة.. إنها ماهيتاب والذى يراقصها هناك عند مقعده أحد كتاب الرواية ويصفق له محمد إبراهيم الصحفى واستاذ التاريخ الدكتور قدرى ومحمود النويهى من رجال البترول المعروفين..

.. ومن هذه الراقصة يشحن الروائى خاطره ليكمل هناك وعند نيل المنيل روايته الأخيرة.. ومن هذه الراقصة الرائعة ينهل كل رجل من عشرات الرجال هنا مزاجه العال ويتول فى صباح اليوم التالى لقد استمتعت بليلة جميلة لأنه كانت هناك ماهيتاب راقصة..

هكذا قال لى عادل وحكى لى عن هذا وذاك من مشاهير هذا الملهى الذين يجلسون هنا وهناك حول ملعب الراقصة الممتع.. وحتى انتهت الراقصة البديعة من رقصاتها فى الثالثة والنصف.. قلت وأنا أحتضن ذراع عادل متوجهان إلى المركبة:

- إنها حقا راقصة.. ومن حق الرجال أن يفتنوا بها

ابتسم عادل وقال:

- خلاص نيجى كل خميس هنا

.. قرصته من ذراعه وقلت:

- هانروح فين

- على بيتى طبعا

.. كانت الشوارع خالية من المارة ولم تمض عشر دقائق حتى وصلنا إلى فيلته الصغيرة التى تقع فى حى شعبى ملاصق لحى المهندسين، ولما دخلنا من باب خشبى صغير يلفه سور حديدى طلى باللون الأخضر كانت فروع الأشجار التى زرعت فى مدخل البيت تعلو سياج الكوخ وتحتضنه فى شكل جميل، تهيأ لى أنه كوخ وسط هذه البيوت الصغيرة التى بناها أصحابها فى ذلك الحى الشعبى الذى يدعى معظم أهليه أنهم من المهندسين، ورث العميد هذه القطعة الصغيرة من الأرض عن والده فقام ببنائها بشكل جميل ولكنه طولى لأن عرض الأرض لا

يتجاوزخمسة أمتار ويمتد طوله عبر البيوت الصغيرة حوله إلى نحو عشرين مترا تخترقه (طرقة)طرقة طويلة قبلها تدخل المطبخ ثم غرفة بها صالون مذهب ثم غرفة نومه بعدها مخزن صغير وفى آخر الطرقة حمام طولى به بانيو كبير وزينّه بالسيراميك الأخضر.. وجدتنى أقول له بعصبيه وكأننى أقنعه بأن هذا ليس قُيلا ولكنه بيت بسيط أنيق:

- الحمام أجمل مافى بيتك الصغير

.. ضحك الرجل وأخذنى من يدى قائلا:

- هذا أجمل ماورثته عن أبى.. ياريت كل واحد فى البلد ورث حتة أرض وبنى عليها بيت

.. وجلسنا فى غرفة الصالون وكنت أضحك وأبتسم وهو يتكلم وكنت بين الفينة والأخرى أقوم لأمسح التراب من فوق مقعد أو منضدة أو تمثال أو لوحة بالحائط حتى فاجأنى قائلا وهو يقهقه - شفتى الكلب

- يانهار إسود الكلب

- الكلب الحارس أول مادخلتِ

- لأ.. ومش عايزه أشوفه أنا بموت من الكلاب

- طيب تعالِ شوفيه من بعيد

... وقمت خلفه بحذر لأرى كلبا أسودا ضخما مثل كلاب البوليس ينام خلف الباب كأنه أسد ... وقلت مذعورة وأنا أهرب إلى الداخل نحو غرفة النوم.. حرام عليك إقفل الباب ياعادل.. ورحت أخلع حذائى فقال:

- إقفلى الباب واقلعى

- طيب هات لى شبشب حمام

... وفى الحمام إغتسلت بالماء البارد وعدلت ملابسى الداخلية ثم تزينت وتعطرت وخرجت إليه بقميصى فلم أجده فى غرفة النوم... وذهبت إليه فى الصالون فوجدته نائما على ملاءة فرشها فوق سجادة الغرفة، نائما بالفانلة والشورت، ولم يبد إهتماما بى، وقال وهو ينقلب على جنبه:

- نامى فى السرير ياست الكل

- وبعدين

- نامى أحلى حاجة النوم.. الفجر قرّب

- هوا أنا جايه أنام وجلست عند رأسه وأمسكته من كتفه

- أنا جايبك علشان تشوفى البيت اللى هاتعيشى فيه

- ومين قال لك إنى محتاجة بيت

- مش هاتتجوز

وأمسكته من شعر رأسه وقلت وأنا أشده مغتاظة:

- أنا ست مش فى دماغى الجواز

- وأنا راجل باتجوز وبس.. إنت هاتكونى الزوجة السابعة

.. وقام من نومته وقعد قبالتى بعد أن آسند ظهره إلى المقعد وتابع يقول:

- انت عجبتينى من أول ما شفتك ماعنديش لف ولادوران.. وجبتك هنا علشان تشوفى بيتى وتعرفى أنا عايش إزاى..

- إنت غريب أوى.. طيب موافقة بس أجرّبك..

- يانهار إسود.. ماعنديش الكلام ده.. سيبك من إن أنا رجل عسكرى .لماتأسرت فى عام ١٩٦٧ عرفت إن الله حق..طول مدة الأسر أذكر الله واستغفر حتى عفا الله عنى ونذرت نذرا بينى وبين الله أن لاأزنى أبدا ولاأغضبه.كل ما أستطيع أن أفعله تجاه النساء أننى إذا أعجبت بواحده أعرض عليها الزواج.. هذا هو طريقى يا سيدتى..

- ممكن تزوّجنى دلوقتى..

- تحت أمرك.. الفجر داخل.. أصلّى بس..

- يانهار إسود.. إنت هاتجننى عمرى ما شفت كده.. الجسم داكله والوسامة على القاضى..

- إذا أعطانى الله رزقا فعلى كإنسان عنده قليل من التدين.. أنا لست فقيها ولكن أعرف الله حق المعرفة.. مالى أنفقه فى الحلال وصحتى هذه رزق أنفقها أيضا فى الحلال بما يرضى الله.. ليس هناك شئ فى حياتى أقوى من علاقتى بالله.. أحب الدنيا وأحب المال والطعام والنساء ولكن كل هذه المتع أتناولها بحلال الله..

- وقادر على كده من زمان

- منذ أن خرجت من الأسر.. أكثر من ثلاثين عاماوأناطاهر.. وبعدين عيب علىّ.. أنا مدير إدارى لنادى إجتماعى كبير.. لازم أكون راجل محترم لانى أدير نادى إجتماعى فيه أسر وشباب وبنات لازم اكون قدوة.. ياخد الشباب والشابات فى ملعب التنس وأقول لهم شوفوا..

- شوفوا إيه..

- شوفوا أنا راجل سنى ثلاثة وستين سنة واعمل لهم تمرين الضغط متيين مره.. ويصفقوا ويشدوا على يدى.. ويقبلونى..

- خليك لنفسك.. إنت راجل غريب.. وعمرى ماشفت زيك ولاكنت أتصور إن فيه راجل زيك.. خليك فى حياتك وسيبنى الله يكرمك..

- أنا مش ما سكك ياستى.. هاقوم أصلى..

.. وقام وصلى وبقيت قاعده بالارض مهدودة الحيل.. شعرت باستياء شديد وبأننى إنسانة من نوعية وسخة، أدبنى هذا الرجل دون أن يضربنى وفى النهايه علىّ أن أختار.. صلىّ الرجل فى

حديقة البيت ثم عاد إليّ قائلا :

- قومى إلبسى..

- تعال جنبى شوية..

- أعمل إيه..

- خليك حنين شوية أنا عايزاك..

- اذا كنت عايزانى تعال بالليل.. آجى آخدك من بيتك.. واتجوزك هو دا طريقى

- يخرب بيت طريقك ياعادل

... وقمت وانا اشعر بالذل والخيبة وكان اندهاشى برجل مثل هذا يساوى شعورى باهانتى لنفسى .. وكانت المحصلة أننى أخذت درسا كبيرا من رجل فى منتهى الغرابة.. ترى هل هناك كثير من الرجال مثله .. واكملت ارتداء ملابسى ورحت اليه محاولة الجلوس فى حجرة لكنه رفض بشدة وأمسكنى من ذراعى بقوة وقال:

– مستحيل..

– طيب بوسة.. بوسنى بس..

– برضه لأ..

- تعال أوصلك..

- ماشى..

كنت أريد أن أضربه ولكنه لم يمهلنى أن أمسك بشىء أضربه به وهرول أمامى كالمارد وفتح الباب وتبعته.. وكان الكلب يقوم من نومته ويهز ذيله تحية لصاحبه.. وقلت ممتعضة أكلم نفسى وأرد على هذا الكلب:

- جتك نيلة عليك وعلى صاحبك..

******

(٨)

كان علينا فى يوم أن ننتهى من إجراءات فتح حساب بنكى بضمان بضائع. وقاد شريف عملية ترتيب وتنظيم البضائع غير الصالحة فى كراتين تعدت ألف كرتونة. وتعبئة ثلثمائه كرتونه أخرى بضائع سليمة، ونقلت البضاعة إلى مدخل الأرض التى إشتريتها بجانب عشة العروس فهيمة. وهناك تم إعادة تجهيز المخزن بوضع البضاعة الصالحة للبيع فى الصفوف الأولى وتشوين البضاعة التالفة خلف الواجهة السليمة، وكان أهم شئ فى يوم المعاينة أن قام شريف وأنا معه بتناول الكباب مع رجال البضائع بالبنك فى مطعم صبحى بجسر السويس بعدها شربنا الشيشة فى مقهى الفيشاوى بنفس الشارع، وقبل أن نذهب إلى المخزن ناول شريف كل واحد من الثلاثة ظرفا به ألف جنيه، بعدها ذهبنا نحن الخمسة فى سيارتين إلى المخزن وهناك قابلنا صلاح زكى ومعه زوجته التى كانت تكنس أرضية المخزن، وقام شريف ومعه صلاح بتشوية الرجال الثلاثة مساحة المخزن وكراتين البضاعة وقام أحدهم بفتح كرتونة ليتفحص البضاعة وآخر بفتح أخرى ليفعل ما قام به زميله، وقام الثالث بعمل جولة فى أرجاء المخزن وكأنه يبذل جهدا كافيا فى المراجعة والتدقيق حتى إذا كتب تقريره هو وزملاؤه كان ذلك نتيجة فحص وتدبير وعناية، والغريب أن الثلاثة كانوا يوافقون على كل شئ يقوله شريف غير أن أكبرهم سنا طلب من شريف بصوت سمعه الجميع:

- المخزن كده سايب ياباشا

ولم ينبس شريف بكلمة ولكنه هز رأسه وتبرمت شفتاه.. غير أن المحاسب راح يكمل كلامه:

- يعنى قبل مانصرف معلهش ياشريف بيه، المفروض دا مخزن مقفول إحنا عايزين سور يتبنى بأعمده وفوقهم سقف من الجمالون ودا ممكن يخلص فى أسبوع، وباب للمخزن متقفول بالأقفال.. أظن دا كله ممكن

ابتسم شريف وقال وقد بدا عليه الرضا:

- قبل أسبوع تحت أمرك.. بعدها معاينة نهائية مش كده
- مجرد هانيجى نقول كله تمام
- والصرف
- والله دى إجراءات الإئتمان أعتقد بعدها بأسبوع
- اتفقنا
- إحنا هانقدم تقريرا مبدئيا وبصراحة المخزن زى الفل بس شوية التوضيب وكله هايبقه تمام

وكانت السيدة فهيمة قد قدمت شايا، بعدها جاءتنا بقنانى السفن الباردة، كل ذلك استغرق ساعة واحدة، بعدها انصرف محاسبو قسم البضائع، وذهب شريف إلى الشركة وبقيت مع صلاح وزوجته وتكلمنا عن كيفية بناء المخزن واتفقنا على أن هذه المهمة يقوم بها الشيخ سعيد لخبرته، وقبل أن أنصرف تكلم شريف مع صلاح على المحمول وأبلغه كيف يتم بناء سور وسقف المخزن قبل عشرة أيام، ولما ودعتهما شددت على يد صلاح مشجعة كى ينتهى هو والشيخ سعيد من هذا البناء الصغير، ركبت سيارتى وأنا لا أعرف إلى أين أذهب وشعرت بأننى قوية فلا يهمنى الآن الذهاب إلى الشركة فى موعد محدد، لقد أصبحت مالكه للمال والأرض والمخزن الذى يستأجره منى هذا المليونير الكاذب، وانتويت أن أكتب عقد ايجار لا يقل عن ألفين جنيه فى الشهر، ولكى أحقق ذلك فعلى أن أبسط شريف فى قعده حلوة أخليه ينسى نفسه حتى ينهى هذا الموضوع مع أسامة الذى لم أعد أطيقه، ورغم أن كل شئ فى هذا اليوم كان هادئا وبسيطا غير أننى أشعر بالقرف الشديد، وكأن كل الأمور التى تحدث حولى قد تآلف الناس على عملها منذ مدة بعيدة، وقلت لنفسى وأين كنت أنا لما كان ذلك يحدث، لقد ضيعت وقتا كبيرا من عمرى، ليتنى وجدت هؤلاء الناس منذ تخرجى من الجامعة، وأخذت نفسا عميقا كأننى أشهق وكما سرت فى الشوارع من قبل تائهة كنت أقود عربتى كالشاردة، وتعجبت كيف أتوه وأنا أملك المال والأرض هل ضاع شئ عزيز كنت أملكه.. أم أننى وجدت نفسى فجأة بلا رجل شريف يوجهنى، وهل كان زوجى شريفا؟ وهل انقضى شرفه بعد ذلك؟ نعم كان زوجى شريفا عندما كان مسافرا يوفر لنا كل أسباب الحياة، وبعد ذلك ذهب شرفه واحدة بعد الأخرى لما بدأت أسباب الحياة تنفض من حولنا، كان زوجى شريفا مثل كل رجال مدينتى فى جيبه دائما قروش يشترى بها حاجياتنا، ولما نفذت نقوده لعدم وجود أعمال شريفة استمر الشرف مع الرجال أعواما وهم يدقون أبواب الأعمال فلا يجدون وكانوا جميعا ينصرفون إلى بيع كل مالديهم كى يحافظوا على الشرف، ولما باعوا كل شئ فلم يبق فى بيوتنا ياسادة شيئا نبيعه غير أنفسنا، أنا وزوجى وتهانى وآلاف بل ملايين الناس مثلى ومثل زوجى فى المدن والقرى والنجوع باعوا كل شئ ومنهم بعد ذلك من سرق ومن نصب ومن غش ومازال يقوم بهذه الأعمال والبقية الباقية وهى جزء كبير من المجتمع باع نفسه باع جسده.. باع شرفه كى يعيش.. وجزء كبير أيضا بل وشرائح كثيرة تقول إننا نبحث عن شئ نسرقه فلانجد.. بمعنى أن هناك لصوصا على الأبواب وأن هناك قطعانا كبيرة من هذا الشعب تتلقف قطعة لحم تلقى على الرصيف أو رغيف .. لم يعد فى بيوت الناس شئ ولافى جيوبهم فلس ولافى بطونهم بلغة عيش.. فى بيوت بأحياء شعبية عشوائية بل وأحياء راقية شقق ودهاليز للدعارة.. بعشرين جنيه فى شبرا الخيمة ومائة فى المنيل وخمسين فى شبرا مصر ومائتين فى أرقى الأحياء، ورغم أن الأسعار كانت أعلى قبل أن تتفاقم الأزمة الإقتصادية التى طحنت البلاد

لأن عرض النساء فى كل مكان، وأصبح كبيرا والطلب مهما كان قاصرا على من يدفع والذين يدفعون قليلون فى بلد على شفير مجاعة، كنت قد بلغت زعابيب أفكارى وكدت أدهس إمرأة تخترق الطريق أمامى، وكان لابد أن أفيق ومرت دقائق أخرى كنت فيها أقترب من نهاية شارع فيصل قرب الهرم كان أقرب الأشياء إلى نفسى أن أندمج مع شاب تائه من هذا الشعب ومأغلبهم هذه الأيام ولكن كانت سرعة العربة أقوى من أن أبحث عن ما فى نفسى فانطويت إلى شارع الهرم متجهة إلى وسط المدينة حيث أتيت، وعند أكاديمية الفنون دق جرس المحمول..

- آلو
- درغام معاك
- يوه ياباشا الناس إنت فين
- كده ماتسأليش
- تحت أمرك ياباشا.. أنا مش عايزه أزهقك منى..
- لا.. لا.. تعال..
- إنت فين
- فى البيت
- أنا كنت لسه بافكر فيك.. جيالك..
- أنا مستنى القمر
- باى ياحبيبى

كم كنت سعيدة بمكالمته وبدأ شعورى بالقرف الذى شعرت به ينجلى، وعند كوبرى غمرة كانت الهموم التى تثقل رأسى قد إنزاحت وبدأت أتهيأ للقاء رجل البنك الذى منه تتسرب الأموال إلى شركتى ومنها أملأ جيوبى وأمتلك عصب الحياة حتى لايتحكم أحد فى،وانتويت أن أقضى معه ليلة جميلة من عمرى.. ولماذا لاأصرف جزءا من القرض الجديد فى الصباح.. وما فائدة علاقتى الحميمة به.. ولما كنت أدخل مشارف مدينة نصر كان الهواء نقيا عليلا ورحاب البيوت وأنوار الشوارع أشعر أنها تستقبلنى بحفاوة.. كانت الدنيا تضحك، لأننى سأقضى ليلة سعيدة فى مدينة نصر، وعلى أن أبدع فيها حتى أعكم بكرة العمولة.. وتذكرت كيف كانت لقاءاتى معه فاشتهيت أن أضمه إلى صدرى.. سوف أفعل وأبكى فوق شعر صدره الكثيف، وكم كان رقيقا فى لهفته على وعاملنى كأننى حبيبة ولست رفيقه وكما اتفقنا ياساداتى أن لا أحكى تفاصيل لقائى به لأنه أجمل رجل لقيته فى حياتى، وهو رجل قوى بدون تناول الفياجرا أو غيرها وأحلى ما فى هذا الرجل أنه لايشرب الخمر ولايدخن الحشيش وكم كنت تواقة لمعرفة مثل هذا النوع من الرجال والسبب الثانى هو أننى لا أريد أن أغوى قطيعا من النساء مثل

مافعلت لأننى لا أريد أصلا أن تفعل النساء مثل مافعلت أو يخضن مثل تجربتى حتى لا يتم الإستيلاء على أموال البنوك وهى أموال الشعب بشكل واسع وخطير، ويجوع الناس ويدخل الفقر كل بيت، وأننى فعلت كل هذا لأنقذ أبنائى من الحاجة وأسرتى من الفقر وأن أغير وجه حياتى وانتقل من عين شمس إلى مصر الجديدة، وكنت أريد أن أشبع أشياء كثيرة فى نفسى مثل التعرف على الرجال الذين يملكون المال حتى ولو كانوا أصحاب جلاليب، كنت أريد أن أغرف من الوعاء الذى يغرفون منه، كنت أريد أن أحقق مقولة زملائى الحكماء فى الهيئة حيث يقولون:

- فى مثل بلادنا لن يصل العدل لمستحقيه أبدا، وعندما يصل فإنها فتافيت لاتشبع عصفورا.. وعلى كل الناس فى هذا العالم المغلوب على أمره أن يسرقوا ما استطاعوا مثل مايسرق الكبار.. والشاطر يصبح لصا كبيرا حتى يستطيع أن يرش على كل ماحوله فلا يستطيع أحد أن يمسك به.. له جماعته وحوله من يحميه لأنه يطعمهم.. إن اللصوص الكبار يسرقون بواسطة القانون فهم حرامية بالقانون والعبيط هو الذى يسرق محفظه موظف فى أتوبيس، واللبيب هو الذى يستطيع أن يندس بين الكبار ليسرق مثلهم أو يتدارى معهم وبينهم حتى يسرق والقانون يحميه، القانون الذى فصّلوه من أجلهم -

..أشياء كثيرة تجعلنى مصممة على استكمال مشوارى حتى النهاية.. عاشرنى الرجل الجميل القوى حتى قبل الفجر بقليل.. ودار ذلك بمخيلتى أثناء ذروة لقائى به وقلت لنفسى ماأجمل أن أملك ماأقدمه للأغنياء حتى أغرف مما لديهم من مال أو أستغل ما يملكون من سلطان.. وكان النوم سنيئا فى أحضانه حتى التاسعة صباحا، وكان عليه أن يستيقظ حتى يذهب إلى البنك، وقمت بتجهيز الفطور وأثناء تناولنا للطعام دار بيننا الحديث التالى فقلت له مبادرة:

- ممكن أصرف من القرض الجديد النهاردة

ضحك الرجل وقال:

- شوية.. شوية صغيرين

- إزاى ياباشا.. هوّ إحنا مش بنعمل شغل مع بعض.. هو إيه الفرق بينى وبين أى حد

- ياروحى إنت غير كل الناس ولولا خاطرك ماكنتش عمرى وافقت على أنى أصرف لابن الهويدى البايظ مليم واحد.. أنا عملت كده معاك إنت وعلشان خاطرك وربنا يستر

- يعنى إيه لسه هاستنه

- البضائع هاتقدم أوراقها للإئتمان وبعدين الأوراق هاتبقه فى الإئتمان شويه يعملوا شغلهم وبعدين الورق ييجى لى.. ليك علىّ أخليهم يخلصوه بسرعة وعلى فكرة أنا عارف إن مخزن الهويدى مضروب زى ماكان بيعمل مع كل البنوك، وأنا مش هاروح ولاها شوف البضاعة، وأنا عارف شريف المعرّص بتاعه شغال إزاى.. اسكتى ياسهير خللى الطابق مستور علشان خاطرك

هاغمض عينى واشتغل مع الورق وبس

- إذا كان كده كتر خيرك وأنا مش هاتكلم يمكن ماكنتش عارفه حجم خدمتك ليّه.. على العموم كتر خيرك وربنا يخليك للولايه اللى زيى

- لأ إنت مش وليه.. الولايه الغلابة اللى مش لاقيين ياكلوا..

وسكتنا قليلا غير أنه طفق فجأة قائلا:

- إسمعى علشان مانضيعش وقت عايزك تتعرفى على مدير الإئتمان فى الفرع

- وإنت موافق ياحبيبى

- أوافق علشان مصلحتك

- هو برضه شقى

- مافيش راجل مش عايز خاصة لما يشوفك.. راسه ناشفة شوية لكن لما يشوفك هاينتهى الموضوع بسرعة وبرضا

- خليه يكلمنى ياباشا

- النهاردة بعد الظهر كلميه إنت وعرّفيه إنك المديرة التنفيذية للهويدى وإنك عايزه تقابليه علشان يساعدك فى إنهاء الأوراق عنده.. وكلّميه بدلال لأنه عنيد زى ماقلت لك... لو وصلت معاه هايقولك إعملى قرض تانى بأى ضمان يعجبك ويبقه الموضوع شكله حلو وأنا شكلى حلو ومش هاكون أنا لوحدى اللى يجرى علشان الموضوع يخلص.. خدى رقم المحمول وماتقوليش جبتيه منى.. خدتيه من أى حد

- ولو طلب منى أروح له

- روحى

- فين

- فى أى حته تعجبه.. هوأنا هاقولك.. إنت استاذة.. ماانت عارفه الباقى

- كده ياباشا يعنى مابتحبنيش

- ك.. أمك

.. وفوجئت بالباشا الجميل لأول مرة يقول لى كلمة قبيحة زى دى... لكن كانت كلمة حلوة أوى... زى العسل منه وراجل زى ده يقول لى كده.. دا منتهى النجاح.. أنا فعلا وصلت.. عقبال مايقول لى راجل الإئتمان كده.. كل ده قلته لنفسى وأنا أرتدى ملابسى، وانشغل هو بعض الوقت فى شئونه الإدارية ثم وضع بعض الأوراق فى حقيبته وقال:

- كده خلاص.. كده أوكيه.. ننزل

- ياله ياباشا.. هو إسمه إيه

وقفل بابه وقال متجها إلى باب المصعد وأنا بجانبه:

- إسمه نادر
- مرسى ياحبيبى.. الرقم..
وأخذت رقم محموله وسجلته عندى وقلت وأنا أغادر المصعد خلفه:
- عايز حاجة ياباشا
- خليك على اتصال.. وبلغينى لما توصلى مع نادر لحاجة
- أوكيه ياباشا
.. وعند باب البرج كان كل منا ينصرف إلى مركبته
.. وكانت الساعة تقترب من العاشرة ووجدتنى أهاتف نادر وأنا أجتاز شارع النصر متجهة إلى شارع صلاح سالم.. وكان صوت نادر خشنا أجش حيث رد قائلا:
- آلو مين معايا
- أنا سهير
- سهير مين
- سعادتك أنا المديرة التنفيذية لشركة الهويدى
- شركة الهويدى مين
- بتاع أسامة الهويدى
- مالقتيش غير أسامة.. ماولاد الهويدى كتير.. دا خلّص على البنوك كلها وفى الآخر جايلى
- ياباشا إحنا دلوقتى غير زمان
- طيب عايزه إيه
- عايزه أشوف حضرتك إديني ميعاد أقابلك.. ورقنا جاهز فى قسم البضائع
- ياستى الورق جالى أمال أنا بكلمك إزاى.. لما جالى الورق تذكرت ولاد الهويدى كلهم بس
- بس إيه ياباشا
- ولا حاجة تعالى ونشوف إيه
- إمتى يانادر باشا
- تعال النهاردة بعد الساعة اتنين
- دا يشرفنى يانادر باشا
- مستنيك
- خلاص ياسيد الكل دا لوحده هايشرفنى
- مع السلامة
- باى ياباشا

اقتربت من ميدان روكسى واخترقت الإشارة المتجهة إلى شارع إبراهيم اللقانى.. كنت أنظر إلى ناصورة الميدان ومحل عمر أفندى ثم هانو وجروبى بعدها كان محل إمفتريون.. شعرت بحنين كبير يهز قلبى ولو طاوعت نفسى لنزلت أمشى على قدمى حتى أقبل كل مكان عزيز فى روكسى، لكننى سرعان ماتجاسرت وأحكمت قبضتى فوق عجلة القيادة ومرقت فى شارع الأهرام بمركبتى وأنا أحاول أن أتناسى كل مايشدنى إلى الوراء . كنت مرهقة وكان على أن أصل بسرعة إلى بيتى لأنام بعض الوقت..

.. وقفلت إلى غرفة نومى دون أن يشدنى مقابلة أبنائى وتهليلهم بوصولى ولم أبال بزغى زوجى وهو يلاحقنى بحكاياته عن الأطفال والسوق والغلاء.. قلت لهم جميعا كلمة واحدة.. سيبونى أرجوكم أنا تعبانه.. عندى مشوار مهم.. صحينى ياعبدالحميد الساعة واحدة بالضبط.. إنصرفوا وتركونى بعد أن قفلت الباب.. كنت أشعر بطموح جامح وأن هذا هو زمنى وهذه أيامى ويجب على أن أنقض على كل الأوعية التى تقابلنى حتى لاتظلمنى الوحوش أو يأخذوا منى نصيبى من حقى فى ثروة هذا البلد.. كانت هناك طبقات كثيرة تنمو والشعب ينحفض ويتدارى ويضعف، كان الشعب يعيش لكنه يزحف ويدخل إلى دهاليز الظلام التى كانت جميعها تودى بالجميع إلى الحاجة والفقر والحرمان، وكان الناس جميعا نساءا ورجالا وأصفالا من كل الأعمار ينحرفون وينخرطون فى دوائر النصب والإحتيال والسرقة والتسول ولا مانع عندهم جميعا من الدخول فى أعمال الدعارة والتى باتت أنواعا وأشكالا.. وكان الناس فى كل أطوار معيشتهم متعطشين إلى الحرية والعدل واستنشاق هواء نقى، لكن كان كل هؤلاء جبناء يخافون من الإعتقال ومن كل عسكرى يمسك بندقيه..

.. نمت فى فراشى ساعتين بعدها أخذت حماما باردا ودهنت جسدى بسائل يجعل الجلد ناعما أملسا.. كنت أمتلك أفخر أنواع العطور.. تزينت وتعطرت ومشطت شعرى وارتديت كل ماهو ناعم وأملس ومثير.. ونزلت من بيتى وأنا فى قمة النعومة والسحر والفتنه.. وسترتنى مركبتى ووصلت البنك فى الثانية والربع، وكان نفس الرجل الذى هرول أمامى حتى أوصلنى إلى سكرتارية البنك ومنها دخلت إلى نادر بيه

.. أجلسنى موظف صغير فى ركن الغرفة حتى إنتهى البيه من مقابلة مع أحد العملاء، وكنت أستمع أطراف الحديث.. وانتابنى شعور بالشقة عندما سمعت العميل يقول لمدير الإئتمان... تعال ياباشا شرفنى فى العزبة إنت والأولاد.. تعال فى أجازة.. الفيللا هناك لاستقبالكم أيام وأيام.. أنا منتظر منك أمر.. أشر ياباشا فى أى وقت.. كان العميل قصيرا بدينا له وجه أبيض يكاد الدم يبك منه، وتهيأ لى أن هذا الرجل قد شرب من لبن جاموسة صيبة مقدار دست من اللبن الدافئ كل صباح.. وعرفت فيما بعد أنه ابن عمدة إحدى قرى محافظة الجيزة المجاورة للأهرمات.. عوضى عليك يارب ابن عمده وعنده أرض أد كده وجاى

عايز فلوس بنوك..

كان مدير الإئتمان رجل عادى صاحب وجه جاد تكسوه سمرة أبناء الصعيد ولهجته جنوبية وتكشيرة رسمت على سحنته كأنه ورثها عن أمه وابيه أو جده.. تكشيرة أصيلة لكنه إذا تكلم شعرت أنك أمام رجل خام لايعرف فى الدنيا إلا عمله

.. صافحنى ورحب بى وجلست فوق مقعد كبير ملاصق لمكتبه.. كنت أريد أن لا أضع ساقا فوق الأخرى لشعورى بأنه لن يتم استدراجه بهذه الطريقة وقد يزدرينى، وسرعان ماتلاشت الأفكار وتصرفت بطبيعية ووضعت ساقا فوق الأخرى وتأكدت أنه يرانى وأنه يتفحصنى بعيون جريئة مباشرة كالصعيدى الذى إنبهر واتهبل لما شاهد ميدان العتبة أول مرة فى حياته

بادرته بسرعة قائلة حتى أمسك بلجام الجلسة:

- ماكنتش أتصور إنك أد الدنيا كده ياباشا
- أد الدنيا إزاى.. وقهقه
- الجاذبية والرجولة والشهامة والوسامة
- معقولة.. أول مرة يتقال لى الكلام الحلو ده
- اسمح لى أقولك يابخت مراتك بيك
- كده كتير على أوى.. مراتى غلبانه مابتعرفش تقول أى حاجة
- أناسعيدة أوى النهاردة لأنى عرفت شخصية على مستوى
- ياستى متشكرين أوى.. وأنا برضه أول مرة أقابل واحدة حلوة زيك

.. وكان ينصرف بين الفينة والأخرى فى تقليب أوراقه من ملف لآخر، وبعد ذلك تأكدت أن نظرته لى حادة جامدة كالرجل الذى ينظر إلى إمرأة ويجزع منها. وشعرت ببعض الضيق لأننى أمام رجل صلف خشن ليس له أية هوايات ولايحسن الإنتباه والنظر إلى أى شئ جميل فى المرأة، كان الساعى قد دخل وقدم شايا، وآخرون من الموظفين دخلوا ليوقعوا أوراقا، وكان يتنحنح من وقت لآخر كأنه خفير درك أو فلاح يذهب إلى حقله فى الصباح وينادى على جاموسته أن تمشى خلفه بسرعة.. تأكدت أن الرجل مباشر ولايستحى ولاينفعل ولايحس كأن وجهه مصبوب من شمع وأصابعه مثل أصابع مذراة القمح ،شعرت بأننى أختنق وأضيق بتصرفاته وطريقة كلامه فقلت وأنا أجبر نفسى على أسلوب مهذب معه:

- إنت عارف يانادر بيه أنا جايه علشان إيه
- عارف
- طيب إيه الأخبار... هاتخلص الأوراق إمتى
- شوية.. فين السيالة
- مش فاهمة

- إبعتى شريف
- وأنا مش كفاية
- طالما مش عارفة السيالة
- طيب قوللى يابيه
- خلينى أتعامل مع شريف
- كان نفسى أتعامل معاك
- بصراحة ماليش فى الستات

.. وشعرت بالحرج لكننى حاولت أن أتماشى معه وآجى على نفسى وزى بعضه خليه عليك ياسهير وقلت وأنا أتأمله فى بشاعة لكننى ظللت هذا التأمل بابتسامة باهتة وكأننى أبحث عن عمق ما قاله:

- أنا ياسيدى مديرة تنفيذية بالشركة.. إتعامل مع وظيفتى مش معايا بصفتى ست.. هو أنت يابيه مش عندك شقة خاصة بيك زى كل رجالة البنوك
- ياست سهير إنت عايزه الجد ولاابن عمه
- عايزه الجد طبعا
- ماليش شقق مسخرة زى ناس كتير ماليها.. أنا عندى أراضى والحمدلله فى كل المدن الجديدة.. وعمرى ماشفت ست غير مراتى ولاعايز أشوف
- الله يحميك ويديك
- طبعا الكلام ده مش عاجبك
- بالعكس هى دى حياتك إنت حر فيها وأنا أحترمك علشان ماشى فى طريق مقتنع بيه.. بالعكس أنا أحييك.. لكن يابيه ممكن أسألك سؤال
- اتفضلى
- عندك أرض فى كل مدينة جديدة
- أيوه
- اشترتها من مرتبك
- لأ
- منين.. معلهش ماتتضايقش منى
- من السيالة
- الله يرضى عليك ريحتنى.. وتفتكر إن دى سكة والنسوان سكة تانية
- طبعا السيالة.. أنا باعمل ليك ولغيرك إجراءات للحصول على ملايين..

... الفلوس دى بتطلع من تحت إيدى وإنت وغيرك بيكسب.. هو إنت عايزه تاخدى ملايين

من تحت إيدى وماتدفعيش أتعابى وأتعاب موظفين كبار معاى
- طيب ياباشا الله يكرمك إنت راجل صريح أوى.. باطلب منك طلب واحد علشان خاطرى.. خللى السيالة معايا
- خلاص.. تعالِ بعد يومين وهاتيها معاك
- سيالة المليون كام
- على العموم مبدئيا إنتم هاتصرفوا مليون ونص.. هانصرفهم لكم على تلات مرات
- كل مرة نص
- المليون سيالته خمسين ألف
- يعنى لما آجى آخد النص الأولانى أجيب كام
- عشرين.. وتعالى هنا مكتبى.. هاتيهم فى شنطة جلد
- العشرين بالشنطة
- العشرين والشنطة ده نظامى
- الأولاد مابيشتروش شنط خالص على كده
- تساهيل.. علشان الفلوس تدخلى بيها مستورة
- ربنا يسترك يانادر بيه
- الناس كلها بتاكل.. شوفى أهالينا صرفت علينا أد إيه
- ليك حق يابيه.. آجى إمتى بالضبط
- تعالِ الخميس الجاى ومعاك السيالة رقم عشرين.. على الساعة واحدة ونص
- هاصرف الخميس
- هاتصرفى يوم الأحد.. برضه تعالِ واحدة ونص وهات معاك تفويض مختوم باستلام النص
- الله يرضى عليك جبت من الآخر.. إنت نوعيه جديدة من رجالة البنوك
- ياستى دا أنا أبويا كان راجل غلبان.. وأمى الله يرحمها اتهرت إيديها من بيع الجبنة القديمة
- لموآخذه يابيه هو أبوك وأمك الله يرحمهم كانوا بيشتغلوا إيه
- أبويا كان فكهانى البلد.. وكان أحلى حاجة بيبعها على العربية البلح الأمهات
- عربية إيه
- عربية البلح كان بيجرها بإيده ويلف بيها البلد كلها كل ليلة
- وأمك
- كانت بتعمل جبنة قديمة فى البلد وتبيعها فى سوق الخميس
- لهم الفخر ياسيد الكل.. صلاة النبى جابوا راجل أد الدنيا.. ربنا يحميك.. لكن اسمك

حلو أوى.. نادر دا إسم ولاد الذوات

- أبويا كان عايز يسمينى عوض.. لكن أمى غلبته وسمتنى نادر على إسم صاحب العزبة اللى كانت بتشتغل فيها وهى صغيّرة

- والله إنت بطل يانادر بيه

- عرفت بقه إن لينا حق فى السيالة

- عملت عزبة ولا لسه

- قربت أعمل أحسن من العزبة

.. ورحت فى صمت طويل وهو يقلب فى أوراقه وقاطعته قائلة بلهجة متزنة:

- مش فاهمة إيه حكاية السيالة دى

- أبويا كان راجل غلبان فى البلد.. شوفى بقه بياع بلح.. كان يسهر طول الليل يلف البلد وكان دايما يسيب لى فى سيالة جلابيته شوية بلح فى ورقة أفطر بيهم وقرش صاغ أجيب بيه طعمية

- وفى الغدا كنت بتاكل إيه

- بالكتير شقة عيش وحتة جبنة

- ومافيش لحمة خالص

- كانت السويقة يوم الخميس.. كان كل الناس فى البلد بيطبخوا لحمة أو يدبحوا طيور، أمى على طول كل يوم خميس خبيزة وكرشة، ولما تدبح فرخة نقعد ناكل فيها أسبوع

- الله يكرمك.. إنت جبتها من تحت وده شرف ليك يابيه

- عرفت حكاية السيالة وإن لى حق

- والله إنت راجل زى العسل وصريح وعندك أصل لأنك بتحكى عن حياتك بكل صدق.. إنت جعت كتير أوى يابيه

- وجه الوقت إن الشعب يشبع

- إنت دلوقتى مش من الشعب

- البركة فى السيالة.. هو دا حقى جالى لغاية عندى

- ودلوقتى بتاكل خبيزة بالكرشة

- لأ طبعا

- مراتك منين

- من البلد

- كويسة

- مطيعة وغلبانة وزى ماأقول لها بتعمل ومهدية

- بتلبس كويس
- مافيش حاجة اسمها لبس
- إزاى
- هى أصلا مابتخرجش من البيت.. بتروح السوق تتسوق بلبس عادى جدا والكتير بتاعها تقعد فى البلكونة تشرب الشاى
- إنت يابيه شريحة جاده أوى من الناس ربنا يبارك فى أمثالك
- المهم خلينا فى العملى
- العملى ياريت تحت أمرك
- لأ.. العملى تحت أمر الفلوس
- آجى امتى يابيه
- يوم الإثنين الجاى ومعاك.. وسكت
- العشرين
- وخدى النص مليون
- أنا سعيدة أوى.. سعيدة بيك يانادر بيه
- وأنا كمان
.. وقام نصف قومه وصافحنى بيده الخشنة ..

... وذهبت إلى الشركة وحكيت لأسامة وشريف عن مدير الإئتمان، وإنه راجل جاد ولكننى إستملته ولولا استمالتى وإغرائى له ماكان سيوافق بسرعة ويصرف الدفعة الأولى.. وتهلل وجه أسامة وابتسم شريف فى خبث كعادته.. غير أننى رحت أتكلم عن المخزن وكيف أننا تعبنا كثيرا فى تجهيزه وكالعادة فهم شريف لماذا أتكلم عن المخزن الآن فابتسم وقال لأسامة:

- على فكرة الأرض زى الفل وسهير ماقصّرت

وقال أسامة مهزرا:

- يعنى إنت غنيه وعندك أرض
- ياباشا دى الحاجة الوحيدة اللّى ورثتها عن أبويا
- عايزة إيجار كام
- اللى تقوله ياباشا.. خلينى آخر حاجة

وتدّخل شريف قائلا:

- مش مشكلة بس نتفق

فقال أسامة:

- بكام ياسهير

- إنت اللى تقول ياباشا
- قول ياشريف
.. قام شريف وراح يهمس فى أذن أسامة ثم إنقلب إلى حيث كان يجلس وابتسم نحوى قائلا:
- ألفين كويس
.. وداريت فرحتى وقلت وأنا أمسك بابتسامة عريضة كادت تفرش وجهى:
- اللى عايزه الباشا.. طول عمرى من يوم ما اشتغلت معاكم أنا تحت أمركم
وكان أسامة سعيدا بروحى وأسلوبى الكيِّس فقال:
- من يوم ماجيتى وإنت خير على الشركة
- مرسى ياباشا.. خيرك وخير الشركة سابق
.. ومضى اليوم دون عناء آخر فى العمل، وفى السابعة انصرف شريف إلى خارج الشركة لمقابلة بعض العملاء، وكنت متعبة فطلبت من الباشا أن أذهب إلى بيتى فوافق لكنه قال:
- الليلة لازم تيجى شقة المعادى
- خير ياباشا فيه إيه هناك
- عاملين حفلة لهايدى علشان هتتجوز، وهاتكون أحلام ونادين معانا للصبح
- مش فاهمة
- حفلة الوُداع.. هاتمشى بعد أسبوع وإنت عارفة إن البنت دى غالية عندى
- عارفة عارفة
- طيب وإنت عايزنى ليه يابيه
- ك.. أمك
- ماشى ياباشا مانا عارفة... أنا أقصد كفاية البنات
- لأ ياسهير.. ك.. أمك تانى.. إنت تسمعى الكلام وبس.. جرى إيه ياسهير إنت كبرت ولا إيه
- لأ ياباشا العفو.. تحت أمرك
- طيب هانروح الساعة كام
- هانمشى من هنا حداشر
- أشاورك ياباشا أروّح.. ولا أريّح فى قوضة المكتب.. كنت عايزة أغير هدومى
- لأ روحى نامى فى قوضة شريف
- شريف جاى
- شريف ومصطفى المعرّص والتلات بنات وإنت.. عايزه إيه كمان يابنت.. وكان يريد أن

يشتم، وكان يبدو عليه آثار الشرب أو السطل من كثرة تدخينه سجائر الحشيش
ولاحقته بابتسامة باهتة وقلت له وكأننى شيئا يملكه بعقد أبدى:
- ياباشا إنت تأمر.. لكن داخلى كنت أريد أن أقول، يابن الكلب مالكش دين ولاملة.. العيب مش عليك.. العيب على أهلك اللى ربوك يافاجر.. وقضمت حزنى فى داخلى عما آل إليه حالى وخزنت حقدى ولعنتى على هذا الفاسد الذى لايستطيع أحد أن يوقفه وقلت ،وأنا أحاول بما أملك من بقية صبر:
- أروح ياباشا أريّح
- روحى
.. وانتويت أن أزدريه واحتقره.. ولكن كيف أحتقره وأنا حقيرة،، كيف أحتقره وأزدريه وأنا رفيقته.. لكن ياسادة مااعترى نفسى حتى وصلت إلى قوضة شريف ولم أدر بأحد قابلنى فى الطرقة الطويلة.. غير أننى سمعت التحية من أكثر من شخص وكنت تائهة ولم أرد على أحد تحيته.. وكالعادة كانت أحلام خلفى تلاحقنى حتى دخلت الغرفة وارتميت على الكنبة وأنا أشهق وقلت لها متلهفة:
- إقفلى تربسى
كنت أريد أن أزعق ولكن إلى من أزعق.. إهدى ياسهير مالك.. وراحت أحلام تقبلنى قائلة:
- مالك ياحبيبتى متضايقة من إيه.. ونامت على صدرى برأسها وبدأت تزرف دمعا رقيقا من مقلتيها وفجأة كان الذى برأسى من أسى قد ذاب، ورحت أمسح دموعها فى رقة مما جعل أحلام تبكى بحرقة وقالت:
- هاعمل إيه إذا كانت الرجالة سلّمت
- إزاى
- خطيبى عارف مرتبى مايجيبش ألف جنيه وبساعد أهلى... يبقى إزاى أديه ألف وألفين فى الشهر وساعات تلاتة علشان يكمل حق الشقة وبعدين وضبها.. وكل ماأديه يبوس الفلوس.. وكل ماأقوله هاسهر فى الشغل ويمكن أبات مع صاحباتى يقولى وماله مش شغل
- الموضوع ده بقه ظاهرة عمت المجتمع كله.. ماهو ده الإنهيار
- مين اللى جابه
- التيران من إتنين وخمسين حتى النهاردة وحرامية ورا حرامية ماسكة البلد، والبلد بتتاكل من فوق وبيرموا العضم لينا، وياريت عضم فيه حاجة.. وعلشان كده إحنا الناس من جوه بنبيع نفسنا للى يسوى واللى مايسواش
- إحنا بنبيع أغلى حاجة

- ياروح مابعدك روح.. يعنى أشوف ولادى جعانين وأقول أغلى حاجة.. كويس إن فيه حاجة نبيعها
- يعنى أنا أحسن من غيرى
- طبعا.. لكن إنت مرافقة مين.. أسامة ولا شريف
- أسامة بيقول إنى عبيطة
- إزاى
- بلدى مش عاجباه
- وشريف
- برضه لأ.. شريف بيدينى فلوس علشان بانقل له أخبار الشركة كل يوم
- لكن مافيش حاجة
- لأ مافيش
- أمال ماشيه مع مين
- كل واحدة فينا متسيبة على شوية عملاء
- ونظامهم إيه؟
- أجدعهم ربعميت جنيه فى المرة
- لكن إنت تسوى أكتر من كده
- طيب فين دلينى ياأبلة.. عايزه أتجوز
- وبعد ماتتجوزى خلاص هاتوبى
- إذا جوزى كفانى خلاص
- وإذا ماقدرش
- هاعمل زى الستات مابتعمل
- طيب وأسامة غرضه من حفلة هايدى حاجة غير الهيصة
- لأ ياحبيبتى.. دا قال لها اتوضبى علشان إنت ليه الليلة
- وهى وافقت
- وافقت دا هاتموت من الفرح.. كان نفسها فيه من زمان.. هى فى البيت من الصبح علشان تتوضب.. هايديها نقطة كبيرة
- وليه مصطفى جاى.. دا حتة موظف
- ده المعرّص اللى مش باين.. هو متعين محاسب.. لكن من يوم ماجه ماتلاقهيش يوم فى الشركة
- بيروح فين

- بيجيب لأسامة نسوان من البلد
- مش كفاية اللى هنا
- بيحب نسوان البلاد أوى
- وبرضه بفلوس
- كله بفلوس ياحبيبتى.. دا البلد من شرقها لغربها ماشيه كده

.. وكان الغريب والمثير أن أحلام تلتصق بجسدى بشكل غير طبيعى كأن رجلاً يتحسسنى وكانت أصابعها كأنها تلتقط أشياء من فوق الأماكن الحساسة بجسدى ولاأخفى أننى تركتها واستسلمت لها لأنه كان إحساسا جديدا من الإثارة فقلت لها وأنا أقهقه:

- إنت عايزه إيه بالضبط ياأحلام
- عايزاك ياأبلة.. دا إنت حلوة أوى
- يعنى إنت مش عاتقة رجالة وستات
- بصراحة من يوم ماشفتك وأنا هاتجنن عليك
- ماقلتيش ليه
- مكسوفة منك أوى باعتبرك من طبقة عالية على أوى
- وهىَّ الحاجة دى ليها دعوة بالطبقات
- على فكرة أبويا كان ميكانيكى سيارات
- وأبويا كان مدرس، الإتنين من الطبقة المتوسطة
- ممكن أتجرأ شوية
- عايزه إيه مانى سايباك
- ممكن أقلعك هدومك
- قلعى.. إعملى زى مابتعملى
- ربنا يخليك ياحبيبتى.. الليلة أحلى ليلة

.. ولا أخفى عليكم.. كانت أحلام فارعة الطول، مشدودة الصدر، صاحبة منكبين منحدرين، وكان لها جسد رشيق، وبشرة خمرية صافية، وأسارير ترشح أنوثه.. وعينان نجلاوان كأنهما قمر ينير الليل ثم فجُر غنىَّ بالندى وصبح يشرح صدر كل من يحبون الحياة ويعشقون الجمال، استسلمت لها ولسحر جمالها وفنية ممارستها الغريبة كأمرأة، وكأنها محترفة منذ أن كانت طفلة ..

.. وفى الحادية عشرة ركبت مع شريف عربته الشيروكى وكانت أحلام تقعد فى المقعد الخلفى وهى دايخة وراحت تضحك وبادلها شريف ضحكاتها وكان يقول:

- هو فيه إيه.. إنت مبسوطة أوى يابت، إنت شاربة حاجة

.. وعندما إخترقت المركبة ميدان التحرير متجهة إلى الكورنيش أخذت أحلام تحكى لنا عن مصطفى جلاب النسوان وكيف أنه يروى لهن حكاية كل إمرأة يأتى بها للباشا.. وكأنه يقوم بعمل كبير لصاحب قدر عظيم..

.. وبدأت المركبة تدخل الكورنيش بعد محطة البوابة وقلت لشريف بلهجة مندهشة:

- ماهو دورى فى هذه الليلة

وابتسم ابتسامته وطفق يقول:

- اتفرجى وخلاص.. مش هو عايز كده.. لو كان علىّ أنا راخر ماليش دعوة

وقالت أحلام:

- أسامة بيه مع هايدى.. وشريف بيه مع مين؟

وضحك شريف وقال:

- أنا مع ست الكل هانرقص بس

فقالت أحلام غيرانه على صديقتها:

- سهير باشا من حقى ماحدش يقدر ياخدها منى غير اللى يتخفى اسمه، لكن أنا عارفه إن شريف بيه جميل هايقولّى اتفضلى

وضحك شريف ملء فيه وقهقه طويلا وقال:

- هو إنت وصلت لسهير

وقلت كأننى اشتريت شيئا رغبت فيه:

- هى أحلام أستاذة فى فنها.. على فكرة ياشريف أنا كنت باسمع عن الموضوع ده، وكنت باعمل زى الستات باقرف منه دون أن أجربه، لكن بصراحة حلو أوى مع أحلام

وقال شريف وهو يهز رأسه:

- يعنى ياأحلام هاتبوظى علينا حياتنا.. وأردف وهو يمسك بساقى:

- بالله فيه حد يسيب راجل زيى ويروح للزفتة دى.. على العموم أنا حاجز من دلوقتى وأنا هاعرف أرمى أحلام على أسامة إزاى ..

.. ورحنا جميعا فى ضحك متواصل حتى وصلنا إلى البرج بعد كوبرى مستشفى النيل بدرواى بقليل وكانت أحلام طول الطريق تعبث بشعرى وتندمج وكنت أستسلم لها ..

.. وفى الشقة وجدنا سيدتين من الشعب تضعان أوانى الطعام فوق منضدة غرفة السفرة، وكانت أبواب الحجرة مشرعة على مصاريعها، وجلسنا بعض الوقت فى الصالة، ثم قام شريف وتركنا ليجلس فى الشرفة وحده، وبعد قليل وصل مصطفى ومعه فتاة جميلة من الريف ترتدى جلبابا أنيقا طويلا ويزين صدرها سلسلة ذهبية سميكة.. جذابة رشيقة ملفوفة بيضاء تبتسم من حين لأخرى ابتسامة تمتلئ ثقة وتحد، وقلت لنفسى ياهادى.. ولما بلغت الساعة منتصف

الليل وصلنا الباشا يحتضن هايدى العروس، ودخل بها مباشرة غرفة نومه.. ولم يمض نصف ساعة حتى وصلت نادين ومعها أحمد المحامى أحد نصابى صاحب الشركة ولكن بالقانون.. ومرّ قليل من الوقت وقام شريف يطرق باب غرفة الباشا فى رفق، ويبدو أن الباشا اقترب من الباب ليسأله شريف عن البرنامج فأخبره الباشا بأنه لن يلتقى إلا بهايدى وأنها عروسه طوال الليل، ولشريف أن يعطى لكل واحد دوره كما يتراءى له.. وعلى الخدم أن ينصرفن الآن، وكم كنت أتمنى أن يرى عامة الشعب مافوق منضدة الطعام من بذخ، خروف مشوى، ورومى وحمام وبط، هذا غير المحشيات والرقاق.. كميات كبيرة لايستطيع خمسون رجل إلتهامها.. ترى أين يذهب باقى الطعام.. مأدبة عشاء كما فى قصور الملوك.. يتناول بعضها عابثون زانون فاسقون مثلنا وهى كلها من صميم أموال البنوك المنهوبة، والبلدية الكريمة مازالت تطارد الفقراء الضائعين الذين يبيعون أى شئ على الرصيف حتى يعودوا آخر اليوم بعشرة جنيهات حلال قد لاتكفى لشراء خبز وفول.. لم نجلس على الطعام جماعة وكان كل واحد منا يذهب إلى المنضدة ليأتى بما يريد فى طبقه ثم يجلس فرادى بالصالة مع نفسه حتى يشبع.. وكنت أرى بأم عينى أن عيون شريف قد ملأتها الفتاة الريفية وهمس فى أذن مصطفى الذى كان يقعد مقابلتى قائلا:

- اسمها إيه
- نرمين
- جبتها منين
- من البلد
- باين عليها نضيفة أوى.. هى متعلمة
- واخدة كلية الإعلام
- وأهلها فين
- أبوها رئيس مجلس القرية
- وهو عارف إنها جايه معاك
- قلت لأبوها إن أسامة بيه عايزها علشان يشغلها
- ومش مهم تبات بره
- المهم عنده إن بنته تشتغل وتديه كل شهر قرشين يقدر بيهم يزق فى تربية ولاده
- بس دا رئيس مجلس قرية
- ماهو مابياخدش حاجة
- دا الأرياف زمان كانوا حاجة تانية
- دلوقتى أكتر من أهل البندر، عارفين طريقهم كويس

- طيب أنا عايزها
- قبضني يابيه.. وأنا مستعد أمشي دلوقتي وآجي بكره الضهر آخدها
- لأ عمولتك خدها .. لكن أجرتها أنا أديها لها في إيديها
- طيب ياباشا هات عمولتي
- خد ميت جنيه
- ربنا يخليك ياشريف بيه.. آجي آخدها إمتى
- خليك نايم هنا .. إترزع في البلكونة
- خلاص يابيه طالما فيه مكان خلاص

.. وقام مصطفى ليهمس في أذن نرمين عن الحكاية، ابتسمت في سخاء نحو شريف بيه فقام شريف وجلس بجانبها وهو يطرى أذنها بأحلى كلمات المدح والإعجاب.. هزت الفتاة رأسها في سعادة وقالت في دلع لشريف:

- أنا تحت أمرك.. آأمرني

.. أطمأن شريف إلى أن مصطفى اترزع في البلكونة، وأنه يجب عليه أن يتخلص من أحمد المحامي فقال له بعد أن نادى عليه ليجلس بجانبه:

- إنت جاي ليه
- جايب نادين
- خدها وروح مش عايزنها .. ولاعايزينك ياأحمد
- طيب ياباشا تحت أمرك.. عايزين أجرة التاكسي
- خد ميت جنيه كفاية
- كفاية ياباشا.. بس ياريت تقول للباشا إني عملت اللي عليّ
- طبعا هاقوله ماتشلش هم

.. وكان شريف كالمسطول لايدرى بي ولانظرات العتاب والإشمئزاز التي أرسلها نحوه.. إتخبل بالفلاحة، هو رماني وكأنه لايراني ولما تعبت من النظر إليه في عتاب.. شعرت بأنه لا كرامة لي، وأن هؤلاء الناس جميعا لامبدأ لهم إلا إلتهام الجديد من النساء، وأنهم كما تعودوا على سرقة أموال البنوك، فإنهم لا يشبعون من سرقة النساء طالما أنهم ينهبون أموال شعب غائب عن الوعي، وكانت أحلام تبادلني ماأشعر به، ولم تمر دقائق حتى إحتضن شريف نرمين وأخذها في غرفة نوم أخرى، وبقيت أنا وأحلام.. منتهى قلة الأدب، وامتعضت واختنقت الكلمات في فمي.. وأمسكت أحلام بساقي قائلة وكأنها تواسيني:

- إحنا مش هانغلب ياأبلة.. ونزعل ليه
- شوفي الندالة

ـ مش غريب على ناس زى دى.. وبعدين مانقدرش نتكلم ياحبيبتى.. إحنا بنشتغل عندهم وبناخد فلوس.. أنا عن نفسى قربت أعمل بيتى.. هازعل ليه... مش حققت هدفى.. ماتزعليش ياأبلة هو إنت هدفك إيه.. حب.. مافيش حب من زمان فى البلد دى كل شئ عرض وطلب

... وتفتقت الكلمات من فمى كما يتفتق الثوب عن الجسد، وتعريت قائلة:

ـ كنت فاكره إن شريف ده عنده دم وذوق ومحترم

ـ علشان خد الفلاحة ودخل وإنت قاعدة

ـ يعنى

ـ ماقلنا بقه الكل بيلعب بالورقة الرابحة الجديدة، على عينك ياتاجر.. ياستى سيبك بقه من المشاعر والاحترام والعتاب

ـ هوّ زى أسامة بالضبط

ـ أسامة مايجيش فيه حاجة.. دا الراس المدبرة لكل شئ فى الشركة وبيت أسامة.. دا بيدير بلد وهو قاعد

ـ يعنى إنت والبنات عارفين حاجات كتير بقه

ـ شريف ده باع مراته.. دى معناها إيه.. ضحّى بمراته علشان أهدافه المالية.. بيحقق كل أهدافه المالية والنسائية كمان.. مافيش ست إتجوزها أسامة أو رافقها وخدها بيته إلا وعلى علاقة بشريف.. إنت عارفه أغرب حاجة.. إن مرات شريف هى اللى بتهيأ نسوان أسامة علشان يأكلهم شريف واحدة ورا واحدة.. إنت عارفة ياأبلة الملايين اللى جابها شريف لأسامة من البنوك خد نصها على الأقل.. شريف ده راجل حركات ومخ كبير أوى وقادر يعمل أى شئ عايزه.. وعلى فكره هو اللى عمل أسامة كشخصية ومنظرة وهيلمان كل ده رسمه شريف علشان يوصّل أسامة إلى الغرور الكبير وإن مافيش حد زيه فى البلد.. مستغل سُكر وسطل وتوهان أسامة برضه وجهله لأنه مش متعلم

ـ ياه.. على فكرة أنا ست خايبة

ـ لأ مش خايبة.. إنت عايشة فى عالم كان.. العالم ده ماكنش موجود فى مصر قبل كده وأى واحدة ست دخلت العالم ده تبقه خايبة لو دورت على حب أو كرامة.. الخلاصة فى الدنيا دى أوى.. خد وهات.. مافيش حاجة اسمها حب.. فيه حاجة اسمها اللى تملكه إلعب بيه، وكويس أى ست حلوة ملكة فى الجوده.. تدى وتاخد.. يغنى المهم فى الآخر تقبض.. وماتسيبش يوم يعدى من غير ماتدى وتقبض.. ويابخت اللى تقع فى شركة نظامها كده

ـ مش فاهمة.. مش معنى شركة

ـ لأن المدينة واسعة وشوارعها مليانة مشاكل.. إحنا فى الشركة دى.. أسامة وشريف

والعملاء .. كلهم عارفينهم مافيش لوصة وحاجات كلها مضمونة.. إنت عارفة أنا عايزه إيه

- عايزه إيه

- إن الشركة دى تستمر خمس سنين كمان أكون فيهم وصلت

- أنا تعبانه أوى ياأحلام

- تعالِ ناكل

- كلت

- تعالِ ندخل جوه

- فين

- فى قوضة نوم تالتة

- مش عايزه أنام

- إنت نسيت أحلام ياأبلة.. والله أنا أحلى من الرجالة دى

- أبدا.. دا إنت لذيذة أوى ياأحلام.. بيك بأنسى الوساخة دى

- ولسه.. هانسّيك العالم كله

.. .. وأخذتنى أحلام التى تصغرنى بعشر سنين.. أخذتنى من يدى فى رفق كأنها تخاف على أن أسقط.. أخذتنى.. ودون أن أدرى خلعت ملابسى ونسيت العالم حولى.. بعد هذا اللقاء بدأت أفكر فى شئ آخر يأخذنى إلى معان أخرى فى الحياة.. وكأن هذه الفتاة أحلام جاءتنى لترحمنى من أفكارى المغلوطة فى العالم المجهول.. كانت الساعة قد تجاوزت الثانية والنصف، ولم نخرج إلى الصالة لنراقب الآخرين، وضمتنى أحلام بذراعين مرتعشين ورحت أبكى فى صمت وهى تربت على صدرى دون أن تتفوه بكلمة ..

... ومر يومان بعدها ذهبت إلى مدير إئتمان البنك، إبن بياع البلح.. وأخذت معى السيالة التى اتفقنا عليها.. وتم الصرف فى آخر اليوم، وجاءنى بودى جارد ليحرسنى ويحمل الحقيبة التى تحتوى على نص مليون وكالعادة عندما وصلت إلى الشركة قبلّنى أسامة واحتضننى وكاد يحملنى من فوق الأرض، وكان شريف كعادته يبتسم ويتفرس الحقيبة، وبعد قليل من الصمت كان كل من ثلاثتنا يفكر فيما يأخذه من هذه الدفعة، دخل علينا الساعى يقدم شاياً، بعدها أخرج شريف ورقة صغيرة من جيبه قائلا :

- هذه هى الطلبات الضرورية.. الرواتب والعهدة ميه وعشرين ألف

وقال أسامة :

- وفيه حاجة تانية

- عهدة المصنع.. عايزين قطع غيار للمكن وحاجات كتير أوى الشغل متعطل عشانها

فقال أسامة :

- هو ده مش من العهدة
- دى عهدتى أنا.. لكن عهدة المصنع حاجة تانية وإنت عارف ياباشا.. إنت نسيت
- يعنى كام ياك.. أمك
.. وكان مش مبهم شريف يتشتم.. ابتسم.. المهم هؤ فى الآخر ياخد الخمسين ألف عهدته.. لكنه قال وهو يمثل تحمل شتيمة وقلة أدب الباشا:
- ياباشا شتيمتك لى عسل.. المهم فى الآخر المصلحة العامة تمشى.. المهم ماتقولش كده أدام حد غير سهير.. مش مشكلة هو بتاع أمى مش هايخس
.. وضحكنا فى صوت عال، وقام شريف يتحف الباشا بسيجارة محشوة وكافأه الباشا وهو فى منتهى الإنبساط قائلا مرة ثانية:
- برضه ك.. أمين أمك
.. وقال الثعلب وهو يقعد على مقعده وابتسامة عريضة تفرش وجهه:
- إحنا بتوعك ياباشا من زمان.. أمى ومراتى وأنا.. دا المركب كلها بتاعتنا
فقال الباشا وهو يسحب أنفاسه بشراهة من سيجارته:
- طيب قوم وزع الفلوس
- كل مرة وإنت بخير ياباشا
وراح شريف يضع البكاوى فى رصات ذات فئات على الكنبة واستغرق ذلك وقتا ثم أخذ يرص رزما أخرى منفصلة بعدها قال:
- خمسة وسبعين ألف للرواتب.. خمسين لعهدتى.. وبعدين عمولة سهير كام ومد رأسه نحو أسامة ثم كرر ثانية.. كام ياباشا؟
وفكر أسامة دون أن يكون فى رأسه شئ ثم قال وكأنه يهمس نحوى:
- كام يا سهير..
- عشرين على الدفعة دى يا باشا..
وهز رأسه وابتسم وكانت رأسه تترنح وقال فى كلمات متهاوية:
- سامعها يا وسخ عشرين وتستاهل أكتر من كده..
.. وابتسم شريف وكأنه يقول مش مهم.. أحلى حاجة عهدتى خمسين.. إشتم للصبح ياخايب مصر.. ياخسارة على الشرقية اللى جابت واحد زيك..ثم حمل عشرة بكاوى فئة الألفين وحطها أمامى فوق منضدة صغيرة وقال وهو يقهقه:
- والنبى إنت ملك
- مرسى ياحبيبى
.. كان الدخان كثيفا فوق رأس أسامة، وكان شريف يقصد أن يغيبه عن الوعى فكلما

انتهى من سيجارة ناوله أخرى.. وقال أسامة وهو ينفخ الدخان فى شراهة:
- وأنا .. وأنا صاحب كل ده.. باقى كام ياللى خربتها
- ولايهمك ياباشا .. باقى الخير كله
- كام
- تلتمية خمسة وخمسين
- حطهم فى الشنطة
- لمين ياباشا
- وإنت مالك
- أنا متضامن معاك فى التوقيع على الشيكات
- ك.. أمك عندك إيه علشان يحجزوا عليه.. إنت متضامن كشكل.. لكن الرهن عندى كله ياك.. أمك
- طيب معلهش ياباشا .. طمنى إحنا برضه سوا
- تلتميه بقية حق المطعم
- المطعم ماجابش حاجة والناس بتسرقه
- طيب دا موضوع تانى بس نخلص من حقه... وتعالى معايا البيت شوف الباقى هايتوزع إزاى ماإنت عارف
- والخزنة ياباشا .. طيب نغذى الخزنة بحاجة.. الخزنة على البلاطة.. معلهش ياباشا .. عيد توزيع الباقى تانى علشان خاطر كله يمشى

.. واندفع شريف نحوه وراح يقبل رأسه بعدها راح أسامة فى ضحك متواصل.. ضحك لا ينقطع.. ضحك مساطيل مدخنين الحشيش.. ورحت أنا وشريف ننظر إليه فى دهشة حيث إحمرت عيناه وتورمت وبدأ يعطس عطسا متواصلا وأصبح وجهه الأبيض أحمرا كحبة الطماطم، وكان جرس التليفون يدق ولايرد عليه، فيرفع السماعة ثم يرزعها مكانها ودخلت علينا أحلام وتقدمت نحوه وهمست فى أذنه ثم خرجت بعد أن لوحت لى مبتسمة وهى تلعب بحواجبها .. ونزل عليه صمت مقبض كأنه سهم أسكته، وكان شريف كعادته يحاول إحترام كل سلوك يصدر منه. فراح يتأمله ثم قال:
- فيه حاجة ياباشا
- كلكم ولاد وسخة
- إزاى ياباشا
- بنت الزلمة عايزه فلوس.. إفتكرت دلوقتى.. هى اللى كانت بتتكلم
- طيب كلمها يمكن عايزه حاجة تانية

- أكلمها

وهاتفها.. بدأ وجهه يحمر ثانية وهو يقول:

- إنت عارفة واخدة كام دلوقتى.. أكتر من مليون جنيه فى سنة واحدة

ولم ندر ماذا كانت تقول له... لكنه بعد هنيهات رزع السماعة كعادته اليوم وقال وهو يشخط

- ياشريف... خد ميه بكرة وحوّلها لأبوها

- لأبو مين

- فنانة العرب طيب نعيد التوزيع ياباشا.. اسمح لى أقول.. حسابها تقل أوى

- بحبها ياشريف

- كنت سيبها فى الشوارع

- قلت لك بحبها ياحمار

- وبعدين يعنى هى أبدى من المصنع.. هو إحنا ياباشا بناخد فلوس من البنك علشان نبعتها للدول العربية التعبانة

- الدول دى تعبانة إقتصاديا وفقرانة آى لكن عندها أحلى نسوان وأحلى فن

- الشيخ البعيد سره باتع.. بلدنا مليانة.. على الأقل الفلوس بتاعتنا تتصرف فى البلد.. يعنى إحنا فقرانين وبنزوّد نفسنا فقر

وقلت مازحة وأنا متأكدة من أنه سيشتمنى بكلمات قبيحة قلت وأنا أتقدم نحوه واحتضنه بكفى يدى من خلف مقعده:

- يعنى الستات دى أحلى من ستات مصر فى إيه.. أحلف لك ياباشا كله زى بعضه.. وتحرر من يدى وقال وكأنه يأمرنى وبشئ من السفالة قال:

- أقعدى ياقحبة... مكانك

وهززت رأسى وتبرمت شفتاى ورحت أتأمل الأرض من تحتى وأنا نصف خجلة وكنت أريد أن أقول لشريف لما رفعت وجهى نحوه:

- شوف التفاهة.. أخيب ناس وأحط ناس فى البلد معاها الفلوس وشوف بتتصرف إزاى.. ياريت فى البلد.. طيب إنت فاجر.. إفجر فى بلدك دا البلد مليانة قحايب..

وراح شريف يهز رأسه نحوى، ثم التفت إليه وقال وهو ويمسك بتلابيبه:

- طيب ياباشا تأمر بإيه

- خد ميه بكرة وحولهم من البنك.. هو الدولار بكام

- بخمسة وربع

- حاضر ياباشا والباقى

- حط خمسة وخمسين فى الخزنة.. مبسوط
- والباقى
- متين للمطعم
- حاضر ياباشا.. تحت أمرك

..عدت إلى بيتى هذا اليوم وأنا فى أشد التعب.. وجدت أبنائى يغطون فى نوم عميق، وعندما كنت أجوب الصالة لأقضى حاجياتى بها.. رأيت ورقة كبيرة مكتوبة مثبتة بدبوس مكتب فوق ترابيزة السفرة.. إنها خط عبد الحميد وبتوقيعه ورحت أقرأ بيد مرتعشة:

..كل شئ له نهاية يا سهير.. أنا زهقت وعايز أعيش لوحدى والأولاد كبروا ويعرفوا يروحوا المدرسة لوحديهم على العموم أنا إخترت حياة تانية بعد ماكل حاجة حلوة جواية خلصت وانتهت، كنت مضطر أسيبك تختارى حياتك ومضطر أستحمل وأعيش ديوس علشان العيال والأكل والحياة زى ما رجالة كتير بتعمل فى البلد والحمد الله ماكنتش لوحدى دى كانت ظاهرة إنتشرت فى البلد بشكل رهيب من أول التمانينات وحتى الآن وأصبح شريحة كبيرة فى المجتمع عايشه بالشكل ده ومعظمهم من الطبقة الوسطى على فكرة أنا راجع تانى أعيش فى عين شمس إشتريت محل عملته قهوة وأتجوزت واحدة قهوجية برضه على فكره إشتريت المحل من فلوسك .. أنا بحرر نفسى لكن بعد إيه.. وهو دا تحرير.. تحرير حياة كلها من فوقها لتحتها فلوسها كلها حرام فى حرام يعنى أنا بَحرر نفسى بفلوس حرام طيب أجيب الحلال منين دلوقتى لكن فى الحقيقة هو مش تحرير ولارجولة ولاكرامة هى محاولة لبدء حياة جديدة لوحدى يجوز تعبت من عيشتى دى وإخترت واحده غلبانة من تحت لما أطلبها ألاقيها طيب قوليلى فى الأربع سنين اللى فاتت عاشرتك كام مرة، مرتين بضرب الجزم.. أنا تايه ضاع طريقى فى البحث عن الحلال وعن الشرف وعن العمل الحقيقى، يمكن ألاقى حاجة من دول على القهوة.. وأنا متأكد مش هلاقى أى حاجة، أنا كنت عارف كل حاجة وساكت وعلى فكرة لو فيه محكمة ضمير تحاكمنى، محكمة أخلاق إذا كانت المحاكم العادية ضيَّعت حقوق الناس، أقسم بالله مابقاش فيه صح ولا صحيحة فى البلد دى.. على العموم أنا مش هادّى دروس فى الأخلاق، رغم أننى عرفت المغطى فى البيوت وعند التيوس، الموضوع باختصار عبودية جديدة للمجتمع بدأت من خمسين سنة ودلوقتى بقت قمة العبودية وكلنا مانقدرش نتحرر طالما بعنا كل شئ علشان الفلوس اللى حرمنا منها السادة اللصوص.. والله مافيه حد يقدر يحرر حد. ولا البلد دى هاتتحرَّر إلاّ لما ربنا يجيب ناس جديدة غيرنا، بس الأول يجيب ليها زلزال علشان يبنيها بعد كده على نضافة، أنا آسف طوّلت عليك.. المهم كده حلو أوى.. وأنا مستعد أطلقك فى أى وقت لوحبيت، إنت بالنسبة لى أغلى حاجة فى الدنيا لأنك الإنسانة اللى أنقذتينى من أغلال البطالة وماخليتناش

وماخليتناش ننزل الشارع، عملت مع بيتك مبادرة مافيش ست تعملها.. أقصد فيه ستات كتير ماعملتهاش لكن غالبية الستات عملتها.. المهم كفاية كلام ورغى وفلسفة.. إحنا كلنا منتظرين الفرج.. وأنا تحت أمرك طول العمر لكن سيبينى شوية أعيش براحتى.. سلام ياغالية. عبدالحميد.. الغلبانُ..

.. كنت قوية لا أبكى إلا على شئ قوى، وبكيت لأن عبدالحميد يعترف ويفصل حياته ويريد أن يستريح بكيت لأنه مشى من البيت واعترف بالحقيقة، ولأنه اتجوز واحدة قهوجية وسابنى أو هايطلقنى.. شوف الحال مهندس يتشوى فى البلد دى.. مهندس ينحدر بهذا الشكل ويتجوز قهوجية، كإن كل واحد ساب وجوده الحقيقى لأنه اتلوث وبيشوف وجود تانى يلبسه، زى مايكون كل واحد بيغير جلده، ماشى.. كل الناس تاهت ونزلت من بيوتها لبيوت تانية، كل الناس راحت سكك تانية بعيدة عن الطبيعة وبعيد عن الحقيقة، تقريبا الناس لقت الحقيقة والعدل والحرية.. الكلام عنهم مابيفدش فراحت تعيش علشان أقل حاجة تاكل.

المهم ياسادة بسرعة أتيت بسيدة كانت تبحث عن عمل تساعد به زوجها فى تربية الأبناء.. سيدة ريفية صغيرة السن ترتدى جلبابا أسوداً بسفرة.. سيدة نظيفة جميلة ساذجة فلاحة لاتعرف القراءة ولا الكتابة.. تساعد زوجها الذى يعمل سائقا فى شركة قطاع خاص.. أتتنى بها نجية شقيقة زوجى.. الخلاصة ياسادتى أنقذت هذه السيدة لأنها جميلة حقا ممكن يخطفها الذئاب فى أى وقت وهى غير مسلحة بأى سلاح تقاوم به خداع المدينة، وهى محتاجة للجنيه الواحد فى زمن لا يشترى الجنيه رغيفين.. وحددت لها مرتب مثل الذى كنت أتقاضاه من الهيئة، وحلت الريفية محل عبدالحميد فى رعاية الأبناء وكل أعمال البيت والسوق بدرجة عالية.. ومرت أيام أخرى فيها حاولت محاسبة نفسى وأن أتجه إلى طريق آخر خاصة أن البرج الذى يشرف على بنائه الشيخ سعيد قد أوشك على الإنتهاء وأنه سوف يدر علىَّ دخلا كبيرا.. وفى مرة وأنا أمر على تشطيبات البرج أخبرنى الشيخ سعيد بأن صلاح زكى وزوجته العجوز قد تركا المكان وأن صلاح فتح كوفى شوب بشارع جسر السويس، واتفقت مع سعيد على أن نذهب إليهما فى وقت لاحق... واشتعلت النار فى صدرى.. هل إستغنى عن العمل معى، أأخذته العجوز بعيدا عن تهجمات الشيخ سعيد عليها، أشكى لها صلاح عن أنه متضرر نفسيا من العمل معى فبادرت العجوز بهذه المبادرة، على العموم سوف أذهب إليه، إننى فى كل الأحوال لا أستطيع أن أمسك بأحد ليعمل معى، إذا كان زوجى ابتعد عن حياتى، ومرت الأيام وأنا لا أذهب إلى الشركةإلا قليلا بحجة أننى تعبة، وفى هذه الأيام قمت بتفصيل عدد من الجلاليب السفرة السوداء التى ترتديها نساء الريف، جلاليب على أعلى مستوى من الحياكة والموديل وأفخر أنواع القماش وكانت الخيَّاطة من الشرقية والتى جلبتها لى فاتن هذه السيدة الريفية التى تعمل عندى، ولكن ماالذى جعلنى أقوم بتفصيل هذه الجلاليب بهذه التقاليع، هذه

التقليعة لسيدات المنصورة، وهذه لسيدات المنوفية وهذه لسيدات الشرقية وهذه للقليوبية.. حتى أصبح لدى عشر تقاليع وكان لابد لى أن أعود إلى الوراء إلى أى شئ قديم أصيل، ولو كنت استطيع أن أجعل من تراب الأرض قماشا لملابس لفعلت وساعدنى على ذلك فاتن حيث كنت أجلس معها بالساعات لتحكى لى عن الريف وعاداته وعن حياتها وزوجها وابنتها الصغيرة، حتى جاء يوم لم أعد أذهب فيه إلى الشركة، وكنت أذهب أجلس أمام البرج فوق مقعد فوتيه جلبته من بيت عين شمس، وكان الشيخ سعيد دائما هو الخادم الأمين، اشترى شيشة وفحما ومعسل تفاح وقصعة يشعل النار فيها ويجلس تحت قدمى ليعد لى طلباتى من شيشة وشاى فوق نار القصعة وعندما أجوع يذهب إلى صبحى الكبابجى ليشترى الكباب، كنت أتأمل البرج.. إحدى عشر طابقا وروف أعلى سطحه.. وهذه الكافتيريا الضخمة التى يجهزها العمال والفنيين لتجلب كل زبائن مصر الجديدة وزبائن وأهل عين شمس التضاف، وكان آخر يوم يتمحلس هذا الشيخ بكل حركات الرجالة الكهينة حتى يكاد يقبل قدمى حتى أرضى له وأذهب معه إلى بيته ويفعل كما كان يحدث من قبل، وكنت أهوى التفرج عليه فأقول له.. إضرب نفسك بالجزمة وأنا آجى معاك.. ويفعل هذا الشيخ الكهين.. ويقول أهو ياستى علشان تعرفى غلاوتك عندى.. ويمسك بحذائى ويبوسه ثم يضرب رأسه به حتى أقول له كفى.. وفى الآخر لم أكن أذهب معه، وكنت أسعد سعادة لا حد لها حينما أنكل بكل رجل أعطيت له نفسى وكان هذا أول رجل، تذكرت حسن عيد أول رجل قابلته فى حياتى وأعطانى وأنقذنى بسرعة من شوارع روكسى، وطبعا حسن عيد مات.. مين تانى أعذبه وأربيه.. مافيش حد تانى.. غير التيوس الكبيرة.. شريف وأسامة والعملاء.. مافيش حد تانى.. بس دول عمرهم مايعملوا زى الشيخ سعيد.. كنت أريد أن أعود إلى الوراء.. إلى كل شئ أصيل وأن أنتقم من الرجال.. الرجال الذين أعطيت لهم نفسى مقابل إنقاذ حياتى وتغييرها.. وهاأنا ذا غيرت كل شئ فى حياتى.. ترى هل هناك إمرأة مثلى.. ومضت أيام أخرى هاتفنى فيها أسامة وشريف وكنت أرد عليهم بكل ثقة وقوة.. هاجى طبعا بس شوية.. فيه مشاكل مع جوزى هاحلها.. هاجى والله ماقدرش أستغنى عنكم.. طيب أسبوع كمان.. وفى آخر مرة قال أسامة كده بوخت أوى ياسوسو..طيب تعالى علشان تجيبى بقيت فلوس القرض.. وفى آخر مكالمة هددنى ولكن بشكل هزار قائلا.. لو ماجيتيش هاجيبك من ودانك.. هاخلى عميد يجيبك وإنت عارفة.. فضحكت وقلت له مهزرة أنا الآخرى.. لأ مابخافش أنا عندى لواءات يدافعوا عنى.. وفعلا أيها السادة كنت فى الفترة الأخيرة قد أرسل لى بعض الرتب الكبيرة فى الداخلية والذين خرجوا إلى المعاش بكروت بها تليفوناتهم.. فحواها أى خدمة.. تحت أمرك لوفيه أى مشاكل فى أى جهة من دوائر الدولة.. وفعلا إتصلت بهم جميعا كشئ من الإحتياط للاستعانة بهم عند اللزوم وأرسلت لهم جميعا بهدايا لتوطيد الصلة وتوثيقها... ومعظمهم

زارنى وجالسنى أمام البرج ودخن معى الشيشة وتناول الغداء معى وهو الكباب من عند صبحى.. وكانوا جميعا يريدون تحسين دخولهم وأنهم يقومون بهذه الأعمال حتى يستطيعوا مواجهة أعباء معيشتهم، وليس كثيرا علىّ وأنا فى هذه الحالة من الكفاية، أنه فى أول زيارة لكل منهم ظرفتهم بُالباكو.

وكنت قد قررت شيئا وأدركت من يوم لآخر أننى أسير نحو تحقيقه.. ماهو هذا الشئ.. لم يسكن فى داخلى بعد .. وفى يوم جاءنى شريف واندهش للبرج الذى شيدته وهنأنى واستغرق وقتا طويلا فى التحايل على حتى أذهب إلى الشركة.. وكان يقول بين وقت وآخر.. طيب هاتى بقية القرض وإنت حرة بعد كده.. وقلت لنفسى مايجراش حاجة خلصى الموضوع ده وخدى عمولتك وبعدين خلاص ..

.. وعندما عدت إلى الشركة إحتفل بى كل فرد فيها، وقبلنى أسامة بشراهة فى مكتبه أمام أحلام وهايدى ونادين وشريف، ولأول مرة لم أكن سعيدة بترحيبه بى، لقد خرج من دماغى.. خرجوا من دماغى جميعا حتى شريف.. كلهم بصراحة وسخين وكان لازم أطلع أنا من الوساخة دى يمكن ييجى يوم أنضف فيه.. ولما اتفقت مع أسامة وشريف على خطتى فى الأيام القادمة وهى كيفية الحصول على باقى أموال القرض بأقصى سرعة، ذهبت إلى مكتبى تاركة شريف وأسامة وهما يتناقشان بصوت عال فى أمر من أمور إصلاح حال المصنع.. وكنت قد أندهشت لما رأيت هايدى.. هى رجعت ولاإيه.. وبسرعة هاتفت السكرتارية:

- أيوه ياأحلام.. فين هايدى

- حمدا لله على السلامة ياحبيبتى.. هايدى رجعت تانى

- يانهار إسود ليه

- هى جاية... تقول لك

... وجاءتنى هايدى وقبلتنى مرة أخرى وراحت تبكى.. وتركتها تبكى وكنت أهز رأسى وأمتعض قائلة وأنا أربت فوق ذراعها.. مالك ياحبيبتى فيه إيه.. إنت مش إتجوزتى وسعيدة.. مش خلاص.. عايزه إيه تانى.. وبعد أن أفرغت مافى عينها من دموع قالت فى ضعف:

- صدقينى ياحبيبتى... مافيش حاجة فى الجواز خلتنى أسعد

- إزاى

- إنت عارفة إن جوزى ضابط فى قسم.. طوارئ على طول.. أعصابه مافيش.. ييجى تعبان، الفلوس قلّت.. مش قادر لوحده يقوم بالبيت.. وياريت فى الآخر بيريحنى.. لقيت نفسى خسرت كل حاجة..

- وبعدين مافيش أى حاجة حلوة

- صدقينى ياأبلة حتى الحاجة الحلوة الوحيدة اللى الواحدة بتتجوز عشانها مافيش

- إزاى
- أعصاب مافيش.. مابيعرفش
- طبعا عشان شفت البلاوى من البهوات.. وجوزك طبعا غلبان زى بقية الشعب بيشتغل طول النهار وبيرجع خلصان ولا فياجرا ولاحشيش ولارش.. هايجيب منين.. طبعا رجعت للى بيعرفوا
- عنى كان لازم آجى.. وكويس إن البيه وشريف وافقوا..
- يعنى سعادتك هنا.. ومزاجك إتربط عليهم خلاص
- بصراحة ياأبلة آى.. فلوس وأعصاب .. وبيعرفوا .. جوزى مابيعرفش
- طيب خللى بالك من نفسك أحسن تخلقى منهم
- ماتخافيش

.. انصرفت هايدى وبعدها جاءنى شريف، وكان يريد أن يضاجعنى فى المكتب كما كان يفعل من قبل لكننى رفضت ذلك قائلة له:

- كان زمان
- لما كنت فقيرة
- لأ.. علشان لقيتكم كلكم وسخين.. فاكر البنت اللى جابها مصطفى وخدتها ودخلت أدامى وجرحتنى
- هو إنت فاكرة إنك لوحدك
- فاهمة كويس بس مش أدامى.. عارفة إنك وأسامة بتجيبوا أى ست فى البلد وبالفلوس.. بفلوس البنوك
- بس بس هدى.. إنت هاتغلطى
- هاتسددوا مية وأربعين مليون منين
- وأنا مالى.. أنا فى الأول والآخر موظف
- عملتوا المطعم ليه
- مشروع تجارى
- ياريت عمركم ماعرفتم تجارة بحق وحقيق.. الشركة مجرد شكل مداريكم علشان تعملوا من خلالها اللى إنتوا عايزينه مع النسوان ونصب مع البنوك.. والمطعم اتعمل من فلوس البنوك وبرضه عشان يجيب نوعيات تانية من الستات مابتجيش الشركة، مش عارفة المفروض يبقة فيه مجلس أعلى للأخلاق فى البلد يوقفكم عند حد..
- لو عملو ميت مجلس.. عمر البلد دى ماتتصلح إلا لما يتغير الضمير، لازم يبقه فيه مثل.. الكبار اللى ماسكين البلد حرامية ومنافقين وبتوع عمولات وحريم.. يبقه جايه تطلبى منى

حاجات خايبة هاقول لك حاجة تنفعك.. صلحى من نفسك الأول .

مه استفزنى وكنت أريد أن أبصق فى وجهه.. لكننى تماسكت وكتمت كراهيتى لهم وقلت:

- صح.. ليك حق.. بينى وبينكم تخليص باق القرض

- ماتعمليش حرة علينا.. إنت ليه رقدت لينا مش عشان الفلوس ولا المزاج ولا إيه بالضبط.. على فكرة إنت رحت للعملاء كمان.. أنا عارف كل حاجة فى الشركة.. قولى ليه هو إنت ولا غيرك لقى طريق تانى غير الطريق ده وماراحوش.. خلينا نتكلم بصراحة سيبك منى وإنت.. هو دا الطريق اللى ماشى مع الناس كلها دلوقت.. ياستى لما تيجى تفوقى فوقى على اللى خلى البلد بقت كده

- طيب وأنا هاوصل له إزاى علشان أقول له وأكلمه وأعاتبه

- حتى لو وصلت له مش هايسمعك.. وهايقول فيه قضاء فى البلد.. القضاء ياخد مجراه.. ودن من طين وودن من عجين... مش صاحب قرار وهو عايزها كده لأن مصلحته إن أحنا كشعب نصفّى بعض

- نصفّى بعض ويعيش الفساد

- يقول لك هى الدنيا كده مبنيه على فساد

- وبعدين

- لازم ناس نضاف تيجى

- وآخرتها

- عيشى زى ماالناس عايشة وبلاش أمور الثورية والخيبة اللى بتطلع منك دى من يوم للتانى.. خلى البرج اتنين وتلاتة ومافيش غير الطريق ده ومالكيش دعوة بغيرك.. عيشى مع أسامة وأنا والعملاء وأى حد تقابليه طالما فيه فلوس عيشى إنت بشر، إذا كنت أنا سايب مراتى عشان أمورى كلها تمشى.. هو أنا كنت هابنى قيللا الشروق منين ولا دخلى هايبقه أكتر من خمس تلاف دولار فى الشهر منين... وسكت قليلا ثم أكمل:

- تعالى ياعم حلال.. طيب هاتيلى الحلال.. هاتيلى واحد عايش بالحلال فى البلد.

- لأ.. لأ فيه ناس كتير أوى

- فين دول.. إنت عارفه اللى دمر البلد مين.. إن الفقرا جابوا على الآخر طالما إنها خربانة خربانة.. تجارة فى كل شئ فى البانجو والحشيش ونسوانهم وبناتهم ونصب وسرقة على مستواهم.. من تحت الفقراء شغالين على الآخر.. ومن فوق الطبقة اللى فوق خربتها أكتر بالنصب على مستوى بسرقة أموال البنوك، التجارة فى الممنوع، بيع الشركات وأخد العمولات الرهيبة، التعامل على مستوى مع تجار الحشيش وزراع الحشيش والأفيون، ودخول كل أنواع البودرة عبر المنافذ، طوفان رهيب من فوق بيحرسه مين وبيسيبه مين، ونخرور الفقراء من

تحت فى قاع البلد زى المية الوسخة ماتمخر فى الجدار حتى ينهار.. هو الجدار إنهار فعلا فاضل فيه حته صغيرة

- والطبقة المتوسطة فين

- إنت من الطبقة المتوسطة.. رحت فين.. طلعت لفوق وشبكت مع حرامية الفلوس، الناس اللى زينا وغيرك آلاف الستات، وفيه زيك نزل لتحت مع الفقراء بيعمل زى مابيعملوا.. ولسه الطبقة المتوسطة فاضل فيها شوية

- ممكن تنتهى خالص

- ماعرفش لكن السوس شغال من فوق ومن تحت.. يعنى هاتخلص

- يعنى دخلتنى فى مواويل مالهاش لازمة.. إنت عايز إيه بالضبط

- عايزك تعيش وبلاش فلسفة.. إنت فاكره إنك بقيت غنية دا انت أفقر واحدة فى البلد.. شوفى غيرك عنده مليارات من العملة الأجنبية .

- من اللى فوق

- واللى تحت... إصحى ياسهير وعيشى.. تعال بقه ننسى.. هاقفل الباب بالترباس

- بصراحة لأ.. الموضوع عندى قضى على أعصابى.. مش عايزه حاجة ومش باحب أى حاجة.. مش عارفه أعمل إيه.. سيبنى أمشى

- خلاص إمشى... خللى بالك من الطريق.. شيلى من دماغك التوهان.. وأنصحك عيشى زى الناس علشان ماتتعبيش

- متشكرة ياشريف

... ولملمت حاجياتى وانصرفت قرب التاسعة مساءا، وكالعادة وجدت فاتن تنتظرنى فى البيت، فهى لا تترك الأبناء وحدهم قبل أن أصل، وقبلتها وذهبت ونام الولد والبنت، واختليت بنفسى وكالعادة دعوت نفسى إلى محكمة أقمتها أنا.. وقلت لها هل من حد فاصل يقطع بين مامضى والآن.. فقالت نفسى.. ولماذا لا تدعينى أعيش؟ الحياة حلوة.. فلوس وجنس وهبصة وحياة.. ليه ياست سهير تعكننى علىّ.. مش انتقلت من عين شمس.. غيرت حياتك وبقيتى فى مصر الجديدة.. عديتى جسر السويس.. بنيت برج وبتعملى كوفى شوب على مستوى.. وأبو دقن تحت رجلك ولواءات الشرطة بيتمنوا أى خدمة.. إنت بقيت سيدة.. بلاش الضمير والأخلاق مابيعملوش حاجة فى الزمن ده.. ياستى عيشى وخليك طبيعية.. واحدة ست بإمكانياتك دى لسه باقى لك عشر سنين عز على الأقل.. دا أجدع راجل فى البلد بيتمناك.. هاتى على الآخر.. إنت ممكن تقللى من طلعاتك.. بلاش الطريق بتاع فلوس البنوك.. سيبى الشركة وإلغى من حياتك أسامة وشريف والعملاء.. إعملى ناس جداد.. استغلى إمكانياتك لنفسك خليك واحدة واحدة وجرّبى.

.... ورحت فى نوم عميق وأنا أتحدث مع نفسى.. ومرت أيام وأنا فيها بين البيت والبرج والخادم الشيخ سعيد الذى كان يشعرنى بأننى أهزّأ الرجالة اللى اشتغلت معاهم فى صورته وأحلى حاجة كنت باشعر بسعادة لما ساعات أضربه برجلى وهو يحاول تقبيلها، وبدأ البرج ينور طريق جسر السويس وأيام أخرى ملّكت شقة بعد أخرى لناس محترمين وشاركنى فى إختيار الناس اللواء مدحت.. شاركنى بالأجرة لمدة شهرين حتى إمتلأت البناية بسكانها، وقضى لى مصالح كتيرة فى جهات حكومية مقابل مبلغ من المال لكل مأمورية، ولم أكن أصدق كيف لرجل مثل هذا كان لواء وكان كالعادة زى زمايله كان عامل شنه ورنه فى شغله، وكان بيحكى لى لدرجة إن دماغى كان بيوجعنى.. هذا اللواء كان يتمحلس مثل الشيخ سعيد من أجل القرش، وشعرت فى يوم أن هناك رجلين خادمان مخلصان وتحت أمر جزمتى هما الشيخ سعيد واللواء مدحت، وكله بالفلوس.. إيه العز ده.. وبعد ذلك اتفقت معه على العمل معى بصفة دائمة نظير أجر شهرى ثابت وسوف نزيد هذا الأجر عندما يعمل الكوفى شوب، خاصة أننى سأعمل فيه صالة رقص وهاجيب فيه الراقصة ماهيتاب بتاع ملهى سى هورس ترقص فيه علشان رجالة جسر السويس تتبسط، وكنت أنوى هذا لكن واحدة بعد الأخرى، بالرسم والتخطيط والتكتكة كل شئ يتم.. ومرت أيام أخرى فيها لم أستطع الحصول على ترخيص إقامة ملهى بجسر السويس، وكلفت اللواء مدحت بالبحث عن مكان آخر، وفى يوم استطعنا شراء دور أرضى بإحدى بنايات الكورنيش فى مصر الجديدة، وأقمنا الملهى فى شهور، وجئت بخبير حتى أصبح الملهى على أعلى مستوى، فيه طرب المطربات والمطربين وفيه الراقصة ماهيتاب بنت الحلمية الجديدة وهى متزوجة من رجل أعمال معروف، وفيه الراقصة نورا وهى روسية وفيه وفيه.. وكان الملهى يصل إلى ذروته فى الثانية عشرة ويذهب عنه رواده فى الرابعة والنصف، وفى يوم جائتنى أحلام وبعدها جاءتنى هايدى، ثم نادين، وكان الملهى يعج ببنات الليل من كل أحياء القاهرة ومن مدن أخرى وجميعهن فى عمر الزهور، وكان وراء كل واحدة قصة، ولم أكن أملك من الوقت والجهد حتى أدير هذا الملهى الناجح وحدى، إستعنت بعدد من اللواءات الذين فضلوا العمل من خارج الملهى لحمايته، واشتغلت أحلام وهايدى ونادين فى إدارة توزيع بنات الليل على رواد الملهى بشكل يرضى الجميع وكنت حريصة على أن يرضى جميع الزبائن عن خدمات الملهى وصاحبته، وأعطيت ظهرى للبرج ووكلت أعماله للشيخ سعيد الذى أصبح عبدا مهملا من جانبى حتى أنه لم يعد هناك وقت كما كان من قبل ليقبّل قدمى، وعندما كنت أذهب إلى هناك وأغادر، كان يلهث خلفى كالكلب.. ياستى.. ياستى إنت فين.. طيب أبوس رجلك بس، وفى يوم جلست مع أحلام فقالت لى:

- إنت حررتينى ياست الكل

- إزاى

- يعيد عن شر وسيطرة أسامة.. كنت بحس إنى بادفع ضريبة وإنه بيغتصبنى
- وإيه كمان
- دخلى فى اليوم الواحد أقل حاجة ألف جنيه.. دانا ياست الكل هابنى عمارة قريب
وكنت سعيدة بذلك، وفى يوم آخر قالت لى هايدى:
- تصورى جوزى سابنى وراح قعد عند أمه من ساعة ماشتغلت فى الملهى
- ليه
- قال إنى كنت فى الشركة مدارية.. لكن الملهى فضيحة له
- قلت له كل واحد له طريقه
- ولسه عند أمه
- يومين وهايرجع.. هى الندالة هاتسيبه وتروح لمين
- عرفيه بتكسبى أد إيه فى اليوم
- أنا متأكده إنه هايرجع من تليفون واحد منى عن مكسبى.. بس أنا سايباه يتربى شوية
.. ومرت أيام أخرى فيها عرفت البهوات والبشوات بتوع المصانع وبتوع التهريب وكبار التجار والأغنياء والناس اللى واصلة.. عالم كبير ولذيذ كله فلوس وعظمة وجنس وحياة.. مين يسيب الدنيا دى ويحارب نفسه.. آه يانفسى كان ليك حق..
.. وفى ليلة من الليالى وأنا أجلس وسط الملهى بين أصحابى من الرجال والنساء، جاءنى شريف فأخذته ودخلنا غرفة الإدارة ودار بيننا الحديث الآتى:
- ياست سهير إنت عارفه غلاوتك عندى.. وسكت
- وبعدين
- عايزك ترجعى الشركة لأن أسامة مجنون.. ويمكن يعمل معاك حركة مش كويسة
- هايعمل إيه يعنى
- دا مجنون، وأنا خايف عليك
- أنا أجن منه
- دا متهور
- إزاى أرجع واسيب عالم كبير أوى ملكى.. وإنت شايف
- أنا خايف عليك، هو عايزك وخلاص.. مش قلت لك قبل كده هو بيحب يتملك الناس
- إزاى دا كان زمان... إزاى أرجع وأنا أعرف خمسين أكبر منه.. هو الإنسان بيروح للكبير ولا الصغير.. قل له دا كان زمان وجبر
- يعنى دا آخر كلام
- آخر كلام واللى عايزه يعمله

.. انصرف شريف وهو يحدق فى بشكل حاد ويبدو أنه إنبهر من الجو الذى أملكه وأعيش فيه، مرت دقائق بعد انصرافه واستدعيت اللواء مدحت والذى أخبرته بما حدث، وبسرعة معهودة منه قال:

- من بكرة هاجيب لك واد كان أمين شرطة صايع، بيشتغل بلطجى.. نديله أجرته ويكون معاك حارس شخصى ليل ونهار

- بكام.. ألف

- لأ.. ألفين

- هاته

- بكره

- أنا عايزه مسدس

- بكرة

وفى اليوم التالى أتانى اللواء مدحت بأمين الشرطة السابق، اسمه عبده الجعلى، وكان يحمل مسدس خاص به، وجاءنى مدحت بمسدس خاص بى، وفى اليوم التالى أخذت عبده الجعلى فى مكان صحراوى ليدربنى على إستخدام المسدس، وكان هذا اليوم فى التدريب كاف حتى استخدم المسدس بكفاءة واستطيع الدفاع عن نفسى.. ولم أبال بأمر يخيفنى خاصة وأننى محاطة بناس كبار أوى ومعايا حرس خاص ومسدسى فى شنطتى ليل ونهار..

- ومرت أيام أخرى.. وكالعادة فى يوم كنت وسط أصدقائى وصديقاتى فى قلب الملهى.. فإذا بى أسمع هرجا.. وسّع الباشا.. أوعى يابت.. اتفضل ياأسامة بيه.. إنزعج الناس قليلا.. لكنهم لم يعبأوا عندما جلس أسامة على منضدة وحوله إثنان بودى جارد وجلس بجانبه شريف، كنت أرى كل شئ أمامى وأنا هادئة ساكنة وسط شِلتى... مرت دقائق وكان أسامة يحدق فى كل مافى الملهى بشراسة وحقد، كانت عيناه متورمتين ووجهه أحمر كالعادة وفى يده سيجارة محشوة يدخن منها بشراهة حتى إلتقت عيناه بعينى.. كانت عيناه سافرة جاحظة ساخرة.. وفى لحظة طفق قائلا بصوت عال:

- يابنت الشرمو..... دى كلها فلوسى

.. ودق الترابيزة بقبضة يده.. أمرت الحارس بأن يذهب ليهدئه ويسأله ماذا يريد .. ولما ذهب إليه عبدة الجعلى أبلغه.. ماذا تريد .. فحدق فى وجه الحارس وقال فى إنحطاط بصوت مخبول:

- إمشى يابن الوسخة وقول للوسخة تطلع من هنا

... اشتعلت النار فى صدرى وصعد دخانا فى رأسى.. وبدأ بعض الزبائن تمشى.. وتوقفت الراقصة عن الرقص والمغنى عن الغناء .. هذا الأفعى يهددنى فى مملكتى فى دارى.. وسحبت المسدس من الحقيبة ووضعته فى جيب سروالى وقمت كأننى أذهب إلى حمّامى، كل ذلك مرّ

فى لحظات.. وذهبت إليه من طرقة خلف ظهره، وفجأة وجدنى أمامه فابتسم فى سخرية قائلا محاولا أن يكون طبيعيا:

- جيت.. جيت ياوسخة يالّه بقى على المعادى

- معادى مين بابن ستين وسخة

ووقف شريف ليبعدنى عنه.. فقام أسامة منفعلا.. أنا ابن وسخة

- طبعا إبن وابن.. وجبت له سلسفيل جدوده..

وضع يده فى جرابه ليخرج مسدسه ويتهور كعادته فكنت أسبق منه، وفى سرعة البرق أطلقت وابلا من الرصاص فى رأسه، سقط على الأرض مضرجا فى دمائه، وفى لحظات أخرى أطلقت رصاصة واحدة فى رأس شريف الذى سقط بجواره.. ألقيت بالمسدس فوق الأرض وأنا أصرخ وهلعت إلى الشارع والحارس خلفى يحاول اللحاق بى، لم أكن أر شيئا وشعرت بأننى أرتطم بجسم صلب وأن عجلات عربة مسرعة تدهس رأسى...

تمت بحمد الله وعونه

خيرى حداد

موبايل/ ٠١٠٨٨٣٧٨٥٩

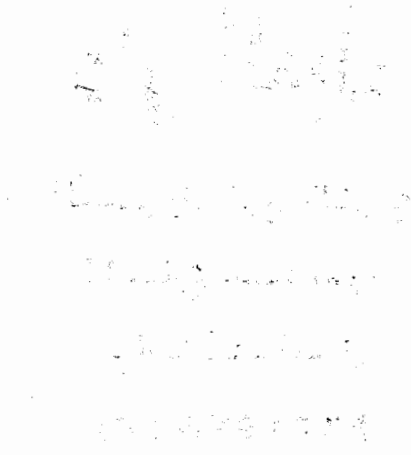

الناشر

دار النيل

للنشر والطبع والتوزيع

١٢ شارع عبده بدران

م الباشا ـ المنيل

ت : ٣٦٢٢٥٧٨

رقم الأيداع

٢٠٠٦ / ٨٤١٧

الترقيم الدولى

977 - 432 - 5577